الصحيح

من سيرة الإمام علي عليه السلام

(المرتضى من سيرة المرتضى)

الصحيح

من سيرة الإمام علي عليه السلام

(المرتضى من سيرة المرتضى)

العلامة المحقق

السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء الحادي والثلاثون

مركز نشر وترجمة مؤلفات العلامة المحقق

آية الله السيد جعفر مرتضى العاملي

عاملي، جعفر مرتضى ١٩٤٤م.

الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام (المرتضى من سيرة المرتضى) /**السيد جعفر مرتضى العاملي**. قم: أيام، ١٤٣٢ ق.= ٢٠١٢م. = ١٣٨٩.

٥١٢ ص.

ISBN : ٩٧٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩١٠٦٣ ـ ٩ ـ ٧ ٦٠٠،٠٠٠ ريال

فهرست نويسى بر اساس اطلاعات فيپا.

كتابنامه:

١. علي بن أبي طالب (ع)، إمام اول، ٢٣ قبل الهجرت ـ ٤٠ ق سر گذشت نامه. ٢. إسلام ـ تاريخ از آغاز تا ٤١ ق. ألف. عنوان ب. عنوان: المرتضى من سيرة المرتضى.

٣ ص ٤٢ع BP ٣٧/٣٥ ٢٩٧/٩٥١

١٣٨٩

اسم الكتاب:	**الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام**
اسم المؤلف:	**السيد جعفر مرتضى العاملي**
الناشر:	**نشر أيام**
الطبعة:	**الأولى ١٤٣٢ هـ.ق = ١٣٨٩ هـ.ش =٢٠١٢ م**
عدد المطبوع:	**٢٠٠٠ نسخة**
سعر الدورة: ٣١ ـ ٤٥	**٦٠٠٠٠ توماناً**
ردمك ج٣١:	**٩٧٨ ـ ٩٦٤ ـ ٩١٠٦٣ ـ ٣ ـ ٥**

العنوان: ايران ـ قم ـ ٤٥ متري صدوق ـ صدوقي ٦ پلاك ٢٠ تلفن: ٠٩١٢٦٥١٨٨١٤ ـ ٠٩١٢١٥١٧٦٧٧

اين اثر با حمايت معاونت محترم فرهنگي وزارت فرهنگ وارشاد اسلامى طبع شده است

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث:

غارتان على عين التمر..
وعلى الجزيرة..

6 ـ غارة النعمان بن بشير على عين النمر:

قال ابن الأثير وغيره:

في هذه السنة [39 هـ] (وقبل غارة سفيان بن عوف) فرق معاوية جيوشه في العراق في أطراف علي، فوجه النعمان بن بشير في ألف [ألفي] رجل إلى عين التمر، وفيها: مالك بن كعب، مسلحة[1] لعلي في ألف رجل، وكان مالك قد أذن لأصحابه فأتوا الكوفة [في حوائجهم] ولم يبق معه إلا مائة رجل.

فلما سمع بالنعمان كتب إلى أمير المؤمنين يخبره ويستمده.

فخطب علي الناس، وأمرهم بالخروج إليه، فتثاقلوا.

فصعد علي المنبر، فخطبهم، ثم قال:

يا أهل الكوفة! المنسر من مناسر أهل الشام، أكلما أطلّ عليكم انجحرتم في بيوتكم، وأغلقتم أبوابكم، انجحار الضّبّة في جحرها،

---

(1) أي أنه مسؤول المفرزة المسلحة التي ترابط في ذلك المكان.

والضبع في وجارها، الذليل والله من نصرتموه، ومن رمى بكم رمى بأفوق ناصل.

أفّ لكم، لقد لقيت منكم ترحاً، ويحكم يوماً أناجيكم، ويوماً أناديكم، فلا أحرار عند النداء، ولا إخوان صدق عند اللّقاء، أنا والله منيت بكم، صمّ لا تسمعون، بكم لا تعقلون، عمي لا تبصرون فـ **(الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعالَمِينَ)**.

ويحكم اخرجوا ـ هداكم الله ـ إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النّعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم لعلّ الله يقطع بكم من الكافرين طرفا. ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وجوههم وكبرائهم، فأمرهم أن ينهضوا ويحثّوا الناس على المسير، فلم يصنعوا شيئاً.

وواقع مالك النعمان، وجعل جدار القرية في ظهور أصحابه، وكتب مالك إلى مخنف بن سليم يستعينه، وهو قريب منه، واقتتل مالك والنعمان أشد قتال، (حتى دفعه عن القرية).

فوجه مخنف ابنه عبد الرحمن في خمسين رجلاً، فانتهوا إلى مالك وقد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا، فلما رآهم أهل الشام انهزموا عند المساء، وظنوا أن لهم مدداً، وتبعهم مالك، فقتل منهم ثلاثة نفر. وقتل من أصحاب علي رجل واحد(1).

---

(1) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص114 و 115 عن الكامل في

ويقال: إن علياً «عليه السلام» أَتْبَعَ النعمان، عدي بن حاتم الطائي فمضى حتى شارف قنسرين، ثم انصرف(1).

ونقول:

لا بأس بملاحظة ما يلي:

ذروة التخاذل عن علي ×:

إن أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» لم يستجيبوا لطلبه منهم أن يخرجوا لمعونة إخوانهم على صد النعمان بن بشير، بالرغم من خطبته فيهم مرتين يحثهم على الخروج، وفي الثالثة استعان عليهم بوجوههم وكبرائهم، فلم يصنعوا شيئاً.. وهذا يعتبر ذروة التخاذل والسقوط في فخ حب الدنيا، والإخلاد إلى الأرض..

التاريخ ج2 ص425 و (ط دار صادر) ج3 ص375 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص133 و (ط الأعلمي) ج4 ص102 والبداية والنهاية ج7 ص320 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص354 والغارات للثقفي ج2 ص447 - 457.

وراجع: تاريخ اليعقوبي ج2 ص195 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص303 - 305 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص 346 و 347 و (ط أخرى) ج3 ص305 - 307 و (ط الأعلمي) ج2 ص447 و 448.

(1) أنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص347 و (ط الأعلمي) ج2 ص448.

مع أنهم يعلمون أن معاوية إن تمكن منهم، فإنه لن يعاملهم بالصفح واللين، كما يعاملهم أمير المؤمنين «عليه السلام»، ولن يعطيهم أي خيار في التخلف عن تنفيذ أوامره، أو نواياه إن علموا بها، ولو لم يفصح لهم عنها، بل هو سيعاملهم بقسوة بالغة.. لاسيما إذا اعتبر أنهم قد أعاقوه عن الوصول إلى ما يصبو إليه، حيث حاربوه في صفين، وأخافوه، وكادوا أن يقضوا عليه مرات عديدة.. وسينتقم منهم لأجل ذلك كله شر انتقام، وسيكون هو وبنو أمية، لهم أرباب سوء، كالناب الضروس تعذم بفيها، وتزبن برجلها، ولن يدعو منهم إلا نافعاً لهم، أو غير ضارٍّ بهم. على حد تعبير أمير المؤمنين «عليه السلام».

كما أنهم يعلمون أيضاً: إن ما يجرى على إخوانهم في عين التمر، سوف يجري عليهم مثله، إن رجع عدوهم سالماً غانماً.

وقد أعلمهم أمير المؤمنين «عليه السلام» أيضاً: أن جمع أهل الشام مع النعمان ليس بالكثير، فردّ عاديتهم سيكون ميسوراً لهم..

فلماذا هذا التخاذل.. وكيف انتهت الأمور إلى هذا الواقع الأليم؟!

كيف ولماذا نشأ هذا الواقع؟!:

وقد تحدثنا فيما سبق عن حالة العراقيين حين قدم عليهم علي «عليه السلام»، وتحدثنا عن هذا الأمر أيضاً في كتابنا: علي «عليه السلام» والخوارج، ونعيد هنا بعضاً مما ذكرناه، بملاحظة بعض المستجدات فنقول:

يستوقفنا في النص المتقدم أمران:

الأمر الأول: المجتمع الذي كان الإمام يتعامل معه كان مجتمعاً عشائرياً، يهيمن عليه رؤساء القبائل بصورة عامة.. وهذا هو السبب في أنه «عليه السلام» قد استعان هنا حتى بالوجهاء والكبراء من أهل القبائل، ولكنه لم يصل إلى نتيجة.. فهل زال تأثير الرؤساء عن مرؤوسيهم؟! أم ماذا؟!

ونجيب:

أولاً: قوله في النص المتقدم عن الرؤساء والكبراء، فلم يصنعوا شيئاً يحتمل في معناه وجهان:

أولهما: أن يكون المراد: أن جهد الكبراء والرؤساء لم يؤد إلى نتيجة.

الثاني: أن يكون المراد: أن الكبراء والوجهاء لم يتحركوا، ولم يبادروا إلى تنفيذ ما طلبه «عليه السلام» منهم، أو أنهم لم يبذلوا الجهد المتوقع منهم في أمر حساس كهذا..

الأمر الثاني: ليكن المراد ـ أي من هذين المعنين ـ فإن هناك حقيقة لا بد من الإعتراف بها، وهي أن العراق قد فتح على يد الذين سبقوا علياً «عليه السلام»، وجعل منطلقاً للفتوحات في بلاد فارس، وما ولاها..

وكان الإهتمام فيه منصباً على توسعة سلطان الحاكمين، وكان اهتمام الفاتحين، ولاسيما الرؤساء والكبراء منهم هو الحصول على

الغنائم والأموال، والسبايا، والإقطاعات، والولايات، وبسط النفوذ.

فكانت الأطماع هي المهيمنة على اهتمامات الناس، وكان يكتفي في إسلام الناس بمجرد الظاهر، والإلتزام بالطقوس والشعائر.. ولم يكن هناك أي اهتمام بتربية النفوس، وتهذيبها، ولم يثقف الناس بأحكام الدين، ولا بُيِّنْتْ لهم حقائقه، وأهدافه ومراميه، ولم يبذل جهد لتطهير الأخلاق من الرذيلة، وإشاعة الأخلاق والفضائل، والخصال الحميدة، والصفات النبيلة. ولم يذق الناس طعم العدل. ولم يهتموا بإقامة العلاقات الإجتماعية، والعلائق الأخوية بين أبناء ذلك المجتمع.

وبكلمة واحدة نقول:

إنهم لم يعرفوا إسلام النبي وعلي، وإنما إسلام التوسع والأطماع، فلا يجب أن نستغرب أن نرى الناس لا يستيجبون حتى لرؤسائهم إذا لم يجدوا ما يلبي طموحاتهم، ويستجيب لرغباتهم، بل لا نستغرب إذا كان اندفاع الرؤساء والوجهاء لتلبية مطالب أمير المؤمنين «عليه السلام» بطيئاً وضعيفاً، ولمجرد رفع العتب، فإذا علم مرؤوسهم منهم هذا التباطؤ والتثاقل، فسيكونون أشد تباطؤاً وتثاقلاً، وخموداً وجموداً.

هذه هي الحقيقة.. لقد ظهر للناس: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» لا يجبرهم ولا يقهرهم على القيام بأي عمل لا يرغبون بالقيام به، حتى لو كان عملاً جهادياً، بل هو يريد منهم أن يندفعوا طواعية وبملء إرادتهم إلى جهاد عدوهم، لينالوا ثواب المجاهدين والمطيعين.

فهم قد أمنوا جانبه، واستفادوا من هذه الفسحة التي منحهم إياها

الشرع الشريف الذي لا يمكن لعلي «عليه السلام» أن يتخطاه ولو بمقدار شعرة واحدة، مهما كان الثمن باهظاً عليه.

فنشطوا حين كانوا يرون في نشاطهم نفعاً ظاهراً لهم، أو كان يرضي غرورهم، ويؤكد شوكتهم، وحيث يأملون بأن يأتيهم بالمنافع الكبيرة.

وتباطأوا حين وجدوا أن منافعهم الشخصية الدنيوية ستكون في خطر، أو سيلحق بها ضرر، أو ستكون أدنى مما يتوقعونه. ثم تباطأ وأكثر حين أصبح الأمر مرتبطاً بتكريس معاني العزة والكرامة، والشمم والشهامة، وحفظ الدين، ودفع العدو عن المسلمين والمؤمنين، ومواجهة أطماع أهل الباطل والجبارين والباغين.

لأن هذه المعاني السامية، والنظرة البعيدة، وحمل هموم الأمة، والتفكير بمصيرها، وبحفظ دينها، وقيمها، والدفاع عن كرامتها، لم تكن هي التي يفكرون فيها، ويسعون إليها.

بل كان الذي يستأثر باهتمامهم، وهو محط نظرهم، وله غاية سعيهم ـ كان ـ أصغر وأخف، وأيسر لهم من ذلك، وآثر لديهم من كل هذه الأهداف الكبيرة، والسامية والخطيرة.

إنهم يريدون ما يشبع شهواتهم الحاضرة، ويسكت غرائزهم الثائرة، ويبلغهم أمالهم القصيرة، ويلبي حاجاتهم الصغيرة والحقيرة.

ولأجل ذلك ساءهم حرمانهم من الغنائم والسبايا الجميلة، والإقطاعات الجليلة والعطايا الجزيلة، منذ كانت حرب الجمل، وإلى

أن استشهد أمير المؤمنين «عليه السلام»..

وساءهم أكثر من ذلك مساواته «عليه السلام» في العطاء بين الرئيس والمرؤوس فيهم، وأجرى سنة العدل في الشريف والوضيع، وعاملهم بالحق والصدق والعدل كله، فأغضبهم ذلك.. فصاروا وأعني بذلك الكبراء والرؤساء سيسرقون بيوت الأموال يهربون إلى معاوية كما سنرى.

وتذكر الروايات:

1 - إن علياً «عليه السلام» شكا إلى الأشتر فرار الناس إلى معاوية.

فقال الأشتر: يا أمير المؤمنين، إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة، والرأي واحد، وقد اختلفوا بعد، وتعادوا، وضعفت النية، وقل العدل، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضيع من الشريف، وليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع.

فضجت طائفة ممن معك على الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، وصارت صنائع معاوية عند أهل الغنى والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقل من الناس من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم من يجتوي الحق، ويستمرئ الباطل، ويؤثر الدنيا.

فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الناس، وتصف نصيحتهم، وتستخلص ودهم.

صنع الله لك يا أمير المؤمنين، وكبت عدوك، وفض جمعهم، وأوهن كيدهم، وشتت أمورهم، إنه بما يعملون خبير.

فأجابه علي «عليه السلام»، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل، فإن الله يقول: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)**(1).

وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف.

وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولم يدعوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها، وليسألن يوم القيامة: أللدنيا أرادوا أم لله عملوا؟!

وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال، فإنا لا يسعنا أن نؤتي امرأً من الفيء أكثر من حقه، وقد قال الله وقوله الحق: **(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)**(2).

وبعث محمداً «صلى الله عليه وآله» وحده، فكثَّره بعد القلة، وأعز فئته بعد الذلة، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلل لنا صعبه، ويسهل لنا حَزْنَهُ(3).

---

(1) الآية 46 من سورة فصلت.

(2) الآية 249 من سورة البقرة.

(3) الحزن: المكان الغليظ الخشن، والحزونة: الخشونة راجع: النهاية ج1

وأنا قابل من رأيك ما كان لله رضى، وأنت من آمن أصحابي، وأوثقهم في نفسي، وأنصحهم، وأرآهم عندي[1].

2 - روي عن ربيعة وعمارة: أن طائفة من أصحاب علي «عليه السلام» مشوا إليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومن تخاف خلافه من الناس وفراره.

قال: وإنما قالوا له ذلك للذي كان معاوية يصنع مع من أتاه.

فقال لهم علي «عليه السلام»: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟!

والله لا أفعل ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم.

والله، لو كان ما لهم لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟![2].

ص380.

(1) الغارات للثقفي ج1 ص71 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص197 عن فضيل بن الجعد، وبحار الأنوار ج29 ص493 وج34 ص163 وج41 ص134 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص171.

(2) الغارات للثقفي ج1 ص74 - 75 وج2 ص827 وراجع: الأمالي للطوسي ص194 ونهج البلاغة (بشرح عبده) ج2 ص6 وتحف العقول ص185 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص173 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج15 ص107 و (الإسلامية) ج11 ص82 ومستدرك الوسائل

3 ـ بعث سهل بن حنيف ـ والي الإمام على المدينة ـ رسالة إليه، يخبره فيها أن جمعاً من أهل المدينة التحق بمعاوية. فكتب الإمام في جوابه:

«أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غياً، ولك منهم شافياً فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم[1] إلى العمى والجهل.

وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً!!

إنهم ـ والله ـ لم ينفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل، وإنا لنطمع في

ج11 ص91 و 93 والأمالي للمفيد ص175 ومناقب آل أبي طالب (ط المكتبة الحيدرية) ج1 ص365 وحلية الأبرار ج2 ص283 و 355 و 357 وبحار الأنوار ج32 ص48 وج34 ص208 وج40 ص321 وج41 ص108 و 122 وج72 ص358 وج75 ص96 وج93 ص165 وميزان الحكمة ج3 ص2423 و 2424 ونهج السعادة ج2 ص450 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص203 وج8 ص109 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج2 ص199 والإمامة والسياسة (تحقيق الزيني) ج1 ص132 و (تحقيق الشيري) ج1 ص174.

(1) أوضع: أسرع في سيره، أو سار سيراً سهلاً سريعاً.

هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله. والسلام(1).

وذلك كله يوضح لنا بعض ما يرمي إليه «عليه السلام» بقوله: «ليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدونني لأنفسكم».

وبذلك يتضح: أنه لم يكن هناك جامع بينه وبينهم، فالهدفان مختلفان، والرغبات والسياسات متباينة.

أين أهل الدين؟!

ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك من يهتم بأمر الدين، ومراعاة أحكام الشريعة..

لكن هؤلاء كانوا على قسمين:

أحدهما: من كان يريد أن يلتزم بالدين وأحكامه، ولكن فهمه كان قاصراً عن استيعاب حقائق الدين ومراميه، ولم يلزم نفسه بالأخذ من المنبع الصافي للمعارف، الذي دلته عليه الآيات وكلمات الرسول

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص131 الكتاب 70 ونهج السعادة ج5 ص18 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج18 ص52 وأنساب الأشراف ج2 ص386 و (ط الأعلمي) ص157 وبحار الأنوار ج33 ص521 وراجع: تاريخ اليعقوبي ج2 ص203 وخصائص الأئمة ص113 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص173.

ومواقفه، فتابع الآخرين الذين أوقعوه في الشبهات، أو صدته عن الحق العصبيات، أو تاه في بحار الظلمات والجهالات، فاختلطت عليه الأمور، وأضعفت عزيمته الأضاليل والأباطيل التي كانت أوهمته أن الإحتياط في الدين يحتم عليه التحرج من قتال أهل القبلة وسفك دمائهم.

وهناك أناس ضخمت صورتهم، ونسجت لهم الفضائل، وقضت السياسة بمنحهم دوراً أكبر من حجمهم، فأثرت مواقفهم السلبية على طائفة من الناس.

فقد ادعى سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأسامة بن زيد: أنهم يتحرجون من الدخول في هذه الحروب، وآثروا اعتزالها، تخففاً من أعبائها، واستجابة لحزازات كانت في أنفسهم، أو لقلة وعي بعضهم..

وقد أشار «عليه السلام» إلى تأثير هذا الأمر فيهم بقوله: «وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة، ولا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر، والصبر، والعلم بمواضع الحق.

فامضوا لما تؤمرون به، وقفوا عند ما تنهون عنه. ولا تعجلوا في أمرحتي تبينوا؛ فإن لنا مع كل أمر تنكرونه غيراً»**(1)**.

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج2 ص86 وبحار الأنوار ج34 ص249 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج9 ص330 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص185 وميزان الحكمة ج3 ص2109.

فقدان الكبار:

والأهم من ذلك.. ما أشار إليه الأشتر لهم في صفين بقوله: «قتل أماثلكم، وبقي أراذلكم»(1).. فإن الحروب، ولاسيما حرب صفين قد التهمت الصفوة الأخيار، والكبار الكبار من أصحابه، الذين كان لهم الأثر الكبير في استنهاض الناس، وفي بث الوعي، وشحذ الهمم. من أمثال: عمار، وأبي الهيثم بن التيهان، وذي الشهادتين، وابن بديل، وهاشم المرقال، وجندب بن زهير، وزيد بن صوحان.. وكثيرين آخرين من هذا الطراز.. ثم فقد الأشتر، ومحمد بن أبي بكر.

من أجل ذلك كله، وسواه: خمدت جذوة أهل العراق، وذهبت ريحهم، وملأوا قلب إمامهم قيحاً، فإنَّا لله، وإنا إليه راجعون.

وستأتي النصوص التي تصرح: بأن آثار فقد الأشتر التي لمسها الناس في حياتهم بصورة ظاهرة..

---

(1) بحار الأنوار ج32 ص534 والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص724 والمعيار والموازنة ص164 ونهج السعادة ج2 ص251 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص219 وتاريخ مدينة دمشق ج56 ص387 وتاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج4 ص35 وصفين للمنقري ص491 والفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج3 ص187 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج6 ص195 وفي الأخبار الطوال ص190: قتل خياركم وبقي أراذلكم.

معالجات أمير المؤمنين ×:

وقد ظهر من كل هذا الذي ذكرناه: أن الحالة التي ألمت بالمجتمع العراقي، لم تكن بسبب سياسات أمير المؤمنين «عليه السلام» فيهم.. بل هي أمور ووقائع، فرضت نفسها على الواقع العام.

وقد تمكن أمير المؤمنين «عليه السلام» بسياساته التي لا نظير لها: أن يحقق إنجازات هائلة، لم يكن يمكن توقع حصولها حتى في أحسن المجتمعات حالاً، وأجمعها لمزايا السلامة والقوة، وأكثرها رقياً في القدرات والإمكانات المؤثرة.

فما بالك بمجتمع فاقد من الأساس لأدنى الميزات والقدرات. وقد عرفنا طرفاً من أدوائه وأسوائه، بل لو أمعنا النظر في حال أهل العراق لأدركنا أن مجتمعاً فيه كل هذه النقائص والأسواء والأدواء لا يمكن أن نتوقع منه إلا الإنهيارات المتواصلة، والكوارث والرزايا المتتابعة، والمصائب والبلايا التي لا تنتهي.

ولكن حين تهيأت لهذا المجتمع قيادة إلهية استطاعت أن تجترح به المعجزات، وتحول المستحيلات إلى ممكنات.. فصلوات الله عليك يا أمير المؤمنين، ووصي رسول رب العالمين ورحمة الله وبركاته.

آخر اللمحات:

ونذكر أخيراً بما يلي:

1 - إنه «عليه السلام» حتى عندما فقد أعوانه، وتلاشت بين يديه

كل عناصر القوة، ولم يعد في حوزته أي من أدوات التحريك لم يستسلم لهذا الواقع الجديد، بل بقي يعمل على تحريكه وإيقاظه، وبعث نفحات من الحياة فيه، كانت تنعشه حيناً، وتظهر حيناً آخر على شكل استجابات ضعيفة وخجولة يواجه بها غارة من هنا، وهجوم من هناك.

حتى تمكن أخيراً من إنعاشه بصورة أقوى من ذي قبل، واستجاب الناس لدعوته، وأعد واستعد، وكاد أن يباشر الزحف نحو العدو المتربص بالشام، فعالجه أشقاها بضربته، ففاز «عليه السلام» بما كان يتمناه.. ونال الشهادة والسعادة، ونال الرضوان الأكبر عند الله.

إنه «عليه السلام» عاد فعقد للحسين «عليه السلام» في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وبات على عزم العودة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه ابن ملجم، فتراجعت العساكر، وانفرط عقد ذلك الجمع الزاخر.. قال نوف البكالي: فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان(1).

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج2 ص110 الخطبة رقم 182 وبحار الأنوار ج34 ص127 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج10 ص100 وينابيع المودة ج3 ص444 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص154.

7 ـ غارات عبد الله بن مسعدة:

قال الطبري:

عن عوانة قال: وجه معاوية [في سنة 39 هـ] أيضاً عبد الله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعمائة رجل إلى تيماء، وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادي، وأن يقتل من امتنع من إعطائه صدقة ماله، ثم يأتي مكة والمدينة والحجاز، يفعل ذلك، [وأن يكتب بخبره كل يوم]، واجتمع إليه بشر كثير من قومه.

فلما بلغ ذلك علياً وجه المسيب بن نجبة الفزاري، فسار حتى لحق ابن مسعدة بتيماء، فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس قتالاً شديداً، وحمل المسيب على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات، كل ذلك لا يلتمس قتله، ويقول له: النجاء، النجاء.

فدخل ابن مسعدة وعامة من معه الحصن، وهرب الباقون منهم نحو اهل الشام، وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة.

وحصره ومن كان معه المسيب ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب على الباب، وألقى النيران فيه، حتى احترق.

فلما أحسوا بالهلاك أشرفوا على المسيب فقالوا: يا مسيب! قومك! فرقَّ لهم، وكره هلاكهم، فأمر بالنار فأطفئت.

وقال لأصحابه: قد جاءتني عيون فأخبروني أن جندا قد أقبل إليكم من الشام، فانضموا في مكان واحد.

فخرج ابن مسعدة في أصحابه ليلاً حتى لحقوا بالشام.

فقال له عبد الرحمن بن شبيب: سر بنا في طلبهم. فأبى ذلك عليه.

فقال له: غششت أمير المؤمنين، وداهنت في أمرهم(1).

وقال اليعقوبي:

بعث معاوية عبد الله بن مسعدة بن حذيفة بن بدر الفزاري في جريدة خيل، وأمره أن يقصد المدينة ومكة فسار في ألف وسبعمائة.

فلما أتى علياً الخبر وجه المسيب بن نجبة الفزاري، فقال له: يا مسيب! إنك ممن أثق بصلاحه وبأسه ونصيحته، فتوجه إلى هؤلاء القوم وأثر فيهم، وإن كانوا قومك.

فقال له المسيب: يا أمير المؤمنين! إن من سعادتي أن كنت من ثقاتك.

فخرج في ألفي رجل من همدان وطيء وغيرهم، وأغذ السير، وقدم مقدمته، فلقوا عبد الله بن مسعدة، فقاتلوه، فلحقهم المسيب، فقاتلهم حتى أمكنه أخذ ابن مسعدة، فجعل يتحاماه.

وانهزم ابن مسعدة، فتحصن بتيماء، وأحاط المسيب بالحصن،

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص134 و 135 و (ط الأعلمي) ج4 ص103 والكامل في التاريخ ج2 ص426 و (ط دار صادر) ج3 ص376 والبداية والنهاية ج7 ص320 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص124 و 125 عنهم.

فحصر ابن مسعدة وأصحابه ثلاثاً، فناداه: يا مسيب! إنما نحن قومك، فليمسِّك الرحم، فخلى لابن مسعدة وأصحابه الطريق، ونجا من الحصن.

فلما جنهم الليل خرجوا من تحت ليلتهم حتى لحقوا بالشام، وصبح المسيب الحصن، فلم يجد أحداً.

فقال عبد الرحمن بن شبيب: داهنت والله يا مسيب في أمرهم، وغششت أمير المؤمنين.

وقدم على علي، فقال له علي: يا مسيب! كنت من نصاحي، ثم فعلت ما فعلت! فحبسه أياماً، ثم أطلقه، وولاه قبض الصدقة بالكوفة(1).

وعند البلاذري:

وقدم المسيب على علي وقد بلغه الخبر، فحجبه أياما ثم دعا به فوبخه وقال [له: يا مسيب] حابيت قومك وداهنت وضيعت؟!

فاعتذر إليه، وكلمه وجوه أهل الكوفة في الرضاء عنه، فلم يجبهم، وربطه إلى سارية من سواري المسجد.

ويقال: إنه حبسه ثم دعا به، فقال له: إنه قد كلمني فيك من أنت

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص196 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص349 و (ط أخرى) ج3 ص209 نحوه، وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص125 و 126 وقاموس الرجال للتستري ج10 ص79.

أرجى عندي منه، فكرهت أن يكون لأحد منهم عندك يد دوني. وأظهر الرضا عنه، وولاه قبض الصدقة بالكوفة، فأشرك في ذلك بينه وبين عبد الرحمان بن محمد الكندي.

ثم إنه حاسبهما فلم يجد عليهما شيئاً.

فوجههما بعد ذلك في عمل ولاهما إياه، فلم يجد عليهما سبيلاً.

فقال: لو كان الناس كلهم مثل هذين الرجلين الصالحين، ماضر صاحب غنم لو خلاها بلا راع، وما ضر المسلمات لا تغلق عليهن الأبواب، وما ضر تاجراً لو ألقى تجارته بالعراء[1].

ونقول:

قتل من لا يعطي الزكاة:

تقدم: أن معاوية أمر عبد الله بن مسعدة أن يغير على تيماء، ويأخذ الصدقة من أهلها، وأمره بقتل من امتنع عن إعطائها.

وهذا أمر غريب وعجيب، فإن الإمتناع عن دفع الصدقة لا يجيز قتل الممتنع.. إلا إذا كان يريد معاوية تقليد خالد بن الوليد في قتله لمالك بن نويرة وأصحابه، وفي قتله لمانعي الزكاة، وهم الذين امتنعوا من إعطائها لأبي بكر، لأنه ليس هو الخليفة الذي بويع يوم الغدير، فاستحل أبو بكر دماءهم وقال:

---

(1) أنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص350 و (ط الأعلمي) ص450 ونهج السعادة ج2 ص578.

لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه، وقد عارضه في ذلك في بداية الأمر عمر بن الخطاب، وغيره من الصحابة، ثم قَبِل وانضم إليه..

وقد قلنا حين الكلام عن غارة معاوية على دومة الجندل، ومحاصرتها، ومحاولة أخذ الصدقة من أهلها بالقوة: إن أمير المؤمنين قد قاتل جيش معاوية ودفعه عنهم، ثم لم يرضوا بالبيعة له «عليه السلام»، فضلاً عن إعطائه الصدقة، ولم يجبرهم «عليه السلام» على ذلك. فراجع..

الفزاريان في الميدان:

ويلاحظ: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» اختار رجلاً فزارياً، هو المسيب بن نجبة، لمواجهة فزاري آخر، وهو عبد الله بن مسعدة..

ولعل من جملة فوائد هذا الإختيار:

أولاً: أن لا يمعن أي منهما في قتال الآخر ولا يتعمد القتل.. لأجل الرحم فيما بينهما. فتندفع غائلة ابن مسعدة بأقل الخسائر الممكنة.

ثانياً: أن يختبر الحالة العشائرية في ميدان المواجهة، ليظهر مدى ما تبقى من تأثير للتعصب القبلي، في مقابل الواجب الديني، والتكليف الإلهي.. ليعلم علمياً إلى أي حدٍ تأثر الناس بالمواعظ والتوجيهات الدينية، الآمرة بالتخلي عن العصبيات العشائرية..

ويلاحظ هنا أمران:

أولهما: لقد اختار «عليه السلام» لهذه المهمة رجلاً قال: إنه يثق بصلاحه، وبأسه ونصيحته، ولكن المسيب لم يكن بالمستوى المطلوب، فقد مالأ قومه، ومكن العدو من الإفلات، مع أن المفروض: هو أن يأخذه ولو أسيراً، لكي يضعف جانب أهل الباطل بقتله، أو ليستفاد من أسره في مبادلات الأسرى، فإن ذلك لمصلحة المؤمنين.

الثاني: إنه «عليه السلام» أخبره أنه يرسله إلى قومه، وطلب منه أن يؤثر فيهم، وكأنه يريد أن يعرفه: أن عليه أن لا يريد أن يراه ينساق مع عصبيته العشائرية، ويتهاون في أمرهم. ولكنه بالرغم من ذلك قد كان منه ما كان!!

عقوبة المسيب:

إنه «عليه السلام» بقوله للمسيب: بأنه قد اختاره ليكون هو الذي يواجه قومه، كان يريد أن يحذره من الوقوع تحت تأثير العصبية العشائرية، فكان الأحرى بالمسيب أن يراعي هذه الخصوصية، وأن يكون ناصحاً لإمامه الذي صرح له: بأنه قد وضع ثقته به. وأن يحفظ ماء وجه إمامه، ولا يخيب ظنه فيه.. ولكنه سقط في الإمتحان، فاستحق هذا المقدار من العقوبة..

وقد دلنا «عليه السلام» بهذه العقوبة على العديد من الأمور، مثل:

1 - أن القائد إذا أخطأ ولو كان الخطأ هو من قبيل الإنسياق غير الواضح مع العصبية العشائرية، فإنه يحاسب عليه، ويعاتب، ويعاقب.

2 - إن نفس التشهير بالمسيب، وتوبيخه، وعتابه، وفضح أمره من قبل إمامه، واهتزاز ثقته به، عقوبة صعبة بالغة التأثير عند أهل النبل والشهامة، وأهل العزة والكرامة..

3 - إنه «عليه السلام» حبسه أياماً، لأن جرمه كان يقتضي ذلك، وهي عقوبة من شأنها أن تعرِّف الناس: بأن عليهم أن لا يستسهلوا أمثال هذه الأمور، ولا يظنون عقوبة فاعلها سوى سماع بضع كلمات تقريع، أو شيء من العتب واللوم وينتهي الأمر.. بل هناك فضيحة، وهتك حرمة، وتقريع وحبس أحياناً، وضرب أحياناً أخرى، كما جرى لابن العشبة، وربما أكثر من ذلك ثالثة..

4 - إنه «عليه السلام» قد ربط المسيب إلى سارية من سوارى المسجد، وهذا فيه قدر من الإذلال والتوهين لأمر المسيب، وإنما أذله جرمه، وأوبقه ذنبه، وللإمام أن يعاقب بما يكون رادعاً ومؤثراً.

5 - إنه «عليه السلام» لم يقبل شفاعة الشافعين بالمسيب، لأن ذلك يصبح ديناً على المسيب يرى نفسه ملزماً بمكافأتهم عليه، وربما اضطره ذلك إلى مراعاة خواطرهم في أمور لا تكون راجحة أحياناً، وربما تخالف الشرع أو المصلحة أحياناً أخرى.

6 - إنه «عليه السلام» بعد كل هذا أعطى المسيب نفخة ثقة ورضا.. حيث ميَّزه على الذين شفعوا فيه، وعرَّفه أنه أرجى عنده منهم.. فلماذا يجعل لهم يداً عنده، وهو أكثر استقامة منهم؟! أو فقل هو أقرب إلى الصلاح منهم.

7 - إنه «عليه السلام» عاد فولاه الصدقة بالكوفة، ليدلنا على أن الذنب لا يعني استبعاد المذنب، والحكم بعدم صلاحيته لأي عمل بعد هذا..

بل إذا ظهرت توبته، وعلم صدقه فيها، فلا مانع من إعادة الإعتبار له، والإستفادة منه في الموضع اللائق به.

صفات ثلاث رجحت المسيب:

وحين اختار علي «عليه السلام» المسيب للقيادة ذكر له أموراً ثلاثة اقتضت اختياره لتلك المهمة، وهي:

1 - وثوقه بصلاحه.

2 - بأسه.

3 - نصيحته.

وهذه هي أهم الشروط التي يجب توفرها في القادة الذين توكل إليهم مهمات كبيرة، وربما ذكرنا في بعض فصول هذا الكتاب: أنه يحتمل تعميم مفهوم الصلاح الذي أشار إليه «عليه السلام» بحيث يشمل جميع المجالات التي يراد له أن يتعامل معها، أو يحتمل أن تكون دخيلة في المهمة المطلوبة منه، ومنه الصلاح في النواحي الأخلاقية، والروحية، والنفسية، والعلمية، والتعامل، والخبرة العملية في المجال المفترض، والعلاقات، والمزايا، والصفات، وما إلى ذلك..

الإفراط في الشدة، والإفراط في اللين:

وإذا نظرنا إلى طريقة تعامل المسيب مع ابن مسعدة وأصحابه، نجد فيها إفراطاً في الشدة، فإن الإقتتال الذي خاضه معهم في النهار كان شديداً.. حتى هربت طائفة من أصحاب ابن مسعدة باتجاه الشام، ودخلت طائفة مع ابن مسعدة إلى الحصن.

ثم إنه حصر الذين لجأوا إلى الحصن ثلاثة أيام. ثم ألقى الحطب على الباب، وألقى النيران فيه حتى احترق، وأحسّ الذين في داخل الحصن بالهلاك.

وفي مقابل ذلك: نجد منه إفراطاً في اللين، إلى حد التفريط بالمصلحة العامة.. فالمسيب حين يلتقي بابن مسعدة يضربه ثلاث ضربات، لا يلتمس بها قتله، ويأمره بأن ينجو بنفسه، فيقول: النجاء، النجاء.

وكان قادراً على أسره، ولكنه تحاماه، حتى انهزم ودخل حصن تيماء.. ولما ناشده ابن مسعدة الرحم رق المسيب له ولأصحابه، وأمر بإطفاء النار، وكره هلاكهم.

ثم زعم للناس: أن عيونه أخبرته بجند قادم عليهم من الشام، تمهيداً لجمع أصحابه في مكان واحد، وتخلية الطريق لابن مسعدة، ليخرج هو وأصحابه ليلاً من الحصن هاربين إلى الشام.. فلما طالبه ابن شبيب بملاحقتهم أبى ذلك عليه.

وكل ذلك دل ابن شبيب وغيره على أنه غَشَّ إمامه، وداهن أمر

العدو، حتى مكّنه من الهرب.

توالي الإختبارات، وتقليد الوسام:

وقد لفت نظرنا: أنه «عليه السلام» بالرغم من أنه أظهر الرضا عن المسيب، وبالرغم من أنه لم يرض شفاعة الشافعين به، لأنه عنده أرجى منهم..

وبالرغم من أنه ولاه قبض الصدقة في الكوفة، فدلنا بذلك كله على أن على الحاكم أن لا يترك الحذر معهم في مقام العمل، حتى لو كان يثق بهم. فلا بد أن يجعلهم تحت الرقابة إلى أن تثبت سلامة المسار والصدق والأمانة بالممارسة العلمية مرة بعد أخرى..

فأوكل إلى المسيب مهمة تحمل معها من المغريات ما يسيل له لعاب أهل الأطماع.. فقد ولاه الدقات في الكوفة، أي أنه قد جعل أموال الصدقات لأكبر تجمع سكاني في الدولة الإسلامية بين يديه، وأمام عينيه. فإن لم تكن لديه حصانة تمنعه من الإستجابة، لحبه الطاغي للمال، **(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)**(1). فسيكون حاله مصداقاً لقول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إيــاك ايــاك أن تبتــل بالمــاء

وبعد تصريح أمير المؤمنين «عليه السلام» للمسيب بثقته به، وإجابة المسيب له بقوله: «يا أمير المؤمنين.. إن من سعادتي أن كنت

---

(1) الآية 20 من سورة الفجر.

من ثقاتك». فمن الطبيعي أن لا يخطر على بال المسيب أنه سوف يتعرض للمساءلة والمحاسبة.

ولكن أمير المؤمنين «عليه السلام» خيَّب ظنه، ودعاه للمحاسبة، فلم يجد عليه شيئاً.. وهذه كانت المرة الأولى.

ثم ولاه بعد ذلك عملاً آخر.. ولعله ظن أن المرة الأولى قد أزالت كل شك، واطمأن إلى ثقة أمير المؤمنين «عليه السلام» به.. ولكنه «عليه السلام» عاد فحاسبه مرة أخرى، فلم يجد عليه سبيلاً أيضاً.. وحينئذٍ استحق أن يمنحه هو وشريكه وسام الأمانة والصلاح، حيث قال عنه، وعن عبد الرحمان بن محمد الكندي: «لو كان الناس كلهم مثل هذين الرجلين الصالحين، ماضر صاحب غنم لو خلاها بلا راع، وما ضر المسلمات لا تغلق عليهن الأبواب، وما ضر تاجراً لو ألقى تجارته بالعراء».

وهذه شهادة خالدة لهما: بأنهما في غاية العفة والأمانة والصلاح.

وهو يدل أيضاً على ضرورة تنويه الحاكم بالأعمال الصالحة لعماله، ليترسخ معنى الأمانة فيهم، ولكي يرغب الناس بالصلاح وبالخير والفلاح.

8 ـ غارة الحارث التنوخي على الجزيرة:

قال ابن أعثم:

ثم بعث أيضاً معاوية برجل من أصحابه يقال له: الحارث بن نمر التنوخي في ألف رجل من حماة أهل الشام، وأمره بالغارة على بلاد

الجزيرة ممن هم في طاعة علي «رضي الله عنه».

قال: فأقبلت خيل أهل الشام حتى بلغت تخوم صفين ودارا، فأغاروا على قوم من بني تغلب ممن كانوا في طاعة علي «رضي الله عنه»، فأسروا منهم [من أهل داراة سبعة] ثمانية نفر [من بني تغلب]، وانصرفوا راجعين إلى الشام.

[وقد كانت جماعة من بني تغلب انحازت عن علي إلى معاوية، فكلموه في السبعة النفر، فلم يجبهم إلى إطلاقهم، فاعتزلوه أيضاً]

وقام رجل من أهل الجزيرة يقال له: عتبة بن الوعل، فجمع قومه من بني تغلب، ثم صار إلى جسر منبج، فعبر الفرات وأغار على أوائل الشام، فغنم غنائم كبيرة، ورجع إلى بلاد الجزيرة، وأنشأ يقول:

ألا أبلـغ معاويـة بـن صـخر فـإني قـد أغـرت كمـا تغيـر
صـبحنا منبجـا بالخيـل تـردى شـوازب فـي أياطلهـا ضـمير
بكـل سـميدع مـاض جسـور على الأهوال في ضنك يسير
وكـل مجـرب بطـل همـام لـدى الهيجـاء مطلبـه عسـير
وفتيـان يـرون الصـبر مجـدا بأيـديهم مهنـدة ذكـور

قال: ثم كتب علي «رضي الله عنه» إلى معاوية:

أما بعد، يا معاوية! فإن الله عدل لا يجور. وعزيز لا يغلب، يجزي بالإحسان إحساناً، وهو بصير بما تعمل العباد.

واعلم بأنك لم تخلق للدنيا والخلود فيها، بل أنت راجع إلى ربك فملاقيه، فاتق الله يا معاوية! وانصف من نفسك ولا تطغينك الأماني

الباطلة والغرور، فإني مؤل بالله ألية صدق لئن جمعتني وإياك دارا لأزايلنك أبداً أو يفتح الله بيننا بالحق وهو خير الفاتحين، فأطلق من في يديك من إخواننا حتى نطلق من في أيدينا من أصحابك، فإني قد بعثت إليك في ذلك مولاي سعداً. والسلام.

قال: فلما وصل كتاب علي إلى معاوية أطلق من كان في يديه من أصحاب علي، وأطلق علي أيضاً من كان في يديه من أصحاب معاوية(1).

قالوا: وبعث علي «عليه السلام» رجلاً من خثعم يقال له: عبد الرحمان إلى ناحية الموصل والجزيرة لتسكين الناس، فلقيه التغلبيون الذين اعتزلوا معاوية غضباً لأسراهم، فتشاتموا ثم تقاتلوا فقتلوه.

فأراد علي «عليه السلام» أن يوجه إليهم جيشاً، فكلمته ربيعة فيهم، وقالوا: هم معتزلون لعدوك، داخلون في أهل طاعتك، وإنما قتلوا الخثعمي خطأ. فأمسك عنهم.

وكان على هذه الجماعة: قريع بن الحارث التغلبي(2).

من الذي أسر هؤلاء؟!:

ونلاحظ هنا:

---

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج4 ص 224 و 225.

(2) أنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص368 و (ط الأعلمي) ج2 ص470.

أن الرواية لم تذكر متى أسر أمير المؤمنين «عليه السلام» جنوداً من أهل الشام لكي يبادلهم بالذين أسرهم من بني تغلب في الجزيرة.

فقد يقال: لعل عتبة بن الوعل هو الذي أسرهم في غارته على أوائل الشام، التي جاءت على أثر غارة الحارث التنوخي عليهم، لكي يبادلهم بالتغلبيين الأسرى عند معاوية.. لاسيما وأن ابن الوعل قد غنم في غارته غنائم كبيرة.

ونجيب:

بأن الرواية لم تصرح بذلك، مع أن التصريح به مما لا يتردد به المؤرخون.

والصحيح: هو أن في الروايات تقديماً وتأخيراً، وأن كتاب علي «عليه السلام» إلى معاوية حول الأسرى قد كان قبل غارة يزيد بن شجرة على مكة، وملاحقته من قبل معقل بن قيس الذي أسر عشرة من رجال ابن شجرة.

وستأتي هذه الغارة عن قريب، وسيأتي أيضاً: أن معاوية هو الذي عرض مبادلة الأسرى..

ويبدو: أن معاوية قد اضطر إلى ذلك حين رأى أن تلك الطائفة من بني تغلب قد اعتزلته حين رفض طلبها بإطلاق الأسرى، الذين كانوا من قومها.

ويبدو: أن كتاب علي «عليه السلام» إلى معاوية كان جواباً على كتاب معاوية.

ويشير إلى ذلك: قول ابن الأثير والبلاذري: فبعث بهم مع سعد مولاه(1)، وأشار علي «عليه السلام» في كتابه إلى سعد أيضاً.

مبادلة الأسرى:

يلاحظ: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد كلم معاوية بلغة قوية وحازمة لم ير معاوية معها طريقاً للمراوغة والتسويف، فبادر إلى تنفيذ طلب أمير المؤمنين «عليه السلام»، لعلمه بأنه لم يكن من مصلحته التلكؤ في إطلاق سراح التغلبيين الثمانية، لأن المماطلة ستؤدي إلى أن يشيع في أهل الشام أن معاوية لا يهتم لأسراهم، وأن الغارات التي يرسلها معاوية تحمل معها أخطاراً كبيرة، وأن علياً يطالب بأسر أناس لم يبايعوه، بل اعتزلوه، ويأسر من أهل الشام جماعة من المخلصين لمعاوية، فكيف لا يهتم معاوية لمن يخلص له، وعلي يهتم بتخليص أسرى قوم ليسوا من أعوانه ولا أنصاره، بل هم قد قتلوا مبعوثه الذي أرسله لينظر فيما يصلحهم؟!

ما فعله ابن الوعل يزعج معاوية:

لقد استطاع أن يتوغل في غارته إلى أوائل الشام. ولو شاع هذا الأمر في بلاد الشام، فسيؤدي إلى أن يعم الذعر جميع أطراف بلاد الشام، لاسيما وأن الذي نال من تلك الأطراف لم يكن قائداً معروفاً،

---

(1) الكامل في التاريخ ج3 ص380 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص367 و (ط الأعلمي) ج2 ص470.

ولا والياً من ولاة البلاد، ولا كان قد استقدم جيوشاً من عند علي «عليه السلام».. وهاجم بهم بلداً ثانياً..

بل هو قد تصرف بقرار شخصي، واعتمد على قدرات ذاتية حاضرة، وتوغل في البلاد حتى بلغ أوائل الشام، وسدد ضربته التي جاءت مؤثرة هذا الأثر الكبير، فكيف إذا أراد علي «عليه السلام» أن يتصدى له، ويرسل بقادته المعروفين، وبالمقاتلين الموصوفين بالشجاعة والمجربين؟!

سكوت علي × على ابن الوعل:

وبالرغم من أن ابن الوعل لم ينتظر حتى أخذ الإذن من علي «عليه السلام» بمهاجمة بلاد معاوية، فإننا لم نلاحظ: أن علياً «عليه السلام» لم يوجه إليه أدنى ملامة أو سؤال، ولم يطلب منه أن لا يعود لمثل هذا التصرف إلا بإذن منه.. لأن ما فعله ابن الوعل كان يشبه العمل الدفاعي، وردة فعل طبيعية على العدوان، وكان علي «عليه السلام» يريد من الناس أن يحاموا عن حوزتهم، وأن يدفعوا عدوهم.. وأن يلقنوه درساً قاسياً حتى لا يعود إلى عدوانه. ولو أنه وجه «عليه السلام» إليهم أي لوم، فإن ذلك يطمع بهم عدوهم، ويصيبهم بالخيبة ويربكهم، ويضعف إرادتهم، ويشل حركتهم، حيث لا يمكنهم إذا تعرضوا إلى عدوان أن يقفوا مكتوفي الأيدي إلى أن يرسلوا إلى علي، لكي يأتيهم الإذن بالدفاع عن النفس.. فإن الدفاع لا يحتاج إلى إذن الإمام من الأساس.

علي × لم يطالب بدم ابن الخثعمي:

وهنا سؤال يقول:

كيف تغافل «عليه السلام» عن المطالبة بدم الخثعمي هنا، لمجرد قول ربيعة: إنه قتل خطأ.. ولم يتغافل عن قتل ابن خباب، بل قتل الخوارج لأجله على ذلك النحو المعروف؟! أليس هذا من الكيل بمكيالين؟!

فإن كان الخثعمي قد قتل خطأ حقاً، فلماذا أراد تجريد ذلك الجيش لمهاجمة قاتليه.. فإن قتل الخطأ لا يستوجب كل هذه الشدة.. وإن كان يعلم أنه لم يقتل خطأ، فلماذا تراجع عن إرسال الجيش لقول ربيعة؟!

ونجيب:

بأن المشكلة مع بني تغلب لم تكن هي أنهم قتلوا مبعوثه خطأً، أو عمداً، ولم يكن لدى بني تغلب شبهة عقائدية، ولا سياسية في أمر علي، بل كانت الأمور واضحة، وإنما المشكلة معهم هي طغيانهم على إمامهم.

وكان مبدؤها مجرد العناد واللجاج، والهوى وحب الدنيا، وقد أرسل إليهم علي «عليه السلام» ذلك الرجل ليسكنهم، ويعيدهم إلى الرشد، فبلوغ الأمر حد التشاتم والقتال والقتل إنما هو بسبب البغي والعصبية الجاهلية.

فالقتل وإن وقع خطأً، ولكن كان لا بد من تأديب الباغي والمعاند، والمنقاد للهوى، وإعادته إلى التوازن.

فلا يقاس حالهم بحال الخوارج الذين كانوا يزعمون أن لديهم شبهة في مواجهتهم لعلي «عليه السلام». وكانت سياسة علي «عليه السلام» مع أصحاب الشبهة هي عدم التعرض لهم ما داموا لم يرفعوا السلاح. ولم يفسدوا في الأرض.. فلما بدأ الخوارج بقتل الناس، والإفساد، وكان قتل ابن خباب إحدى جرائمهم. طالبهم «عليه السلام» بها، وجرت الأمور على النحو الذي تقدم بيانه..

والأمر بالنسبة لبني تغلب، فقد كان الأمر مختلفاً، فإن حميتهم الجاهلية، وطغيانهم، قد حملهم على الدخول في دائرة العنف والتحدي، فلما أظهر «عليه السلام» أنه بصدد تجريد جيش يوجهه إليهم، قد أفهمهم أن الأمور بالنسبة لعلي «عليه السلام» أصبحت لا تطاق. وهم يعرفون نتائج حربهم معه «عليه السلام».. فكان أن تراجعوا عن عنادهم حين عرفوا أن شفاعة ربيعة بهم هي التي أنقذتهم.. فكان ذلك درساً قاسياً، ومفيداً لهم، جعلهم يقلعون عن غيهم. ولم تعد هناك حاجة إلى الحرب.. وهذا هو المطلوب. فظهر أن تجريد الجيش لم يكن لقتل قاتل ابن الخثعمي.

ويلاحظ هنا: أن ربيعة لم تقل لعلي «عليه السلام»: إن ربيعة داخلة في طاعتك، بل قالت: داخلة في أهل طاعتك.. أي أنهم يعيشون بينهم عيشة مسالمة، خاضعة للقانون العام، وللأحكام التي يجريها «عليه السلام» في من هم في نطاق حكومته..

الفصل الرابع:

غارة على مكة..

9 - غارة يزيد بن شجرة على مكة:

قال ابن أعثم، وذكر نحوه الثقفي أيضاً:

وفي سنة تسع وثلاثين دعا معاوية أيضاً برجل من سادات أهل الشام يقال له: يزيد بن شجرة الرهاوي، فقال: يا يزيد! إني أريد أن أوجه بك إلى مكة لتقيم للناس الحج بها، وتبقي عاملي [تنفي عامل] علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، وتأخذ لي هنا لك البيعة بالسمع والطاعة، والبراءة من علي.

[قال البلاذري وغيره: وكان يزيد بن شجرة متألهاً متوقياً، فلما أمره معاوية بالمسير، قال له: إن كان لا يرضيك إلا الغشم، وإخافة البريء، فابعث غيري].

فقال يزيد بن شجرة: أفعل يا أمير المؤمنين!

قال: فقال له معاوية: إني قد رضيت هديك ورأيك ومذهبك، ولست أوجهك للحرب، إنما أوجهك لتقيم للناس الحج، فاتق الله في الحرم، إن قدرت أن تخرج عامل علي «رضي الله عنه» من الحرم

بلا قتال فلا تقاتل.

فقال له يزيد بن شجرة: ما كنت لأخيف يا أمير المؤمنين بلداً **(مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا)**(1).

قال: فضم إليه معاوية ثلاثة آلاف فارس من وجوه أهل الشام، ثم أوصاه أيضاً، فقال: يا يزيد! أوصيك واعلم بأنك تأتي مكة، ومكة حرم الله وأمنه، وأهل مكة قومي وعشيرتي، ومكة هي بيضتي التي تفلقت عني، فاتق الله فيهم، فإني أحب إصلاحهم وبقاءهم، وأكره حربهم وقتالهم، فاحفظ فيهم وصيتي، وسر على بركة الله وعونه.

قال: فقال يزيد بن شجرة: اللهم! إنك تعلم أني لست أُعْظِمُ مجاهدة من سعى على خليفتك عثمان بن عفان، وهتك حرمته، ولا منابذة من بغى عليه، اللهم! فإن كنت قضيت بين هذا الجيش وبين أهل حرمك حرباً فاكفني ذلك.

[قال البلاذري: فمضى ابن شجرة وكتم أمره، فأتى وادي القرى، ثم الجحفة، ثم قدم مكة، في غرة من ذي الحجة].

قال: وسار يزيد بن شجرة يريد مكة، وبمكة يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، من قبل علي بن أبي طالب، فقام في أهل مكة خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! إنه قد أظلكم جيش من ظلمة أهل الشام، الذين يفسدون

---

(1) الآية 2 من سورة الحشر.

في الأرض ولا يصلحون، يريدون الإلحاد في حرم الله، فتسالمون أم تحاربون؟!

قال: فسكت الناس ولم يجبه أحد منهم بشيء.

فقال قثم بن العباس: إنكم قد أعلمتموني بما في أنفسكم، فأنا خارج عنكم إلى بعض هذه الشعاب، فأكون هنالك إلى أن يقضي الله بما يحب ويرضى.

قال: فقال له شيبة بن عثمان العبدري ـ من بني عبد الدار بن قصي ـ: يا هذا! أنت الأمير ونحن الرعية، سامعون لك مطيعون، فإن قاتلت قاتلنا معك، وإن كففت كففنا معك.

قال: فقال قثم بن العباس: هيهات يا أهل مكة! المغرور من غررتموه، إن الجنود لا تهزم بالوعد، ولست أرى معك أحداً يدفع ولا يمنع، فأعتزل عنكم، فأكون في بعض هذه الشعاب، وأكتب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه»، فإن جاءني من المدد ما أقوى به عليهم ناهضتهم، وإن تكن الأخرى لم أقاتل، وصبرت لأمر الله عز وجل.

فقال له أبو سعيد الخدري: أيها الأمير! إن للحرم حرمة عظيمة، والقوم إن قدموا لم يعجلوا بالقتال، فأقم ولا تبرح من مكة، فإذا وافوك ورأيت قوة عليهم فاعمل برأيك، وإن لم تر قوةً تنحيت من بين أيديهم إلى بعض هذه الشعاب، فتكون قد أعذرت، وقضيت ما عليك.

قال: فأقام قثم بن العباس بمكة.

وبلغ ذلك علياً «رضي الله عنه» وهو يومئذ بالكوفة، فقام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس! قد بلغني أن معاوية قد وجه إلى الموسم بجند من أهل الشام الغلف القلوب، الصم الأسماع، الكمه الأبصار، الذين يلبسون الحق بالباطل، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق، أولياء الشيطان الرجيم، ووزراء الجبابرة المعتدين، فسارعوا رحمكم الله إلى جهادهم مع التقي الأمين معقل بن قيس، واحتسبوا في ذلك الأجر، وصالح الذكر، فإنه لا يفوز بالخير إلا عامله. ولا يجزى جزاء السوء إلا فاعله، ولن يصلح الله عمل المفسدين.

قال: فانتدب له يومئذ ألف وسبعمائة رجل من فرسان العرب، وفيهم يومئذ الريان بن ضمرة بن هوذة الحنفي، وأبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، ومن أشبههم من الناس.

قال: فخرج القوم من الكوفة في أول يوم من ذي الحجة، وقد فات الوقت.

وقدم يزيد بن شجرة صاحب معاوية إلى الحرم قبل التروية بيومين، فنادى في الناس: أيها الناس! أنتم آمنون، فإننا لم نقدم ههنا لقتال، وإنما قدمنا للحج، فالناس كلهم في أمان إلا من قاتلنا ونازعنا، وعرض [لنا في عملنا و] في سلطاننا.

وقال إبراهيم الثقفي في كتاب الغارات:

عن عباس بن سهل بن سعد قال:

قدم أبو سعيد الخدري فسأل عن قثم وكان له وداً وصفياً.

فقيل: قد قدم دوابه، وحمل متاعه، يريد أن يتنحى عن مكة؛ فجاء فسلم عليه، ثم قال له: ما أردت؟!

قال له: قد حدث هذا الذي بلغك، وليس معي جند أمتنع به، فرأيت أن أعتزل عن مكة، فإن يأتني جند أقاتل بهم، وإلا كنت قد تنحيت بدمي.

قال له: إني لم أخرج من المدينة حتى قدم علينا حاج أهل العراق وتجارهم يخبرون أن الناس بالكوفة قد ندبوا إليك مع معقل بن قيس الرياحي.

قال: هيهات هيهات يا أبا سعيد، إلى ذلك ما يعيش أولادنا.

فقال له أبو سعيد: رحمك الله، فما عذرك عند ابن عمك؟! وما عذرك عند العرب إن انهزمت قبل أن تطعن وتضرب؟!

فقال: يا أبا سعيد! إنك لا تهزم عدوك، ولا تمنع حريمك بالمواعيد والأماني، اقرأ كتاب صاحبي.

فقرأه أبو سعيد، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى قثم بن العباس، سلام عليك..

أما بعد.. فإن عيني بالمغرب كتب إلي يخبرني أنه قد وُجِّهَ إلى الموسم ناس من العرب، من العمي القلوب، الصم الأسماع، البكم الأبصار، الذين يلبسون الحق بالباطل، ويطيعون المخلوقين في

معصية الخالق، ويجلبون الدنيا بالدين، ويتمنون على الله جواز الأبرار، وأنه لا يفوز بالخير إلا عامله، ولا يجزى بالسيِّء إلا فاعله.

وقد وجهت إليكم جمعاً من المسلمين، ذوي بسالة ونجدة مع الحسيب، الصليب، الورع التقي معقل بن قيس الرياحي، وقد أمرته باتباعهم، وقص آثارهم حتى ينفيهم من أرض الحجاز.

فقم على ما في يديك مما إليك مقام الصليب الحازم، المانع سلطانه، الناصح للأمة، ولا يبلغني عنك وهن ولا خور، وما تعتذر منه، ووطن نفسك على الصبر في البأساء والضراء، ولا تكونن فشلاً، ولا طائشاً، ولا رعديداً. والسلام.

فلما قرأ أبو سعيد الكتاب قال قثم: ما ينفعني من هذا الكتاب وقد سمعت بأن قد سبقت خيلهم خيله، وهل يأتي جيشه حتى ينقضي أمر الموسم كله؟!

فقال له أبو سعيد: إنك إن أجهدت نفسك في مناصحة إمامك، فرأى ذلك لك، وعرف ذلك الناس، فخرجت من اللائمة، وقضيت الذي عليك من الحق، فإن القوم قد قدموا وأنت في الحرم، والحرم حرم الله الذي جعله [آمناً]، وقد كنا في الجاهلية قبل الإسلام نعظم الحرم؛ فاليوم أحق أن نفعل ذلك.

فأقام قثم، وجاء يزيد بن شجرة الرهاوي حتى دخل مكة، ثم أمر منادياً فنادى في الناس: ألا إن الناس آمنون كلهم إلا من عرض لنا في عملنا وسلطاننا، وذلك قبل التروية بيوم.

فلما كان ذلك، مشت قريش والأنصار ومن شهد الموسم من الصحابة وصلحاء الناس فيما بينهما وسألتهما أن يصطلحا، فكلاهما سره ذلك الصلح.

فأما قثم، فإنه لم يثق بأهل مكة، ولا رأى أنهم يناصحونه.

وأما يزيد، فكان رجلاً متنسكاً، وكان يكره أن يكون منه في الحرم شر.

ونعود إلى كلام ابن أعثم، فقد قال:

واتقى يزيد بن شجرة أن يكون بين الناس قتال.

فقال لأصحابه: انظروا أحداً من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله»!

فقيل له: أبو سعيد الخدري.

فقال: عليَّ به.

فأتي به إلى يزيد بن شجرة، فسلم وجلس، فقال له يزيد: أبا سعيد! يرحمك الله إني إنما وجهت إليكم لأجمع ولا أفرق، ولو أشاء أن أفعل لفعلت، لأنه ما عند أميركم امتناع، ولا عند أهل البلد أيضاً، ولو شئت أن آخذ أميركم أسيراً حتى أمضي به إلى الشام لفعلت، ولكني أكره الإلحاد في الحرم، فقولوا لأميركم أن يعتزل الصلاة بالناس، فأعتزلها أنا أيضاً، ويختار الناس رجلاً يصلي بهم، فإننا نكره ما قد علمت، والله يا أبا سعيد! ما يدعوني إلى هذا الذي سمعته مني إلا التماس العافية.

[وعند الثقفي: أن ابن شجرة قال هذه المعاني لأهل مكة مباشرة]

فقال له أبو سعيد: جزاك الله من رجل خيراً! فما رأيت من أهل الشام رجلاً أحسن منك نية، ولا أفضل منك رأياً.

قال: ثم أقبل أبو سعيد إلى قثم بن العباس، فكلمه في أمر الصلاة.

فقال قثم: قد فعلت ذلك.

وتراضت الناس بشيبة بن عثمان العبدري، فصلى بأهل الموسم، وأقام لهم الحج.

فلما قضى الناس حجهم أقبل يزيد بن شجرة، فقال: يا أهل الشام! اعلموا أن الله تبارك وتعالى قد رزقكم خيراً، وصرف عنكم شراً.

فأما الخير الذي رزقكم، فطاعة إمامكم، وحجكم، وقضى نسككم.

وأما الشر الذي صرفه عنكم، فكف أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم، فانصرفوا الآن مأجورين، سامعين مطيعين.

قال: فصدرت أهل الشام عن مكة يريدون الشام، وأقبلت خيل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب تقبل ميلاً لمواقعة أهل الشام، فإذا قد لقيهم بعض الأعراب، فأخبروهم بأن أهل الشام قد رحلوا عن مكة يريدون الشام.

قال: فنزل معقل بن قيس الطريق إلى مكة، وعارضهم في المسير، وأهل الشام قد نزلوا بواد يقال له: وادي القرى.

فلما تقارب معقل بن قيس من وادي القرى قال: إن أهل الشام قد

نزلوا على الماء بلا شك، فإذا رأيتموهم فشدوا عليهم، فإذا أنا قتلت فأميركم من بعدي أبو الطفيل عامر بن واثلة، فإن أصيب فالريان بن ضمرة، فإن أصيب فظبيان بن عمارة، فإن أصيب فأبو الرداح الشاكري.

قال: وسارت الخيل حتى وافوا وادي القرى، فإذا أهل الشام قد رحلوا، وقد بقي منهم عشرة نفر قد كانوا تخلفوا لحوائج لهم، فأخذهم أصحاب علي «رضي الله عنه» أسارى، وأخذوا أموالهم، وأسلحتهم، ودوابهم.

قال: وبلغ ذلك أهل الشام، فقالوا لأميرهم يزيد بن شجرة: أيها الأمير! ما ترى؟! أترجع إلى إخواننا، فتستنقذهم من أيدي أهل العراق؟!

فقال يزيد بن شجرة: لا أرى ذلك لكم رأياً، لأني لا أدري أتكون لنا أم علينا.

قال: فكاعت أهل الشام عن أهل العراق.

فأقبل معقل بن قيس راجعاً إلى الكوفة، فأخبر علياً بما كان من أمر القوم، فقال علي «كرم الله وجهه» لأصحابه: احبسوا هؤلاء الأسارى، فإن لنا في يد معاوية أسارى، فإذا أطلقهم أطلقنا نحن هؤلاء إن شاء الله.

قال: وسار يزيد بن شجرة إلى معاوية فأخبره بحاله وقصته، فقام إلى معاوية قوم من عشائر المحبسين بالكوفة، فقالوا: يا أمير

المؤمنين! إن إخواننا لو كانوا ماتوا أو قتلوا لاحتسبناهم، ولكنهم أسارى بالعراق في حبس علي «رضي الله عنه» فما الحيلة في ذلك؟!

فقال لهم معاوية: اسكتوا! فلستم بأحرص على تخليصهم مني، ولا تعجلوا[1].

ورواية أخرى للبلاذري تقول:

حدثني عباس بن هشام الكلبي، [عن أبيه]، عن أبي مخنف في إسناده قال: لما بلغ علياً توجيه معاوية يزيد بن شجرة، دعا معقل بن قيس الرياحي فقال [له]: إني أريد أن أرسلك إلى مكة لترد عنها قوماً من أهل الشام قد وجه إليها.

فقال [معقل]: أنا [لهم، فوجهني إليها]، فاستنفر علي الناس معه، فخطب فقال:

«الحمد لله الذي لا يعز من غالبه، ولا يفلح من كايده.. إنه بلغني أن خيلاً وجهت نحو مكة، فيها رجل، قد سمي لي، فانتدبوا إليها رحمكم الله مع معقل بن قيس، واحتسبوا في جهادكم والإنتداب معه أعظم الأجر، وصالح الذخر.

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج4 ص220 - 224 والغارات للثقفي ج2 ص504 - 513 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص359 - 361 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص136 و (ط الأعلمي) ج4 ص105 والكامل في التاريخ ج3 ص378 و 379.

فسكتوا [ولم يجيبوه بشيء]، فقام معقل فقال:

أيها الناس، انتدبوا، فإنما هي أيام قلائل حتى ترجعوا إن شاء الله، فإني أرجو أن لو قد سمعوا بنفيركم إليهم تفرقوا تفرق معزى الغز.. فوالله إن الجهاد في سبيل الله خير من المقام تحت سقوف البيوت، والتضجيع خلف أعجاز النساء!!!

فقام الرباب بن صبرة بن هوذة الحنفي، فقال: أنا أول منتدب.

ثم وثب طعين بن الحرث الكندي، فقال: وإنك [كذا] منتدب وانتدب الناس.

فشخص [معقل] لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة في ألف وتسعمأة. ويقال: سبع مأة، وأعطاهم علي مأة مأة.

وشخص يزيد بن شجرة من مكة لليلتين بقيتا من ذي الحجة، وأغذ السير حتى خرج من أرض مكة والمدينة، وهو يحمد الله على تمام حجة، وأنه لم يقاتل في الحرم.

ولحق معقل أخريات أصحاب يزيد، دون وادي القرى، فأصاب منهم عشرة نفر، وكره ابن شجرة أن يرجع للقتال، فمضى إلى معاوية(1).

ونقول:

---

(1) أنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص360 - 361 و (ط الأعلمي) ج2 ص463 و 464.

لا بأس بالوقوف عند المطالب التالية:

متى ورد ابن شجرة مكة؟!:

تقدم عن البلاذري: أن يزيد بن شجرة قدم مكة غرة ذي الحجة، ولكن الثقفي قال: «قدموا مكة في عشر ذي الحجة»(1).

ونقول:

إن كان المراد أنه قدم يوم العاشر، فقد صرحت الروايات: بأنهم اختلفوا في من يقيم الحج، ثم توسط أبو سعيد الخدري، فتقرر أن يقيم الحج.

ولو كان يزيد قد وصل إلى مكة في العاشر من ذي الحجة، فذلك يعني أن الحج كان قد أقيم وانتهى الأمر، لأن العاشر من ذي الحجة هو يوم العيد، وفيه يكون الحجاج في منى.

والظاهر أن المراد: أن يزيد بن شجرة قد وصل مكة في أحد الأيام العشر من ذي الحجة، وقد عجز الراوي عن معرفة يوم وصولهم بالتحديد، أو لم يرد ذكر ذلك..

ويدل على ذلك: قول الثقفي نفسه بعد ذلك: أن يزيد بن شجرة قدم مكة قبل التروية بيوم(2).

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص507.

(2) الغارات للثقفي ج2 ص510.

وعند ابن أعثم: أنه قدم قبل التروية بيومين كما تقدم.

وربما كانت كلمة عشرة تصحيف كلمة غرة، وليس ذلك بعزيز.

أهمية مكة بالنسبة لمعاوية:

كان معاوية يحاول بسط نفوذه على مكة لأكثر من سبب:

فأولاً: مكة بلد مقدس، ونقطة ارتكاز للعالم الإسلامي، وهو مهوى أفئدة العالمين. وللسيطرة عليه قيمة معنوية، ونفوذ روحي على المسلمين.. ويحتاج أهل الشام إليها لتسكن قلوبهم، وليرضى غرورهم، وتطمئن نفوسهم إلى ثبات الحكم الذي يهيمن عليهم.

ثانياً: إن للحج، واجتماع الناس في مكة أهمية كبيرة بالنسبة لمعاوية، لأنه يمكنه من التواصل مع مختلف الفئات في طول البلاد الإسلامية وعرضها، لأنه يريد أن يحكمهم باسم الدين، فإن ذلك يعطي لحكمه رسوخاً في وجدان الناس، ومشروعية، ويضفي عليه هالة معنوية، ويضيف إليه مسحة قداسة، من شأنها أن تبعد تصرفاته الإجرامية، ومواقفه وسياساته عن الإستهجان، لاسيما إذا أمكن إلقاء تبعتها على الجبرية الإلهية، والقضاء والقدر الرباني. وقدم هو نفسه على أنه ظل الله في الأرض، ومجري إرادته في البلاد، وعلى العباد.

ثالثاً: في مكة قريش، وهم قوم معاوية، وأركان عرشه، وحماة دولته وطروحاته، ونهجه وسياساته، وقادة حربه، وشركاؤه في عداوة علي «عليه السلام» وبني هاشم. وفي البغض لكل محبيهم، ومؤيديهم، ومناصريهم.

أهمية المدينة:

أما المدينة، فلا بد له من الهيمنة عليها:

أولاً: لأنه يريد إذلال أهلها، وتصفية حساباته معهم، فهم أنصار عدوه، وهم الذين كان لهم أثر كبير في هدم مجد قريش، وبوار عزها.. وقد نصروا بني هاشم على بني أمية، ومكنوا علياً «عليه السلام» من الهيمنة على البلاد والعباد..

ثانياً: لأنه يعرف أن في أهل المدينة حملة الفكر الإنساني، والعلم بالشريعة، وبحقائق الدين، والحاملين على عاتقهم مسؤولية نشره، وحفظه، فمن سيطر على المدينة يكون قد أمسك بعصب الثقافة الإسلامية، وهيمن على مصادر المعرفة للعالم الإسلامي كله..

وبدون ذلك، فإن كل ما يحصل عليه، ويصل إليه معاوية أو غيره يبقى مهدداً بالزوال، والإضمحلال أمام النفوذ الديني والمعنوي، والقدرات العلمية والمعرفية المتوافرة في مدينة الرسول «صلى الله عليه وآله»..

فهو بحاجة ماسة إلى تأييد أهل المدينة، أو إلى تحييدهم عن ساحة الصراع، واستلاب نفوذهم وقدرتهم، ولو بالإرهاب والإضطهاد الجسدي، والفكري، والشائعات والإتهامات التي تغتال الشخصيات المؤثرة في كرامتها، أو تغرقها في همومها وتشتت اهتماماتها، وتصرفها إلى الإنشغال بلقمة العيش، وبالبحث عن مأمن، أو مهرب. إن لم تتمكن من اغتيال ضمائرها حين تشتريها بالمناصب والأموال،

وبالجاه والنفوذ، وما إلى ذلك..

ولهذا البحث مجال آخر..

علي × يصف أهل الشام:

وحين خطب أمير المؤمنين «عليه السلام» أهل الكوفة، وأخبرهم بمسير جند معاوية إلى مكة، لم يكتف بمجرد الإخبار، بل ضمَّن كلامه وصفاً غير حميد لأهل الشام..

وهذا ما نحب أن نتوقف عنده.

فأولاً: إن الأوصاف التي أوردها «عليه السلام» لم يخص بها الجند القادم إلى مكة، بل وصف بها عامة أهل الشام، ولم يستثن منها أحداً، مما يعني: أن الحالة الطاغية على تلك البلاد في ذلك العصر كانت كما ذكر «عليه السلام»..

ولكن ذلك لا يعني: أن لا يكون فيها أحد من أهل الصلاح.. ولكنهم قلَّة إلى حد أن وجودهم أصبح كعدمه، فلا يستحق الذكر، ولا فائدة من استثنائه من هذا التعميم، بل ربما كان استثناؤه مسهجناً، لأن الإنشغال به يصبح من العبث السمج والممجوج..

ثانياً: إن هذا التعميم لا يعني أن لا تتغير أحوال هذه البلاد من الفساد إلى الصلاح، فإن الله عز وجلّ قد هيأ أسباب انتقال المجتمعات من الضلال إلى الهدى في كل حين. وقد حصلت هذه الإنتقالات في كثير من الأعصار والأمصار، وربما حصل العكس في بعض الأقوام

أو البلاد.

ثالثاً: إن من فوائد هذه البيانات العلوية هو لفت أنظار الناس إلى نعمة الهداية التي هيأها الله تعالى لهم، والتحذير من التهاون والتفريط بها طمعاً في منفعة حاضرة، أو استجابة لشهوة أو نزوة عارضة.. فإن ذلك سيؤدي بهم إلى أن يصبح حالهم مثل حال أهل الشام في ذلك العصر.. وهو أمر تنفر منه الطباع، ويأنف منه ذوو الكرامة والشيم، وأهل الشهامة، وأصحاب الهمم.

لماذا اختار × هذه المعاني؟!:

وفي الأمور التي اختار «عليه السلام» أن يسمعها للناس في هذا المورد بالذات وفقاً لرواية ابن أعثم، يعطي: أنه لم يتبع أسلوب التشجيع، وإثارة الحمية، والحماس في الناس للدفاع عن الكرامة، أو عن المال والعرض، أو عن البلاد والعباد. كما أنه لم يطلب منهم أن يمتثلوا أمر الله تعالى في الدفاع عن الدين وعن بيت الله، بل نحا منحى آخر في خصوص هذا المورد، وهو غزو معاوية لمكة، فقد أشار إلى الأمور التالية:

1 - إن أهل الشام غلف القلوب. أي أن قلوبهم قد حجبت عن الفهم بالغلاف، وهو الغشاء.

2 - إنهم صُمّ الأسماع.

3 - إنهم كُمْهُ الأبصار.

4 - إنهم يلبسون الحق بالباطل.

5 - إنهم يطيعون المخلوق في معصية الخالق.

6 - إنهم أولياء الشيطان.

7 - إنهم وزراء الجبابرة المعتدين..

وزاد في رواية الثقفي:

8 - إنهم، يتمنون على الله جوار الأبرار!!

وجعل هذه الأمور السبعة مبرراً لطلب المسارعة إلى جهادهم..

وقد رأينا أن هذه الأمور، ولاسيما الأربعة الأولى منها، تصب في اتجاه واحد وهو: أن جميع سبل الهداية قد سدّت في وجه أهل الشام..

ولكن انسدادها ليس بأمر آمر أو بفعل فاعل من خارج ذواتهم، بل لأن ذواتهم نفسها قد أوصدت أبوابها أمام جميع أنواع الهدايات..

فأولاً: إن قلوبهم مغلقة، بل مغلفة بغلاف يصد جميع الهدايات القلبية والعقلية التي تتداولها القلوب من الوصول إليها، فهي تتذكر، ولا تخشع، ولا تتدبر، ولا تنفعل، ولا تتصرف بها بأي نوع من أنواع الإنفعال أو التصرف..

ثانياً: إن الهدايات التي تصل إليهم عن طريق السمع، والتعليم، والتذكير محجوبة عن أسماعهم، وأسماعهم موصدة عن تقبلها، فلا تستقبل شيئاً منها.. لا لأن الهداة لا يقومون بواجبهم، ولا يبادرون إلى سماعها.

ثالثاً: إن الهدايات التي تصل إليهم عن طريق البصر محجوبة

عنهم أيضاً، لا لأجل فقدان تلك الهدايات، أو لوضع حواجز، أو لوجود ظلمة تحول دون رؤيتهم لها. ولا لأجل أمر داخلي عارض فيهم منعهم من الرؤية كانشغال البال، أو الغضب الشديد، أو توجه النفس للذة الحاضرة، أو نحو ذلك. بل لأنهم لا قابلية فيهم للرؤوية من الأساس، فهم قد بنوا ذاتهم على العمى، وعدم الإبصار، فهم كالأكمه الذي يولد أعمى.

رابعاً: إنهم هم أنفسهم يصنعون الضلال، ويهيئون أسبابه لأنفسهم ولغيرهم.. فهم يلبسون الحق بالباطل. أي أنهم يسوِّقون الباطل بإلباسه لباس الحق.

خامساً: إنهم يفقدون الموازين والضوابط، فلا أولويات لديهم، إما لأنهم لا يدركونها، أو لأنهم لا يتعاملون بها، ويفضلون الإنسياق مع غرائزهم، وشهواتهم و أهوائهم.. ولأجل ذلك تراهم يطيعون المخلوق في معصية الخالق.

سادساً: إنهم لا يتولون من له الولاية، وهو الخالق ومصدر الخيرات، والنعم، بل يتولون الشيطان الذي هو مصدر الشرّور والآثام..

سابعاً: إنهم يشاركون الجبابرة المعتدين في إشاعة القهر والعدوان، ويهيئون لهم السبل إلى إعمال خصوصيتهم هذه، باتخاذهم موقع الوزير المدبر لهم، والمنفّذ لرغبات أسيادهم..

ثامناً: إنهم يعيشون حالة من التناقض الذي لا مبرّر له سوى

الخذلان الإلهي وعمى القلب، ويتمثل هذا الخذلان بالتناقض الذي صنعوه لأنفسهم بأيديهم وبملء اختيارهم، فإنهم وهم بهذا الحال المزري يتمنون على الله جوار الأبرار. ولا ريب في أن هذا التمني ممن يتولون الشيطان، ويجعلون من أنفسهم وزراء للجبابرة المعتدين هو من مفردات خذلان الله، لأنه يؤدي إلى إرضاء أنفسهم بشعور كاذب بالصلاح، وهو يسيرون في خط التمرد والعصيان، والبوار والخذلان..

ويبدو لنا: أن اختياره «عليه السلام» بيان خصوص هذه الحقائق للناس في هذه المناسبة، أعني مناسبة مهاجمة جيش الشام لأقدس المقدسات هو أن المقصود من إرسال هذا الجيش إلى مكة هو العدوان على مصدر الهدايات، لأن مكة هي موضع الخشوع، وموضع الرهبة والخوف من الله، وموضع بعث كل معاني الرحمة والحنان، وموضع تذكر ظهور آيات الله في إحراق إبراهيم «عليه السلام» بنار النمرود، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وموضع انبثاق المعرفة والعلم والقيم في أمة كانت الجاهلية الجهلاء تهيمن عليها، وموضع صناعة وصيانة الأخلاق النبيلة والفضائل والكمالات، وموضع صناعة الخصائص الإنسانية، وموضع تذكر ذبح إسماعيل «عليه السلام» رمز التضحية والفداء في سبيل الله، وموضع إشراق نور الحق، وزهوق الباطل، وموضع السلام والعدل، وإنصاف المظلومين ونصرتهم، وإنقاذ المحرومين، وإذلال الجبارين، وخضوعهم أمام

جلال ربّ العالمين.

لقد أراد معاوية: أن يظهر جباريته بالعدوان على هذا المكان بالذات، وعلى كل ما يمثله هذا البيت، وهذا البلد من خير وبركات، وهدايات جميلة، وملكات أصيلة، حيث الأخلاق والفضيلة.. وقد انبثق العدوان على هذا المكان المقدس من معاوية، وأهل الشام هم أعوانه ووزراؤه، والممالئون المدبرون لهذا الأمر البشع والخطير..

فأراد «عليه السلام»: أن يحدّث أصحابه عن هذه الأمور كلها.. وأن يعرفهم: أن عليهم أن يختاروا هم لأنفسهم، فإما أن ينصروا الله وينقذوا الدين والحق، والإيمان، وبيت الله، وإمّا أن يكونوا مع أولياء الشيطان، وموضع غضب الملك الدّيان، ويكون حالهم حال أهل الشام في تلك الحقبة.

وهذه المضامين التي ذكرناها، وقلنا: إنها وردت في كلام علي «عليه السلام» حسب رواية ابن أعثم هي نفسها حاضرة أيضاً في الكتاب الذي روى الثقفي: أن علياً «عليه السلام» أرسله إلى قثم بن العباس، وقد زاد في الكتاب المذكور أموراً أخرى لا غنى للباحث الأريب عن مراجعتها لاستنطاقها.

عيون علي ×:

لقد صرح «عليه السلام» في كتابه إلى قثم بن العباس: بأن عينه بالمغرب قد كتب إليه: بأن جماعة قد أرسلوا إلى الموسم. ثم ذكر له «عليه السلام» أوصاف تلك الجماعة..

وقد لاحظنا في هذا الكتاب أموراً عديدة منها:

1 ـ أنه يدل على أن له «عليه السلام» عيوناً قد زرعهم في بعض البلاد.

2 ـ إنه لم يصرح في كتابه باسم البلاد التي كان ذلك العين مقيماً فيها، بل وصفها: بأنها من بلاد المغرب، والمغرب كلمة تشير إلى الجهة، التي قد يقال: إنها تعني نصف، أو ثلث الكرة الأرضية على أقل تقدير.

وليس ذلك لأجل سلامة ذلك العين وحسب، إذ كان يكفيه في ذلك أن يصرح بكلمة «الشام» فقط، فإنها بلاد واسعة، ويتعذر العثور فيها على ذلك العين.. بل لكي يلقي الشبهة حتى في أن يكون الكتاب قد جاءه من الشام بالتحديد.. لأنه يعلم أن معاوية كان يحاذر من أن يصل خبر هذا البعث إلى علي «عليه السلام»، ولذلك صرح النص الذي أورده الثقفي في كتاب الغارات: بأن معاوية أوصى يزيد بن شجرة بكتمان هذا الأمر عن الناس كلهم، وقد فعل يزيد ذلك بمزيد من التشدد في الكتمان[1].

3 ـ إنه «عليه السلام» ـ كما يفهم من هذا الكتاب، ومن سائر النصوص والكتب والخطب ـ كان قد أنشأ شبكة صالحة لتزويده بما يحتاج إليه من معلومات، ولا سيما فيما يرتبط بتحركات وتصرفات

(1) الغارات للثقفي ج2 ص504 وبحار الأنوار ج34 ص59.

أعدائه، وحتى عماله في البلاد، وما يجري في المحيط القريب منه، والبعيد عنه على حد سواء..

وهذا إجراء حازم، وتدبير صحيح، وحكيم بلا ريب.

وقد ظهر من سرعة وصول الخبر إلى الإمام «عليه السلام»، ومباشرته بتهيئة الجيش الذي يريد إرساله للتصدي والتحدي، ثم بسرعة إبلاغه قثم بن العباس بما ينبغي له. وقد تم ذلك في مدة وجيزة جداً، هي أقل من مسافة الطريق من الشام، حيث تم ذلك كله قبل أن يصل يزيد بن شجرة إلى مكة..

وهذا يدل على سرعة التواصل التي كان علي «عليه السلام» قد هيأ أسبابها، وعلى أن تلك العين قد تصرف بسرعة قياسية فائقة، وأنه كان يملك من الوسائل ما يكفيه لذلك.. مما يعني: أن المنظومة التي انشأها «عليه السلام» لمثل هذه المهمة كانت قوية، ومحكمة، ومنسجمة.

4 - إنه «عليه السلام» حين بدأ بوصف تلك الجماعة قال: «وجّه ناس من العرب، من العمي القلوب إلخ..»، فيلاحظ:

أولاً: أنه «عليه السلام» قال: «وجه» بصيغة المجهول، ولم يصرح بأن معاوية هو الذي وجهه، وذلك إمعاناً منه «عليه السلام» في التعمية على الطرف الآخر، لكي لا يتحقق له أنه هو المقصود بهذا الكلام، فيبالغ في التخفي، والكيد والخداع..

ثانياً: قال «عليه السلام»: «من العرب من العمي إلخ..»، ولم

يقل: من العرب العمي القلوب، لكي لا يتوهم أنه قصد أن جميع العرب مصابون بعمى القلب. بل قسم منهم قد حاق به هذا البلاء، وسقطوا في هذا المستنقع البغيض..

ولولا إضافة كلمة «من» لكانت هذه الكلمة من وسائل التشنيع عليه بين العرب، وتحريكهم ضده «عليه السلام»..

كما أنه قد يفهم منها: أنه «عليه السلام» لا يتورع عن التجني، والظلم للصالحين من العرب.. مع أن بعضهم من خيرة أصحابه «عليه السلام».

وإن كنا نرى: أنه لا ضير بإيراد الكلام على ذلك النحو، على سبيل المبالغة، وتنزيل القلة القليلة منزلة غير الموجودة، أو أنها قد بلغت حداً لا يستساغ استثناؤها بسبب ضآلتها البالغة..

5 - وللتذكير والتصحيح نذكر هنا: أن الكتاب الذي ذكره الثقفي قد تضمن كلمة «البكم الأبصار» وهو غلط، فإن البَكَم لا يضاف إلى الأبصار، لأنه مرتبط بالنطق، والذي توصف الأبصار به هو الكَمَه.. فالصحيح هو أن يقال: الكمه الأبصار.. كما هو واضح.

توصيات علي × لقثم:

وفيما يرتبط بقثم نشير إلى الأمور التالية:

1 - كان تحرك أمير المؤمنين «عليه السلام» باتجاه قثم بن عباس، لتزويده بالتوجيهات المطلوبة فائق السرعة، لأنه «عليه السلام» يريد أن يفهمه ويفهم أهل مكة أنهم ليسوا وحدهم.. وعليهم أن

يخططوا لمواجهة الواقع الجديد الذي يفرضه وصول يزيد بن شجرة بما يتناسب مع حقيقة أن المدد والعون سوف يصلهم في مدة وجيزة، ولا يفصلهم عنه سوى ما تبقى من مسافة الطريق..

وربما أمكنهم المماطلة في المفاوضات، والأخذ والرد، والمدافعة، وتأجيل المواجهة معه لعدة أيام يمكن فيها وصول المدد إليهم، وحتى إن تطورت الأمور، ولم يتمكنوا من تأجيل المواجهة، وفرضت الظروف على قثم بن العباس التنحي إلى بعض الشعاب، فليكن ذلك بنحو يمكنه أن ينضم إلى القوة الآتية إليه بقيادة معقل بن قيس، لكي يواجها معاً ذلك الباغي والطاغي..

2 ـ إن توجيهات أمير المؤمنين «عليه السلام» لقثم تظهر: أنه «عليه السلام» كان بصدد تثبيت قثم، والربط على قلبه، وشد عزيمته، لأنه يعلم أنه كان بحاجة إلى هذه الجرعة من القوة التي تعطيه بعض الصلابة، والتماسك في الموقف، لأنه بحاجة إلى الشعور بأن علياً «عليه السلام» عارف بما يجري، وأنه لا يتركه وحيداً في ساحة المواجهة..

كما أنه يعلم أن لمكة حرمتها، وبإمكانه أن يستفيد من هذه الحرمة في مدافعته ليزيد بن شجرة أياماً يسيرة.. ولا بد من تعظيم الأمر عليه، وتقبيح إقدامه على هتك حرمة هذا البلد المقدس. ولاسيما في الأشهر الحرم.. فإن هذا يفيد في إضعاف عزيمة ابن شجرة، وينفِّر الناس منه.

يضاف إلى ذلك: أن ابن شجرة يعلم أن معاوية لم يكن بصدد البطش بقومه قريش، بل هو يريد أن يبقي عليهم، لكي يكونوا حماة رغباته، وأعوانه على أمير المؤمنين «عليه السلام».

إن إظهار قثم بن العباس لقدر من التماسك، ومتابعة الأمور بروية وحنكة، وقدر من الحزم، والمزاوجة بين الشدة واللين.. من شأنه أن يحرج يزيد بن شجرة. ويجعله أمام خيار صعب.

ولم يكن «عليه السلام» يريد من قثم أن يبادر إلى حرب ابن شجرة، بل كان يريد منه أن لا يظهر للناس منه وهن ولا خور.. لأن ذلك يطمع عدوه، ويدعوه للتعجيل في الهجوم، ويوهن ويفت في عضد وليه.

بخلاف ما لو أظهر حزماً، وثباتاً، فإن ذلك يدعو يزيد بن شجرة إلى أن يتردد في هتك حرمة البيت لأكثر من سبب:

فأولاً: إنه يعلم أن ذلك يزعج معاوية، لأنه يخدش سمعته عند الناس، لأنه بذلك يكون انتهك البلد الحرام، في الشهر الحرام.. وخرب على الناس حجهم، وسيرونه ظالماً، معتدياً على الحرمات، هاتكاً للقداسات..

ثانياً: إن ذلك يزعج معاوية، لأنه يلحق ضرراً مباشراً في قومه من قريش، وربما ترك ذلك آثاراً سلبية على وضعهم العام في محيط ليس لمعاوية فيه تأثير مباشر، بل هو في قبضة أمير المؤمنين «عليه السلام».

ثالثاً: إنه قد يحسب أن هذا الثبات والحزم من قثم، ربما يخفي وراءه قوةً لم تظهر بعد ليزيد بن شجرة ماهيتها، وحقيقتها، فلا بد أن يتروى في اتخاذ أي قرار لكي يستكنه البواطن، ويعرف ما اعتمد عليه قثم..

ولذلك قال «عليه السلام» لقثم: إن المطلوب هو أن يوطن نفسه على الصبر في البأساء والضراء، لأن الصبر هو الذي يؤخر وصول معاوية إلى مبتغاه، يمنع القدرة على المطاولة..

كما أنه طلب منه أن لا يكون فاشلاً ولا طائشاً ولا رعديداً.. أي أن المطلوب هو التعامل بروية وحكمة، وحساب للعواقب، لأن الطيش يدعو للتصرف برعونة، الذي يوجب مبادرة العدو إلى حسم الأمر مع الطائش، ويسهِّل التخلص منه..

أما الرعديد، وهو الذي تظهر عليه الرعدة بوضوح من شدة جبنه وخوفه، ومن كان كذلك فإن جبنه هذا سيسري إلى أوليائه، وسيسارعون للإستسلام..

وسيبادر عدوه للإستفاده من هذه الحالة التي تعني فقدان السيطرة، وعدم الإتزان.

وقد أظهرت محاورة أبي سعيد مع قثم: أن ما توقعه أمير المؤمنين «عليه السلام» في قثم هو ما حصل له.. فقد ظهر أن الخوف كان قد سيطر عليه، بالرغم من كتاب أمير المؤمنين إليه.

وأظهر هذا الحوار: أن العقدة عند قثم هي أن يزيد بن شجرة

سوف يصل إلى مكة قبل وصول معقل بن قيس إليها بجيشه، فسقط في يده. لا سيما وأنه كان يتوهّم أن يزيد بن شجرة سوف يبادر لمهاجمته بمجرد وصوله إلى مكة. ولم يلتفت إلى تلك الأمور التي كان يزيد بن شجرة ملزماً بمراعاتها.. أو أنها ـ على الأقل ـ تحد من اندفاعه إلى الحرب.

وربما زاد في حيرة قثم: أنه لم يكن يعرف شيئاً عن شخصية ابن شجرة، فلم يكن يدري أنه يتظاهر بشيء من التقوى، وأنه يريد أن يحافظ على مظهره هذا، وأنه خاضع لإرادة معاوية، وأن معاوية يرى أن الأولى له تجنب إحراجه بالحرب.

ولعله لا يدري أيضاً: أن معاوية لم يكن يحب التسبب بمشكلة كبيرة لقومه في مكة..

ولم يكن يدري ـ كما يبدو ـ: أن معاوية لم يكن يريد أن يتهم بهتك حرمه مكة، وحرمة الحج، وغير ذلك من الحرمات.

كما أنه لم يكن يدري ـ فيما يظهر ـ: أن معاوية لا يحب يتهم بأنه خرب حجهم.. وبأنه.. وبأنه.. لأن ذلك يضعف موقعه.

وقد أوضح أبو سعيد الخدري لقثم في حواره معه كثيراً من هذه النقاط، فراجع الغارات للثقفي.

مهمات معقل وجيشه:

وقد رأينا: أنه «عليه السلام» يصرح لقثم بن العباس بتفاصيل

المهمة التي أوكلها «عليه السلام» لمعقل وجيشه. فقد قال:

«وقد أمرته باتباعهم، وقص آثارهم، حتى ينفيهم من أرض الحجاز». مع أنه كان يكفيه أن يقول: قد أرسلت جماعة مع معقل، ليدفعوا ابن شجرة عن مكة، مثلاً.

ولكنه لم يفعل ذلك، لأن المطلوب ليس مجرد دفعهم، بل أن يبحث عنهم، ويتتبع آثارهم، ويلاحقهم أينما كانوا..

فلو لم يجدهم في مكة، فليس له أن يرجع إليه خالي الوفاض.. فربما يكونون قد انتقلوا من مكة إلى بعض شعابها، أو إلى بلد أو مكان آخر من بلاد الحجاز. إلى أن يعود معقل إلى العراق، فيعودون لمهاجمة مكة.

فإلى أن يذهب الخبر إلى علي «عليه السلام» من جديد، ويجرد جيشاً آخر، ويقدم مكة، تكون قد انقضت أيام وليال كثيرة، ويكون أمر مكة قد حسم، وبطش الطغاة بمن أحبوا أن يبطشوا به. من أهلها، ومن غيرهم.

إنه أمر معقلاً: بأن يقص آثارهم، وهذا تعبير دقيق، وبالتأمل حقيق.. فإنه «عليه السلام» يريد من معقل أن لا يكتفي بسلوك الطرق المعروفة إلى الشام، حتى إذا لم يجدهم عاد إليه، بل طلب منه أن يقص أثرهم. أي أن عليه أن يلاحق هذا الأثر لكي يرى ويعاين كل خطوة خطوها بصورة تدريجية ومتواصلة لكي يطمئن ـ عملياً ـ إلى أنهم خرجوا من أرض الحجاز..

كما أنه «عليه السلام» لم يقل: حتى يخرجوا من أرض الحجاز، بل قال: حتى ينفيهم. وهذه الكلمة تفيد توهيناً لأمرهما وتصغيراً لشأنهم، وتدل أيضاً على: أن ثمة ملاحقة حقيقية، وأنهم يسيرون سير الهارب الخائف. من أن يقبض عليه طالبه.. الذي يشعر أنه يأتي على أثره..

وليس المطلوب الخروج الطوعي، بل الخروج القسري.. المصاحب للخوف، الناشئ عن المطاردة. والملاحقة المتواصلة لحظة بلحظة.

وقد دلت كلمة ينفيهم: على أن لإرادة معقل واختياره وفعله «الذي هو المطاردة» تأثيراً حقيقياً مباشراً في خروجهم.. كما هو ظاهر..

سمات معقل وجيشه:

وقد رأينا: أنه «عليه السلام» قد كتب لقثم بأوصاف عديدة وحميدة وصف بها «عليه السلام» معقلاً، وأوصافاً أخرى وصف بها جيشه.. فوصف معقلاً بأنه:

1 - الحسيب، والحسب: هو ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه.. أو ما ينشئه لنفسه من شرف، ومجد و رفعة.

2 - الصليب، أي الشديد.

3 - الورع.

4 - التقي.

ووصف جيشه بما يلي:

1 - إنهم جمع من المسلمين..

2 - ذوو بسالة..

3 - ذوو نجدة

وربما كان الهدف من إضفاء هذه الأوصاف على معقل هو إغراء قثم بأن يتحلى بها أيضاً، كما أنها ربما تكون لأجل طمأنة قثم إلى أن هذا الرجل قادر على أن ينجز المهمة الموكلة إليه على أتم وجه، وأكمله.

فهو إذن، جدير بالإعتماد عليه من قبل قثم، فإنه لا يفرط بحسبه، فلا يمكن أن يتوانى في إنجاز ما طلب منه إنجازه، كما أن تقاه وورعه لا يسمح له بأن يقصر أو أن يتسامح، أو أن يتخلى عن التدقيق في تطبيق ما يقوم به ويفعله على ما أمره «عليه السلام» به، لذا فلا مجال للريب في أنه سوف يخرج الغزاة من الحجاز، وهم في حالة خوف وهروب ذليل.

أما أوصاف الجمع الذين أرسلهم معه، فهي تعني:

أولاً: أنه «عليه السلام» عارف بهم، واقف على أحوالهم، ويخبر عن علم وخبرة وتجربة.

ثانياً: إن هذه الأوصاف تؤكد لقثم، ولأهل مكة: أن هؤلاء قادرون على تحقيق النتيجة المتوخاة، لأنهم أهل نجدة وإباء. أي

ينجدون من يحتاج إلى إنجادهم.

ثالثاً: إن قدراتهم القتالية تكفي لتحقيق ما طلب منهم، لأن لديهم خبرات وقدرات، واندفاع قوي، وبسالة ظاهرة..

علي × يذكر بأسرى بني تغلب:

وبالرغم من أن بني تغلب الذين أسر منهم معاوية ثمانية أشخاص كانوا قد اعتزلوا علياً «عليه السلام»، ولجأوا إلى معاوية، وبالرغم من أنهم حين غضبوا من معاوية لعدم إطلاقه أسراهم، تركوه من جديد، إلا أنهم لم يعودوا لعلي «عليه السلام».

وبالرغم من مناوأتهم لعلي «عليه السلام» حتى قتلوا مبعوثه عبد الرحمان، واستمروا على مناوأتهم حتى كاد أن يرسل إليهم جيشاً. نعم، بالرغم من هذا وذاك، فإنه كان يفكر بفكاك أسراهم من يد معاوية، لأنه «عليه السلام» كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن الناس كلهم، وعن أمنهم، وحفظ مصالحهم، ولو لم يبايعوه، ولو أساؤا له، ونابذوه، وقتلوا مبعوثه.

وهو «عليه السلام» لا يتعامل مع الناس بالمنطق العشائري، ولا يأخذ البريء بذنب المجرم، ولا يفكر في مصالحه الخاصة، ولا يتعامل بردات الفعل، ولا من منطلق الهوى، والإنفعال. ولذلك حبس أسرى معاوية لكي يبادلهم بأسرى بني تغلب بالذات، الذين آذوه، ولم يوقروه.

يأسرهم ليبادل بهم:

ربما نستفيد من أمر علي «عليه السلام» بحبس الأسرى الذين أخذهم معقل من جيش يزيد بن شجرة: أنه لولا أن الغرض هو مبادلتهم بالأسرى الذين كانوا عند معاوية لم يحبسهم «عليه السلام»، بل كان قد نظر في أمرهم، فمن كان قد قتل مسلماً اقتص منه، ومن لم يقتل أطلق سراحهم.

والشاهد على ذلك: أنه «عليه السلام» قد أسر في حرب الجمل الكثيرين، أطلق سراح من لم يقتل منهم أحداً. وكذلك فعل في صفين كما أنه أسر الكثيرين في حروبه المختلفة مع الخوارج ولم يستبقهم، بل أطلقهم، وداوى جراح الجرحى، وأطلقهم أيضاً..

ولكن ذلك لا يعني أن هؤلاء المعتدين لا يستحقون الحبس، أو غير ذلك من العقوبات، بل ذلك مرهون بنظر الإمام، الذي يراعي مصلحة الأمة، والدين، وحال الناس، وحاجات عوائلهم، وغير ذلك من أمور.

بماذا يستنفر الناس للدفاع عن مكة؟!:

وقد قال «عليه السلام» حين خطب بالناس يستنفرهم لدفع يزيد بن شجرة عن مكة: «الحمد لله الذي لا يعز من غالبه، ولا يفلح من كايده، بلغني أن خيلاً وجهت نحو مكة فيها رجل قد سمي لي إلخ..» فترى أنه «عليه السلام» قد اختار ـ حسب نص البلاذري ـ عبارات

يسيرة ضمنها أموراً يحسن التوقف عندها، ليستفاد منها في التعبئة لقتال العدو. ونوضح ما نرمي إليه كما يلي:

1 - إنه وجه الأنظار إلى حقيقة الصراع، ومآله، فبين لهم: أن الطرف المهاجم لا يحارب علياً، ولا يحارب العراقيين أو الحجازيين، بل هو يحارب الأطروحة الإلهية، ويسعى لتحقيق الغلبة على الله مباشرة، ويأبى الخضوع أمام عظمة الله تعالى. ويمنع من إجراء أحكامه، ويرسم الخطط في الخفاء، ويصنع المكائد لإفساد دين الله، وتضييع مقاصده وأهدافه، وعرقلة المسيرة باتجاه تحقيق أهداف الله، وصد الناس عن طاعته وعن سبيله، وعن الخضوع لإرادته تعالى.. ولذلك قال: «الحمد لله، الذي لا يعز من غالبه، ولا يفلح من كايده».

2 - يلاحظ: أنه «عليه السلام» تكلم عن أن خيلاً وجهت إلى مكة، ولم يذكر لهم من الذي وجهها، بل هو لم يذكر لهم اسم قائدها، بل ذكر فيها رجلاً قد سمي له، وكأنه يريد أن يوحي لهم بجهالته وضآلته، ربما لتعمية الأخبار على معاوية في أن يكون «عليه السلام» قد عنا نفس الجماعة التي أرسلها أو غيرها..

ولكي لا يوحي للناس بضخامة المهمة التي يندبهم إليها، ولو بأن يحسبوا أن وراء تلك الخيل التي وجهت جيوش جرارة، يرهب جانبها، ويخشى من الوقوع في مصائدها، التي قد تكون فوق طاقتهم.

وقد ساعد معقل على تصغير شأن تلك الجماعة، وتوهين أمرها بقوله «رحمه الله» لهم: إنما هي أيام قلائل حتى ترجعوا إن شاء الله..

وأنه يأمل أن يهرب عدوهم من المواجهة بمجرد سماعه بنفيرهم إليه.

الفصل الخامس:

غارة الغامدي..

10 ـ غارة الغامدي على هيت، والأنبار:

قال ابن أعثم بعد ذكره لغارة التنوخي على بني تغلب:

«وظن علي «رضي الله عنه»: أن معاوية لا يغير عليه بعد ذلك، فلما كان بعد شهر، أو أقل، أو أكثر وجه معاوية أيضاً برجل من أهل الشام يقال له: سفيان إلخ..»(1). وتفصيل وقائع ما جرى ذكرته الروايات التي نوردها فيما يلي:

أوامر معاوية:

1 ـ روى الثقفي عن سفيان بن عوف الغامدي قال:

«دعاني معاوية، فقال: إني باعثك في جيش كثيف [ذي أداة وجلادة]، فالزم لي جانب الفرات [الغربي] حتى تمر بهيت، فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فاغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى تغير على المدائن، ثم أقبل إلي.

---

(1) الفتوح لابن أعثم (ط دار الأضواء) ج4 ص225.

واتق أن تقرب الكوفة، واعلم أنك إن أغرت على [أهل] الأنبار وأهل المدائن، فكأنك أغرت على الكوفة..

إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق [تنخب] ترهب قلوبهم، [وتكسر حدهم، وتقوي أنفس أوليائنا ومنعهم]، وتجرئ كل من كان له فينا هوى [منهم] ويرى فراقهم، وتدعو إلينا كل من كان يخاف الدوائر، وخرب كل ما مررت به [من القرى]، واقتل كل من لقيت ممن ليس هو على رأيك، واحرب الأموال، فإنه شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلوب»[1].

الغامدي ينفذ الأوامر:

2 ـ قال ابن الأثير: «وجه معاوية في هذه السنة [39 هـ.] أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل، وأمره أن يأتي هيت فيقطعها، ثم يأتي الأنبار والمدائن، فيوقع بأهلها.

فأتى هيت فلم يجد بها أحداً، [لأنهم أنذروا به، فقطعوا الفرات] ثم أتى الأنبار وفيها مسلحة لعلي «عليه السلام» تكون خمسمائة رجل، وقد تفرقوا ولم يبق منهم إلا مائتا رجل.

وكان سبب تفرقهم أنه كان عليهم كميل بن زياد، فبلغه أن قوماً

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص464 - 467 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص85 وبحار الأنوار ج34 ص52 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص116.

بقرقيسيا يريدون الغارة على هيت، فسار إليهم بغير أمر علي «عليه السلام».

فأتى أصحاب سفيان وكميل غائب عنها، فأغضب ذلك علياً «عليه السلام» على كميل، فكتب إليه ينكر ذلك عليه.

وطمع سفيان في أصحاب علي «عليه السلام» لقلتهم فقاتلهم، فصبر أصحاب علي «عليه السلام». ثم قتل صاحبهم، وهو أشرس بن حسان البكري، وثلاثون رجلاً، واحتملوا ما في الأنبار من أموال أهلها، ورجعوا إلى معاوية.

وبلغ الخبر علياً «عليه السلام»، فأرسل في طلبهم، فلم يدركوا»[1].

3 ـ قال ابن أعثم:

قال: فخرج سعيد بن قيس في طلب سفيان وأصحابه، حتى بلغ أرض عانات، فلم يقدر عليه.

وبعث سعيد بن قيس رجلاً من أصحابه يقال له: هانىء بن

---

(1) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص116 و 117 والكامل في التاريخ ج2 ص425 و (ط دار صادر) ج3 ص376 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص134 و(ط الأعلمي) ج4 ص103 والفتوح لابن أعثم ج4 ص225 ـ 227 والبداية والنهاية ج7 ص320 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص354 والكامل في الأدب ج1 ص29 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص335 والغارات للثقفي ج2 ص467 و 470.

الخطاب في طلب القوم، فبلغت الخيل إلى أداني الشام، حتى أشرفت على صفين، فلم يقدروا على سفيان، فانصرف سعيد بن قيس إلى علي «عليه السلام»، فأخبره بذلك، فأنشأ رجل من أهل الكوفة يقول:

أرى ابن أبي سفيان مرخي جنوده **يغير علينا ضلة وتحامقا**
بوارق خيلاً يتبعن بوارقا
وبين الفتى في الحرب يوماً إذا سرت **بأيديهم بيض يجن عقائقا**
ولست بناج أو تموت منافقا

قال: ثم كتب علي «عليه السلام» إلى كميل بن زياد يلومه على فعله وتضييعه مدينة هيت، وخروجه عنها(1).

الخطبة الجهادية لعلي ×:

4 - قال الثقفي، وغيره:

عن محمد بن سفيان بن عوف: «لما أغار على الأنبار قدم علج من أهلها على علي «عليه السلام»، فأخبره الخبر، فصعد المنبر، فقال:

أيها الناس! إن أخاكم البكري قد أصيب بالأنبار، وهو معتز لا يخاف ما كان، فاختار ما عند الله على الدنيا، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم، فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا.

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج4 ص226 و 227 وراجع: تاريخ اليعقوبي ج2 ص196. وقد ذكرنا الأبيات كما وجدناها.

ثم سكت عنهم رجاء أن يجيبوه، أو يتكلموا، أو يتكلم متكلم منهم بخير [فلم ينبس أحد منهم بكلمة].

فلما رأى صمتهم على ما في أنفسهم نزل، فخرج يمشي راجلاً حتى أتى النخيلة [والناس يمشون خلفه، حتى أحاط به قوم من أشرافهم].

فقالوا: إرجع يا أمير المؤمنين! نحن نكفيك.

فقال: ما تكفونني، ولا تكفون أنفسكم. [فكيف تكفونني غيركم؟! إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها، وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأنني المقود وهم القادة، أو الموزوع، وهم الوزعة].

فلم يزالوا به «عليه السلام» حتى صرفوه إلى منزله. فرجع وهو واجم كئيب.

ودعا سعيد بن قيس الهمداني، فبعثه من النخيلة بثمانية آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاؤوا في جمع كثيف.

فقال له: إني قد بعثتك في ثمانية آلاف، فاتبع هذا الجيش حتى تخرجه من أرض العراق، فخرج على شاطئ الفرات في طلبه حتى إذا بلغ عانات سرح أمامه هانئ بن الخطاب الهمداني، فاتبع آثارهم حتى إذا بلغ [أرض عانات] أداني أرض قنسرين، وقد فاتوه ثم انصرف.

قال: فلبث علي «عليه السلام» ترى فيه الكآبة والحزن، حتى قدم عليه سعيد بن قيس، فكتب كتاباً، وكان في تلك الأيام عليلاً، فلم

يطق على القيام في الناس بكل ما أراد من القول، فجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد، ومعه الحسن والحسين «عليهما السلام»، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فدعا سعداً مولاه، فدفع الكتاب إليه، فأمره أن يقرأه على الناس.

فقام سعد بحيث يسمع علي «عليه السلام» قراءته، وما يرد عليه الناس. ثم قرأ الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي «عليه السلام» إلى من قرأ عليه كتابي من المسلمين، سلام عليكم.

أما بعد، فالحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، ولا شريك لله الأحد القيوم، وصلوات الله على محمد «صلى الله عليه وآله»، والسلام عليه في العالمين.

أما بعد، فإني قد عاتبتكم في رشدكم حتى سئمت، أرجعتموني بالهزء من قولكم حتى برمت، هزء من القول لا يعاديه، وخطل لا يعز أهله، ولو وجدت بداً من خطابكم والعتاب إليكم ما فعلت، وهذا كتابي يقرأ عليكم فردوا خيراً وافعلوه، وما أظن أن تفعلوا، فالله المستعان.

أيها الناس! إن الجهاد باب من أبواب الجنة [فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة]، فمن ترك الجهاد في الله ألبسه الله ثوب ذلة، وشمله البلاء، وضرب على

قلبه بالشبهات، وديث بالصغار [والقماءة، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد]، وسيم الخسف، ومنع النصف.

الا وإني قد دعوتكم إلى جهاد عدوكم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، [وإعلاناً] وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، [وثقل عليكم قولي، فعصيتم، واتخذتموه وراءكم ظهرياً]، حتى شنت عليكم الغارات في بلادكم [وملكت عليكم الأوطان].

وهذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، فقتل بها حسان [أشرس بن حسان، وأزال مسالحكم عن مواضعها [خيلكم عن مسالحها]، وقتل منكم رجالاً صالحين.

وقد بلغني أن الرجل من أعدائكم كان يدخل بيت المرأة المسلمة و [الأخرى] المعاهدة، فينتزع [حجلها، وقلبها، وقلائدها، ورعاثها] خلخالها من ساقها، ورعثها من أذنها، فلا تمتنع منه [إلا بالإسترجاع، والإسترحام]، ثم انصرفوا وافرين [ما نال رجلاً منهم] لم يكلم منهم رجل كلماً, [ولا أريق لهم دم] فلو أن امرءاً [مسلماً] مات من دون هذا أسفاً ما كان عندي [به] ملوماً، بل كان عندي به جديراً.

فيا عجباً، عجباً ـ والله ـ يميت [يميث] القلب، ويجلب الهم، ويسعر الأحزان من اجتماع هؤلاء على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم.

فقبحاً لكم وترحاً، لقد صيرتم أنفسكم [حين صرتم] غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله

وترضون، ويقضى إليكم فلا تأنفون.

قد ندبتكم إلى جهاد عدوكم في الصيف، فقلتم: هذه حمارة القيظ، أمهلنا حتى ينسلخ [يسبخ] عنا الحر، [وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد] فكل هذا فراراً من الحر والقر, [فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون]، فأنتم والله من حر السيوف أفر.

لا والذي نفس ابن أبي طالب بيده [عن] السيف تحيدون, فحتى متى؟! وإلى متى؟!

يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا طغام الأحلام أحلام [حلوم] الأطفال، وعقول ربات الحجال.

الله يعلم لقد سئمت الحياة بين أظهركم، ولوددت أن الله يقبضني إلى رحمته من بينكم، وليتني [لوددت أني] لم أركم، ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً، [قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً] أوغرتم يعلم الله صدري غيظاً، وجرعتموني جرع [نغب] التهمام أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي، وخرصي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش [وغيرها]: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب.

لله أبوهم؟! وهل كان منهم رجل أشد مقاساة وتجربة، ولا أطول لها مراساً [وأقدم فيها مقاماً] مني؟!

فوالله! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، فها أنا ذا قد ذرفت

على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع»(1).

استبان فقد الأشتر:

ثم يذكر الثقفي، (وروى نحوه الطوسي): أن حبيب [جندب] بن عبد الله الأزدي قام آخذاً بيد ابن أخيه عبد الرحمان بن عبد الله، وجاء إلى أمير المؤمنين «عليه السلام»، وطلبا منه أن يأمرهما بما يريد، ووعداه بالطاعة.

(1) راجع: الغارات للثقفي ج2 ص470 ـ 477 (والنص له) والكافي ج5 ص4 ونهج البلاغة ج1 ص67 الخطبة رقم 27 والبيان والتبيين ج2 ص53 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ) ج2 ص341 ـ 343 و (ط أخرى) ج3 ص201 و (ط الأعلمي) ص442 والكامل في الأدب ج1 ص29 والجوهرة في نسب الإمام علي وآله ص76 ـ 77 عنه، والفتوح لابن أعثم ج4 ص225 ـ 227 والإرشاد للمفيد ج1 ص279 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص120 ـ 122 وللخطبة مصادر كثيرة أخرى، فراجع على سبيل المثال: دعائم الإسلام ج1 ص390 ومعاني الأخبار ص309 و شرح الأخبار ج2 ص75 والأغاني ج5 ص43 و (ط أخرى) ج15 ص266 والعقد الفريد ج4 ص136 وتهذيب الأحكام ج6 ص123 وبحار الأنوار ج34 ص64 ـ 65 و 142 ـ 143 والأخبار الطوال ص211 ونهج السعادة ج2 ص561 ـ 565 وج5 ص311 ـ 317 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج9 ص184 ـ 185 وجواهر المطالب لابن الدمشقي ج1 ص321.

فقال علي «عليه السلام»: أين تبلغان مما نريد؟!

ثم أمر الحارث الأعور الهمداني، فنادى في الناس: أين من يشري نفسه لربه، ويبيع دنياه بآخرته؟! أصبحوا غداً بالرحبة إن شاء الله. ولا يحضرنا إلى صادق النية في المسير معنا, والجهاد لعدونا.

فأصبح بالرحبة نحو من ثلاث مئة، فلما عرضهم قال: لو كانوا ألفاً لكان لي فيهم رأي.

قال: وأتاه قوم يعتذرون، وتخلف آخرون، فقال: وجاء المعذرون، وتخلف المكذبون.

قال: ومكث أمير المؤمنين «عليه السلام» أياماً بادياً حزنه شديد الكآبة، ثم إنه نادى في الناس، فاجتمعوا، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد..

أيها الناس! فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر في العرب من الأنصار، وما كانوا يوم عاهدوا رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين، حتى يبلغ رسالات الله، إلا قبيلتين صغير مولدهما، ما هما بأقدم العرب ميلاداً، ولا بأكثره [هم] عدداً.

فلما آووا رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم [اليهود و] القبائل قبيلة بعد قبيلة، فتجردوا للدين، [لنصرة دين الله]، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل، وما بينهم وبين

اليهود من العهود، ونصبوا لأهل نجد وتهامة، وأهل مكة واليمامة، وأهل الحزن وأهل السهل [وأقاموا] قناة الدين، وصبروا [تصبروا] تحت حماس [أحلاس] الجلاد، حتى دانت لرسول الله «صلى الله عليه وآله» العرب، فرأى فيهم قرة العين قبل أن يقبضه الله إليه.

فأنتم في الناس أكثر من أولئك في أهل ذلك الزمان من العرب.

فقام إليه رجل آدم طوَّال، فقال: ما أنت كمحمد، ولا نحن كأولئك الذين ذكرت، فلا تكلفنا ما لا طاقة لنا به.

فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: أحسن مسمعاً تحسن إجابة، ثكلتكم الثواكل، ما تزيدونني إلا غماً، هل أخبرتكم أني مثل محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنكم مثل أنصاره؟! وإنما ضربت لكم مثلاً، وأنا أرجو أن تأسَّوا بهم.

ثم قام رجل آخر، فقال: ما أحوج أمير المؤمنين «عليه السلام» ومن معه إلى أصحاب النهروان!

ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا.

فقام رجل، فقال بأعلى صوته: استبان فقد الأشتر على أهل العراق، لو كان حياً لقل اللغط، ولعلم كل امرئ ما يقول.

فقال لهم أمير المؤمنين «عليه السلام»: هبلتكم الهوابل، لأنا أوجب عليكم حقاً من الأشتر، وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم؟! وغضب، فنزل.

فقام حجر بن عدي، وسعد [سعيد] بن قيس، فقالا: لا يسوؤك الله يا أمير المؤمنين، مرنا بأمرك نتبعه، فوالله العظيم ما يعظم جزعنا على أموالنا أن تفرق، [نفدت]، ولا على عشائرنا أن تقتل في طاعتك.

فقال لهم «عليه السلام»: تجهزوا للسير إلى عدونا.

ثم دخل منزله «عليه السلام» ودخل عليه وجوه أصحابه، فقال لهم «عليه السلام»: أشيروا علي برجل صليب ناصح، يحشر الناس من السواد؟!

فقال سعد [سعيد] بن قيس: عليك يا أمير المؤمنين بالناصح الأريب، الشجاع الصليب، معقل بن قيس التميمي.

قال: نعم، ثم دعاه فوجهه وسار، ولم يعد حتى أصيب أمير المؤمنين «عليه السلام»(1).

إيضاحات:

ذي أداة وجلادة: كناية عن جامعيته للعدة والقدرة على التحمل.

احرب الأموال: أي أسلبهم إياها.

العقائق: السيوف.

---

(1) الأمالي للطوسي ص173 - 174 والغارات للثقفي ج2 ص477 - 482 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص89 - 90 وبحار الأنوار ج34 ص147- 149 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص122.

الوزعة: آلة الوزع والدفع والمنع.

ديث: ذُلِّل.

الصغار: الهوان.

القماءة: أيضاً بمعنى الصغار.

المسالح: جمع مسلحة وهي المواضع التي يكون فيها أصحاب السلاح لدفع العدو.

الحجل: بالضم والكسر: الخلخال.

القلب: بضم القاف: سوار المرأة.

الرعاث: جمع رعثة، وهي القرط.

الكلم: الجرح.

الترح: الهم والهبوط.

حمارة القيظ: شدة الحر.

صبارة القر: شدة البرد.

الحجال: الحجال جمل حجلة، وهي البيت المزيَّن لأجل العروس.

نغب التهمام: النغب جمع نغبة، بمعنى الجرعة. والتهمام مبالغة في الهم، مثل تلعاب وترداد.

أنفاساً: أي جرعة بعد جرعة.

أشد مراساً: المراس من الممارسة وهي المزاولة والمعالجة.

ذرَّفت: إي زدت.

سيم الخسف: ألزم الخسف، وهو الذل والمشقة، أو النقصان.

منع النصف ـ بالكسر ـ: الإنصاف والعدل. أي منع من الإنتقام والإنتصاف.

حماس الجلاد: الملازمون للمضاربة بالسيوف.

أحلاس الجِلاد: الملازمون له يقال: كونوا أحلاس بيوتكم: أي الزموها.

السدم: الهم مع أسف وغيظ.

طوَّال: طويل القامة.

هبلتكم الهوابل: ثكلتك الثواكل.

رجل صليب: أي شديد

اختلال في رواية ابن أعثم:

يبدو من رواية ابن أعثم لغارة سفيان بن عوف: أن كميلاً عرف بمجيء سفيان بن عوف للإغارة إلى بلدة «هيت»، وصار قريباً منها. فخلف عليها رجلاً في خمسين فارساً، وخرج يريد خيل الشام بقيادة سفيان. هذا قبل أن تصل إليه.

فلما أبعد عن هيت أغار سفيان بن عوف على أطراف هيت، ولم يتبعه أحد(1).

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج4 ص226 وراجع: تاريخ اليعقوبي ج2 ص196.

مما يعني: أن سفيان قد خالف كميلاً في الطريق.. وتمكن من الإغارة على هيت، ثم سار إلى الأنبار.

مع أن الروايات الأخرى تقول: إن كميلاً لم يخرج للقاء سفيان بن عوف، بل كان كميل قد سار إلى قرقيسيا، لأنه بلغه أنهم يريدون الإغارة عليه في هيت، فأراد أن يبادرهم بالحرب، ويعطل خطتهم..

ويؤيد ذلك: رسالة أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى كميل.

وقد تقدم نقل ذلك عن ابن الأثير وغيره..

لم ير ذلك رأياً:

1 ـ ذكر ابن أعثم غارة الغامدي على هيت والأنبار، ثم قال عن علي «عليه السلام»: «فهمَّ أن يسير إليه بنفسه، ثم إنه لم ير ذلك رأياً، فدعا بسعيد الهمداني، فضم إليه خيلاً إلخ..».

فهنا سؤال يقول: هل يمكن أن يرى علي «عليه السلام» رأياً، ثم يظهر له فساده فيعدل عنه؟!

ونجيب:

أولاً: لا شيء يثبت صحة ما زعموه، من أنه «عليه السلام» قد رأى هذا الرأي صواباً، ثم ظهر له أنه خطأ..

فلعله أظهر لأصحابه أمراً، وكان يضمر غيره لمصلحة رآها في ذلك.

ثانياً: لماذا لا يكون كلا الرأيين صواباً، فالرأي الأول كان

صواباً حين تخاذل الناس عن الخروج، ولم يكن يمكن ترك جيوش معاوية تعيث في الأرض فساداً، وتقوم بإبادة شيعة علي «عليه السلام»، ونهب أموال الناس، وتشريدهم، وحرق بيوتهم. وما إلى ذلك..

ولكن حين أظهر أنه يريد هو الخروج بنفسه، وسار إلى النخيلة، واندفع الناس إلى المسير والتصدي، وتعهدوا بكفايته هذا الأمر، صار خروجه مرجوحاً. وأصبحت المصلحة تقضي بعدم الخروج..

ثالثاً: إننا حتى لو لم ندرك هذا المعنى ولا ذاك، فإن أدلة ثبوت عصمته «عليه السلام» عن الخطأ والسهو، والنسيان، والذنب، ومنها: آية التطهير وغيرها. ودلائل علمه، وتسديد الله تعالى له، وحكمته وسياسته ـ كل ذلك وسواه ـ يمنع من نسبة خطأ الرأي إليه «عليه السلام»، لأنه يصير نقضاً لمعنى العصمة، وتكذيباً للآيات والروايات التي قررت سائر ما ذكرناه..

2 ـ تقدم أيضاً قول ابن أعثم: إنه بعد غارة التنوخي على بني تغلب ظن علي «عليه السلام» أن معاوية لن يغير بعد هذا على البلاد التي في حكم أمير المؤمنين «عليه السلام».

ونقول:

أولاً: لم نجد سبباً لأن يتكون هذا الظن لدى أمير المؤمنين «عليه السلام»، فإنه لم يحدث أمر يحتم على معاوية أن يتوقف عن غاراته..

ثانياً: من الذي قال: إن هذا الظن قد حصل له «عليه السلام»؟!

هل أطلع الله راوي ذلك على الغيب، وكشف عن مكنونات القلوب؟!

ثالثاً: إن دليل عصمته «عليه السلام» يدل على أنه لا يخطئ في ظنه، ولا يتوهم ما لا واقع له..

الإجرام الأموي:

إن أوامر معاوية لسفيان بن عوف، ولسائر قادة الغارات التي كان يرسلها تدل على مدى قسوة هذا الرجل، وعلى تجاهره بالموبقات والجرائم، والآثام إلى حد أنه يأمر قادته، ومنهم سفيان بن عوف، بقتل كل من يصادفهم ممن ليس على مثل رأيه، ونهب أموالهم، وبإحراق منازلهم، وتخريب كل ما يمر به من القرى، وغير ذلك مما لا يقره دين، ولا عقل، ولا وجدان طاهر..

ونحن إنما ذكرنا شطراً من نصوص الغارات لإعطاء الإنطباع العام عن سياسة هذا الرجل وطبائعه، ونظرته للناس، وقيمتهم عنده..

كما أن التعليلات التي كان يذكرها لهؤلاء القادة الأشرار، تبين لنا طرفاً من أساليبه، وطبيعة تفكيره وما كان يسعى إليه.. ولا نريد أن ندخل في تفاصيل ذلك، فإنه يحتاج إلى جهد طويل، وتأليف مستقل..

هل أخطأ كميل؟!:

ذكرت النصوص المتقدمة: أن كميل بن زياد قد ترك البلد الذي ولاه عليه علي «عليه السلام» إلى قرقيسيا، ليهاجم جماعة كانوا بصدد مهاجمته في بلده هيت، فأراد استباق الأمر بتوجيه ضربته

إليهم أولاً..

وقد ذكرت الروايات: أن علياً «عليه السلام» قد انزعج من تصرفه هذا حتى احتاج كميل إلى استجلاب رضاه بعملية عسكرية أخرى، حالفه التوفيق فيها، فأثنى عليه أمير المؤمنين «عليه السلام»، ورضي عنه، وسره فعله..

والسؤال هو: إن كان نفس ترك كميل لموقعه وسيره إلى بلد آخر هو الذي أزعج علياً «عليه السلام»، واستحق الملامة منه، فإنه في المرة الثانية أيضاً قد ترك موقعه، وسافر في مهمة مشابهة.

فلماذا سر علي «عليه السلام» بفعله الثاني بعد أن غضب من فعله الأول، وهما في المآل واحد؟!

وإن كان السبب في الإنزعاج: هو أنه لم يستأذن علياً «عليه السلام» في المرة الأولى..

فالجواب: أنه أيضاً لم يستأذنه في المرة الثانية..

وإن كان السبب في الإنزعاج: أن سفيان بن عوف قد هاجم بلده في المرة الأولى، ولم تتعرض بلده للهجوم في المرة الثانية..

فجوابه: أن سفيان لو علم بتركه مركزه، واستطاع مهاجمته لهاجمه. كما أن كميل بن زياد، لو علم أن أحداً سيهاجم بلده في غيبته لم يغب عنه في المرة الأولى..

ولا يصح ربط اللوم والسخط، والثناء والرضا بأمر مجهول له، صنعته الصدفة، ولم يكن للإختيار دور فيه..

ونجيب:

بأن اللوم في المرة الأولى إنما كان لتركه موضع عمله، واستصحابه جميع حاميته وتركه خالياً، حيث لم يترك منهم فيه سوى خمسين رجلاً..

ولم يحتط لأمر الأعداء، ولم يحسب حساباً لمفاجآتهم، وغاراتهم، ولم يُعْلِمْ أميره بأنه قد ترك بلده من دون حامية تدفع عنها الغارات، فصادف أن جاءها سفيان بن عوف مغيراً، فكان ما كان. وقد فعل كميل مع أنه كان يعلم بأن لمعاوية سوابق في الغارات. ولا سيما غارة الضحاك.

أما في المرة الثانية، فقد احتاط للأمر وأبقى في بلده ست مئة مقاتل، وهم قادرون على الدفاع عن بلدهم لو هوجم، ولديهم فسحة يمكنهم فيها الإستمداد من علي «عليه السلام»، أو من غيره من الجماعات القريبة منهم.. فغيبة كميل في هذه الحال ليست خطأً، بل هي عين الحكمة والتدبير إذا كانت تجلب نصراً..

الحرب الرادعة:

تقدمت دعوات علي «عليه السلام» أصحابه للخروج بأعداد كبيرة لمواجهة غارات خيل معاوية، ولعله «عليه السلام» أراد بمواجهته القوية لغارات معاوية: أن يسدد ضربة رادعة له، تجعله لا يفكر في تكرار هذا الأمر ما دام حياً.

وقد أوضحنا ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب في حديثنا عن

الغارات، وها هو أمير المؤمنين «عليه السلام» يصرح به، ويقول:

«فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا».

أي أنه «عليه السلام» يريد من أصحابه أن يكونوا قادرين على الإيقاع بهم قتلاً وأسراً، بحيث تصبح القوى المهاجمة كلها بين قتيل وجريح وأسير، ولا يفلت منها إلا الشريد..

فلو حصل ذلك مرة واحدة، فإن أحداً لا يجرؤ بعد هذا على الدخول إلى العراق ليشن أية غارة.

وبذلك يكون قد حفظ للناس أمنهم، وحياتهم، وأعراضهم، وأموالهم، لكي يعيشوا بسلام وسكينة، وراحة وسعادة..

وهو أيضاً يوفر على مقاتليه جهداً، فلا يتكبدون بعد هذا أية خسائر، ولا يحتاجون إلى تفريغ الكثير من المقاتلين لحراسة البلاد والعباد في دولة واسعة وشاسعة يصعب مراقبة كل بلد وقرية فيها..

لا تكفون أنفسكم:

وقد قال «عليه السلام» للناس الذين طلبوا منه الرجوع، وقالوا له: «نحن نكفيك»: «ما تكفوني، ولا تكفون أنفسكم، فهل تكفوني غيركم..».

وهذا يدلنا: على أنه «عليه السلام» بعد أن أوضح لهم أن عدم طاعته وهو يدعوهم لمواجهة عدوهم، يستبطن مخاطر كثيرة وكبيرة على حياتهم، وعلى أهلهم، وأموالهم، ومستقبلهم، ودينهم، وأحلامهم،

وكل وجودهم في الدنيا والآخرة..

وبين لهم ذلك عوداً وبدءاً، وبمختلف وسائل البيان، وبأبلغ خطاب، وعاتبهم بأقسى عتاب.. ولم يلتفتوا، ولم ينشطوا، بل لم يتحركوا، بل أمعنوا في العتو، والنفور.

إن من يكون كذلك، ولا يستطيع أن يكفي نفسه ما أهمها، ويدفع عدوه الذي يريد أن ينال من وجوده ودينه، وأهله، وماله، وعرضه.. هل يتوقع منه أن يقوم بمسؤوليات تحقيق رغبات، ومطالب الحاكم والإمام، فضلاً عن أن يتحمل مسؤولية تلبية حاجات الأمة، وكفايتها ما أهمها؟!

والأهم من ذلك: أنهم يقصرون في حق أنفسهم، ويرمون مسؤولية التقصير على إمامهم!! وهم يرتكبون المنكر، ثم ينهونه هو عنه!!

وبذلك يكون «عليه السلام» قد علمنا: أن نستفيد من التجارب والوقائع في فهم الأشخاص وطاقاتهم وقدراتهم، ومدى وفائهم بالتزاماتهم، وأن نستدل على مستويات الأفراد والجماعات، وحالاتهم بمواقفهم العامة، وتصرفاتهم، وحالاتهم، وأوضاعهم الفعلية، ويمكن اتخاذ القرار، وبناء المواقف على هذه النتائج.

فالمعيار للقرارات، والسياسات، والتخطيط للمستقبل هو ملاحظة الوضع القائم، والبناء على أدنى مستوياته، وليس المعيار هو ما ينبغي أن يكون.

كما أن ذلك يعطينا: أنه لا يصح الإعتماد على الكثرات وأحجام الكتل البشرية، كما لا يصح أخذ عينة واحدة منها والقياس عليها، فليس هناك نسبة ثابتة، ولا معيار واحد نجريه في الجميع، وعلى الجميع. بل لا بد من اختبارات عملية واعتماد الحد الأدنى من الحاصل الفعلي للنتائج، لكي لا نفاجأ بحالات الضعف الطارئة، أو الكامنة، التي تم التعويض عنها في تجارب فعلية أو سابقة، بحوافز آنية كانت قد رافقت الحدث، ثم زالت، أو أصابها الضمور، والضعف. بعد أن عادت الحال إلى طبيعتها..

غير أن ذلك لا يمنع من الإستفادة القصوى من هذه المحفزات حين يتم اكتشافها، أو يتم ضخها في الواقع الذي يراد التعاطي معه بصورة، أو بأخرى..

الأمن الشامل:

وقد أمر «عليه السلام» سعيد بن قيس الهمداني أن يلاحق سفيان بن عوف، ليخرجه من أرض العراق كلها..

ولم يكتف بردعه عن النقطة التي كان قد هاجمها.. لأن الإكتفاء بها معناه: أن يشعر ببعض الأمن، وبحرية الحركة في سائر المناطق والبلاد.

وهذا يعطيه الفرصة للقيام بضربات في المواضع التي يحسب أنها مغفول عنها من قبل الحكام، أو أنها غير ذات أهمية بالنسبة إليهم. أو لا يرون أن ما يجري عليها يستحق تحركاً قوياً وواسعاً..

وبذلك يتمكن العدو من إلحاق الأذى في كثير من هذه المناطق الصغيرة، أو البعيدة، بل قد يدخل في سياسته تقدير مستوى الأذى، فيكتفي منه بالقدر الذي لا يحرج النظام، ولا يضطره لردة فعل قوية، واستنفار شامل..

وهذا يؤدي إلى التآكل البطيء، والضعف التدريجي في المناطق التي هي بمثابة الأحزمة الواقية للمناطق الحساسة، ويتم تعرية المناطق الحساسة وتجزئتها، وتفكيك ارتباطها، وإضعاف تماسكها، وإشغال الناس المحيطين بها بالبحث عن الأمن والأمان لهم في مواضع قوة أخرى.. وقد يجدون في ممالأة العدو سبيلاً إلى الحصول على هذا الأمن المفقود..

وخلاصة الأمر: إن الأمن للبلاد كل لا يتجزأ، لأن تجزئته تؤدي إلى إقامة جزر أمنية مكشوفة، لا تستطيع ضمان استمرار واستقرار الأمن لنفسها، لأن فقد الأمن في المحيط الذي حولها معناه: أن العدو قادر على الوصول إليها، وأن يكون في جوارها مترصداً للثغرات فيها باستمرار، وهذا معناه: أنها لا تنعم بالأمن الحقيقي..

على أن الجزر الأمنية هذه ستكون بمثابة دعوة إلى الهجرة إليها من المناطق الفاقدة للأمن، وهذا يؤدي إلى تكدس سكاني قاتل فيها.. وبذلك تختل الحالة الإقتصادية، فضلاً عما يصيب الوضع الإجتماعي العام من آفات واختلالات قاتلة.

ولأجل ذلك قال «عليه السلام» لسعيد بن قيس: «اتبع هذا

الجيش حتى تخرجه من أرض العراق». وقد فعل سعيد ما أمره به أمير المؤمنين «عليه السلام»..

وجعل العدو يعيش الرعب والخوف حتى وهو في الصحراء، كما يعيشه لو كان في مشارف الكوفة عاصمة الخلافة..

هل هي خطبة أم كتاب؟!:

وقد عرفنا فيما تقدم: أن ما عرف بـ: «الخطبة الجهادية» هو كلام كان يفترض أن يخطب به أمير المؤمنين «عليه السلام»، ولكن مرضه الشديد منعه من ذلك، فكتبه، وأمر مولاه بأن يتلوه على الناس بحضوره ليسمع ردهم بنفسه..

فهذا الكلام إذن، خطبة وكتاب في آن واحد..

اسم عامل الأنبار:

وقد اختلفوا في اسم عامل الأنبار الذي استشهد في غارة الغامدي عليها، هل هو حسان [بن حسان] البكري؟![1].

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص67 الخطبة 27 والكامل في الأدب ص29 والكافي ج5 ص5 ومعاني الأخبار ص309 والإصابة ج3 ص106 رقم 3334 ترجمة سفيان بن عوف، والعقد الفريد ج3 ص121 والبيان والتبيين ج3 ص53 والأغاني ج16 ص287 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج2 ص31 ونهج السعادة ج2 ص556 وج5 ص309 و 319 والمستدرك للحاكم ج3 ص446 والغارات للثقفي ج2 ص820 وبحار

أو أشرس بن حسان؟![1].

أو أبو حسان؟![2].

ولعل الاسم حسان، وأشرس لقب.

ولعل اسمه أشرس، وهو ابن حسان، أو أبو حسان.. أو كلاهما معاً..

ولكن بما أن رسم الخط متقارب بين كلمتي أبو وابن، فإن النساخ يشتبهون بين الكلمتين، ويصحفون إحداهما بالأخرى..

ولا يهمنا تحقيق هذا الأمر.

الأنوار ج34 ص65.

(1) الغارات للثقفي ج2 ص469 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص87 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص134 و (ط الأعلمي) ج4 ص103 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص196 والكامل في التاريخ ج2 ص425 و (ط دار صادر) ج3 ص376 وأنساب الأشراف ج3 ص201 و (ط الأعلمي) ص442 ونهج السعادة ج5 ص309 والفتوح لابن أعثم ج4 ص226.

(2) صفين للمنقري ص11 وقاموس الرجال للتستري ج11 ص274 عنه.

الفصل السادس:

الجهاد في خطبة الجهاد..

وقفات مع خطبة الجهاد:

إننا سوف نختار من خطبة الجهاد لمحات يسيرة، في فقرات قصيرة، أو بضع كلمات ذات دلالاتٍ غزيرة، ومعانٍ وفيرة، فنقول:

أبواب الجنة كثيرة:

إن أبواب الجنة كثيرة، منها: باب الجهاد[1]، وباب الرحمة، وباب الصبر، وباب الشكر، وباب البلاء[2].

---

(1) الكافي ج5 ص2 باب فضل الجهاد حديث رقم 2.

(2) بحار الأنوار ج8 ص116 وج81 ص126 والوافي للفيض الكاشاني ج25 ص677 والأمالي للصدوق ص281 ومن لا يحضره الفقيه ج1 ص295 وروضة الواعظين ص504 وشجرة طوبى ج1 ص185 وتفسير نور الثقلين ج4 ص507 وتفسير كنز الدقائق ج11 ص344 والدرجات الرفيعة ص369 و المحجة البيضاء للفيض الكاشاني ج8 ص377.

كما أن الحسين «عليه السلام» باب من أبواب الجنة(1).

وعن علي «عليه السلام»: والله إن للجنة أحداً وسبعين باباً، يدخل من سبعين منها شيعتي وأهل بيتي، ومن باب واحد سائر الناس(2).

وفي الحديث عنهم «عليهم السلام»: إن علياً «عليه السلام» باب من دخله كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً(3).

وتدل الأحاديث أيضاً: على أن الإمام باب لا يؤتى الله إلا منه(4).

---

(1) بحار الأنوار ج35 ص405 ومائة منقبة لابن شاذان ص22 ومستدرك سفينة البحار ج2 ص302 والبرهان (تفسير) ج3 ص232 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج9 ص202 وغاية المرام ج3 ص6 وج14 ص181 وج18 ص423.

(2) الأمالي للطوسي ص369 وبحار الأنوار ج7 ص238 وج8 ص139 وج39 ص198 والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص515 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج3 ص143.

(3) الكافي ج2 ص388 وبحار الأنوار ج40 ص97 وج75 ص112 وج43 ص351 والوافي للفيض الكاشاني ج4 ص191 وكتاب سليم بن قيس ص384 ومرآة العقول ج11 ص122 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص434 وإرشاد القلوب ج1 ص179 وكشف الغمة ج2 ص195 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج9 ص374 والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص190 ونفس الرحمن في فضائل سلمان ص524.

(4) بحار الأنوار ج38 ص98 وج40 ص55 و 97 و 207 وج24 ص194

الجهاد الأكبر والأصغر:

عن الإمام الصادق «عليه السلام»: إن النبي «صلى الله عليه وآله» بعث بسرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر.

قيل: يا رسول الله! وما الجهاد الأكبر؟!

قال «صلى الله عليه وآله»: جهاد النفس(1).

و197 وج26 ص246 و 248 و 260 و 263 وج97 ص305 وج99 ص86 وج50 ص25 وج51 ص50 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص434 وشواهد التنزيل للحسكاني ج1 ص76 وبشارة المصطفى ص65 وغاية المرام ج1 ص247 و 301 وراجع: الإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص46 وإرشاد القلوب ج2 ص255 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج5 ص320 وينابيع المعاجز ص121 و 123 وحلية الأبرار ج2 ص403 ومرآة العقول ج2 ص367 و 372 ونور الثقلين ج3 ص43 وكنز الدقائق ج4 ص475 وج7 ص188 وج8 ص309 .

(1) الأمالي للصدوق ص553 ومعاني الأخبار ص160 والكافي ج5 ص12 والإختصاص ص240 والنوادر للراوندي ص141 وروضة الواعظين ص420 وبحار الأنوار ج19 ص182وج67 ص65 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج15 ص161 و 163 و (الإسلامية) ج11 ص122 و 124 ومستدرك الوسائل ج11 ص137 ومشكاة الأنوار ص431 ومحاسبة النفس ص10 والفصول المهمة للحر العاملي ج2 ص214 ومستدرك سفينة البحار ج2 ص142 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج2

وباب الجنة هو الجهاد الأكبر، أما الجهاد الأصغر، فيحتاج في أحيان كثيرة، لكي يكون باباً للجنة، إلى الجهاد الأكبر.. أي أن الجهاد المتمثل بالقتال، قد يكون طمعاً بشيء من حطام الدنيا، وقد يصاحبه الرياء. وقد يلحق به ما يحبطه..

وربما استغنى الأصغر عن الأكبر، كما هذا الأصغر لو كان دفاعاً عن الدين، وكان المجاهد في أول سن التكليف، أو في أول التشرف بالدخول في دين الإسلام، كذلك الرجل الذي أسلم، ثم استشهد في غزوة أحد فور إسلامه، وقبل أن يسجد لله سجدة واحدة..

لماذا كان هذا هو الجهاد الأكبر؟!:

ذكرنا بعض ما يرتبط بالجهاد الأكبر والأصغر في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله». وقلنا: لعل السبب في أن جهاد النفس هو الأكبر دون العكس: أن الإنسان لا يلتفت، ولا يصدق ـ غالباً ـ أن نفسه التي بين جنبيه هي التي يجب عليه أن يصدها، ويواجهها بما لا يروق لها، لأنها أمارة بالسوء، وتسعى للهيمنة عليه، وجره إلى المهالك. ولو صدق ذلك، فهي عدو محبوب له، أثير عنده، بل هي أعز ما في الوجود عليه.

أما عدوه الخارجي، فما أسرع ما يدرك عداوته، وما أسهل أن يحاربه، وهو يحسم الأمر معه في معركة واحدة أحياناً، ويتخلص منه

ص407 وج11 ص411 وميزان الحكمة ج1 ص453.

إلى الأبد.

وحتى لو واجه نفسه بالحرب مرة، أو ساعة، أو أقل، أو أكثر، فإنه سيعود إلى غفلته عنها، والإنسياق معها.. فهي عدو ليس كسائر الأعداء، لأنك لا تستطيع التخلص منها، وإن استطعت أن تحد من نشاطها..

وحتى حينما تتصدى لها، فإنك لا تقسو عليها قسوتك على عدوك الغريب عنك، لأنها حبيبة إليك، وأثيرة لديك.. كما قلنا.

الجهاد هو باب الجنة، وليس الموت:

1 ـ ثم إن الحرب ما هي إلا نشاط مادي، يمارسه الناس بوسائلهم في أحداث قتل وجرح، وهدم، وإظهار قوة، وفرض هيمنة وما إلى ذلك.. فإذا انضم إلى ذلك قصد التقرب إلى الله، وإخلاص النية صارت الحرب عبادة وجهاداً، وباباً يوصل إلى الجنة، وإلى الله ورضوانه..

2 ـ فالجهاد باب ينفتح أمام الإنسان ليسفر له عن طريق لاحب ممهد، يسلكه المجاهد في رحلته من عالم المادة والشهوات والأهواء، والدنيا ولذة الجسد إلى عالم أرقى وأسمى من هذا كله، وهو عالم المعنى، واللذة الروحية، عالم يعيش فيه نعيم القرب والتلذذ بالرضا الإلهي، وبمنازل الكرامة التي تحمل معها لذات الجسد في أرقى حالاتها، وأوفاها وأسناها..

فالمجاهد ينتقل على جناح هذا الجهاد الأصغر والأكبر من عالم

محجوب بالماديات والشهوات التي تحد من مستوى إحساسه وحضوره، وإدراكه، ليستقر في جنان القرب والرضا الإلهي حيث تنكشف له الحقائق، ويرى بعين البصيرة والمشاهدة والإحساس والتلذذ المباشر بلذائذ كانت محجوبة عنه بالشهوات والمعاصي، والآثام، فلا يراها، ولا يتذوقها، أو يحس بها قبل هذا الجهاد..

3 - فظهر بهذا البيان: أن الخاصة من أولياء الله إنما ينالون هذه الدرجات بنفس عملهم الجهادي الأصغر، المتمازج مع الجهاد الأكبر ـ وهذا الجهاد هو المراد بالباب الذي يوصل من يبقى حياً إلى هذه الدرجات، وينقل من يستشهد في ساحات الجهاد الأصغر إلى حياة الشهداء عند ربهم.

وليس الموت قتيلاً في الحرب هو الباب للجنة كما قد يتوهم..

4 - وخواص الأولياء هم الذين يتمكنون من خوض غمار هذا الجهاد، الذي يحتاج إلى جهد وعناء في التصفية والتزكية، ثم توطين النفس على البذل والعطاء والتضحية حين يقتضي الأمر ذلك.

أما غير الخاصة، فإنهم لا يستطيعون ذلك، لأن شهواتهم تشدهم إلى الدنيا، وتزيد من تعلقهم بها، وركونهم إليها، ولكن حبهم للدنيا لا يمنع من أن يكون كل واحد منهم قادراً على أن يكون مقاتلاً، ثم أن يصبح قتيلاً.

لباس التقوى:

وقد قال «عليه السلام» عن الجهاد، وهو لباس التقوى.

ويبدو: أن هذا إشارة لقوله تعالى: **(يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)**(1).

فإن وظيفة اللباس المادي للجسد هي ستر ما لا يحسن ظهوره للناس، إما لأنه عورة، أو لأنه قبيح المنظر.

كما أنه يقي الإنسان من الحر والبرد، وهو زينة، وجمال، وبهاء..

ويفترض بالتقوى أن تقوم بهذه الوظائف بالذات بالنسبة لباطن الإنسان، فهي جمال وزينة لروح الإنسان، وهي بهاء، ورواء، وهي تقي الإنسان من أنواع كثيرة من الأذايا التي يتعرض لها.. كما أنها في نفس الوقت تخفي قبائح الأخلاق، ومعايب الخصال، وشنيع الأفعال..

والجهاد الحقيقي بما فيه الأكبر والأصغر إذا تجلبب به الإنسان المؤمن، فإنه أيضاً يمنع عنه أذى الشيطان، وعدوان أهل البغي والطغيان، وكل أذى يأتيه من كل جهة، ومن أي مصدر كان. كما أنه يستر كل عيب فيه.. ومن كل عاهة ومكروه ينجيه، أو يقيه.

والتقوى مأخوذة من الوقاية التي أشير إليها في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ**

---

(1) الآية 26 من سورة الأعراف.

وَالْحِجَارَةُ)(1).

وهي تحتاج إلى معرفة كل الأمور التي يمكن أن يكون له أي اتصال، أو ابتلاء بها.. مهما كان نوع هذا الإتصال، وفي أي مستوى كان.. وما أكثر هذه الأمور التي تعني الإنسان في هذه الحياة، فإنها لا تكاد يمكن إحصاؤها، وهي في الأرض وفي السماء، وفي الماء والهواء، وفي داخل الإنسان وخارجه، وقد يقضي معظم عمره، ولا يتمكن من الإلمام بجزء يسير مما هو قريب ومعلن وظاهر منها.

أما الخفي والباطن، فذلك مما يستحيل عده، أو حصره، وأكثره مما يتعذر له الوصول إليه، والوقوف عليه، بل يحتاج إلى تعليم وتفهيم..

وبعد هذه المعرفة الظاهرية والإحصائية يحتاج إلى خبرة عميقة ودقيقة، وكثير منه يحتاج إلى دراسات مضنية، بل إلى أن يؤخذ من مصادر الوحي، وهم الأنبياء، ثم من أوصيائهم المنصوص عليهم، أو من المتصلين بهم، والآخذين عنهم..

وبعض ما يحتاج إلى الجهاد الأكبر والأصغر في دفعه يحتاج إلى صلابة، كبيرة وهائلة، في العزيمة، وفي الموقف، وفي التصميم، وإلى تجذر هائل، وتعمق في حقائق الدين والإيمان، وإلى دروع حصينة، وجنن منيعة وصلبة قادرة على مقاومة الهجمات على

(1) الآية 6 من سورة التحريم.

الروح، وعلى النفس، وعلى الفكر، والعقل، وعلى الأخلاق، وعلى القيم، وعلى الصفات والسمات، وعلى الميزات، وتحتاج إلى إعداد قوى تمنع وتدفع شياطين الجن والإنس، وفراعنتهم وجبابرتهم على قاعدة: **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)**(1).

الجهاد درع الله وجنته:

يلاحظ هنا أمران:

الأول: إنه «عليه السلام» قد نسب الدرع والجُنَّة ـ بضم الجيم ـ إلى الله سبحانه، لأنهما إنما يحصنان الإنسان من كل الأذايا، من خلال استعانة المجاهد به تعالى، ولجوئه إليه، واعتصامه واستمداده القوة والثبات منه.

ثانياً: إنه «عليه السلام» قد اعتبر الجهاد بجميع مجالاته، ومظاهره عملاً دفاعياً، لأنه لباس ووقاية، ساتر للعورات والقبائح، وهو مانع، وهو درع، وهو جُنَّة ـ والجُنَّة: هي كل ما يظلل به المرء نفسه، ليمنع من تأثير وقع السلاح ـ ويطلب بالجهاد الحصانة، والوقاية من كل عدو، من داخل الإنسان وخارجه.

وحتى حين يكون الجهاد إبتدائياً، فإنما الهدف منه رد كيد العدو

---

(1) الآية 60 من سورة الأنفال.

الذي يخطط ويدبر، ويجمع القوى ويرصد الفرص، والغفلات لإيراد ضرباته الساحقة، والماحقة، أو يراد به رفع ظلم، جاثم تكرس كأمر واقع في هجوم سابق من عدو آثم وظالم..

فهو في حقيقته ومآله هجوم دفاعي، وليس لأجل التوسع، وبسط النفوذ والسيطرة..

ولا يراد به فرض الإسلام على الناس بقوة السيف، فإن في الإسلام من قوة الحجة، وصحة المنطق ما يغنيه عن فرض الرأي بالقوة والقهر.. لا سيما وأن الإسلام ينطلق من قاعدة: **(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ..)**(1).

فإن إيمان الناس لا ينال بالقوة، بل ينال بالدليل والحجة، ولذا قال تعالى بعد هذا: **(..قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**(2).

أي أن ظهور الرشد من الغي بواسطة الحجة، يجعل أمام الطرف الآخر خياراً واحداً، وهو اتباع الحجة، والكفر بالطاغوت، أو اللجوء إلى البغي والطغيان، والعناد والجحود. والسعي على إطفاء نور الله بالقهر، وبالنشاط التضليلي، والكيد الإعلامي، فيجب على أهل

---

(1) جزء الآية 256 من سورة البقرة.

(2) جزء الآية 256 من سورة البقرة.

الإيمان منعهم من ذلك.. فإن طغى وبغى، ومارس الظلم والعدوان على عقول الناس، وعلى فكرهم وإيمانهم، فلا بد من الدفاع عن المستضعفين، ووضع حد لهذا العدوان، وهذا هو ما يوجبه الضمير الإنساني والعقل الرحماني، والشرع الرباني..

آثار ترك الجهاد:

وقد أشار «عليه السلام» إلى آثار ترك الجهاد من دون عذر سوى الكراهة له، والرغبة عنه.. فذكر «عليه السلام»:

1 - إن ذلك من موجبات استبدال ذلك اللباس اللائق، والمهيب، والذي يؤكد معنى العزة والكرامة، ويستر العيوب والقبائح، ويظهر كل جميل ومقبول بلباس الذل، لأنه يمكن عدوه منه ليملي عليه إرادته، ويذله، ويسقط هيبته وعزته..

2 - إن ذلك من موجبات تواتر المصائب والبلايا عليه، لأنه يكون قد ألقى سلاحه، وأعطى عدوه الفرصة لهتك الحرمات، واستلاب الحقوق، والوقوع تحت وطأة متطلبات الحياة، حيث لا يجد من يعينه، بل الجميع يعين عليه، وحيث يستأثر الناس بالفرص، وتفوته، حتى لا يكاد يجد قوته.. وهو يراقب من بعيد، ويتجرع الغصص.. وبعد أن أهدر جميع الفرص.

3 - أن يديَّث بالصغار، أي الترويض بالتعرض لعمليات تذله وتصغره، مرة بعد أخرى.

4 - إنه يفقد مواقعه الواحد تلو الآخر، ويتضاءل أمره، ويذهب

عزه، وتسلب منه منازل الكرامة والسؤدد، حتى يعود ضئيلاً، ومهان الجانب، وتستقر حاله على هذا النحو.

5 - أن يضرب على قلبه بالإسهاب. والإسهاب ذهاب العقل من لدغ الحية، أو نحو ذلك.. ولا يستساغ القول ضرب على قلبه بفناء عقله.

وفي نص آخر: «بالأسداد»، وهو الصحيح، لأنه وصف بها القلب، وليس العقل. ويصح أن يقال: ضربت السدود على القلوب، لكي لا تفقه ما ما يجري. كما يقال: ضربت عليه الأرض بالأسداد: أي سدت عليه الطرق، وعميت عليه المذاهب.

فإن هذا الواقع ينتهي إليه الإنسان بسبب تركه للجهاد، الأمر الذي يجعله عاجزاً عن التصرف، ويصاب بعمى القلب..

6 - وأديل الحق منه: فإنه بفعله يكون قد ضيع الحق، وألحق به ضرراً عظيماً، وأطمع به الأشرار، ومكن منه الفجار، فينتقم للحق منه، لأنه ظلمه، وأضرَّ به، فيعاقب على فعله هذا بما يستحقه.

7 - أن يسام الخسف. فيتبلى بمن يعرضه للدمار، والذهاب، والبطلان. وأحسب أن في هذا التعبير إلماحة إلى أنه يحاول أن يبرم معه صفقة لتحديد مقدار الذل الذي يريد إلحاقه به، فهو يساومه على سلب عزه، والقضاء عليه، وتدمير كيانه، وإبطاله ومحوه كما ينمحي النور من النيرات بالخسف.

وبلوغ الأمر بالإنسان إلى هذا الحد يعني: أن موته خير له من

حياته، لأن موته وله شيء من الكرامة والعزة خير من الزوال والإنقراض على حال من الهوان والذلة، فكيف إذا فرض عليه الدخول في مساومة على ما تبقى له من كرامة وعزة، إن كان قد تبقى له شيء من ذلك..

8 ـ أن يمنع النصف، فهو يطلب أن يُعطاه، فلا يجاب، وهذا أشد وأقسى ما يواجهه الإنسان في حياته، وأي ذل أعظم من أن يفقد حقه بالمعاملة بالعدل، وتصير معاملته بالعدل محرمة وقبيحة، مع أن العدل لا يمكن إلا أن يكون حسناً، فصيرورته قبيحاً معه يدل على أنه قد فقد صفة البشرية من الأساس، بل صار يعامل كما تعامل الحية والعقرب، بل إن للحية وللعقرب حقوقاً جعلها الشرع الشريف لها، مثل أنه لا يجوز إحراقها بالنار. أما هو فليس له حتى مثل هذا الحق..

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» اقتصر في ذكره لسلبيات ترك الجهاد على آثاره السلبية على الفرد، وفي خصوص ما تأباه الطباع، وتنفر منه النفوس، ويرفضه الوجدان. ولا ينسجم مع الفطرة، ولا مع العيش الكريم في الدنيا..

ربما لأن من يترك الجهاد زهداً فيه لا يتركه إلا طمعاً في الحصول على الدنيا ولذائذها.. ولا يلتفت إلى ما عداها..

ولذلك ركز «عليه السلام» على بيان أن ما يترك الجهاد لأجله هو الذي سوف يخسره خسراناً مبيناً وهائلاً، ولا يطاق في هذه الحياة الدنيا..

ولأجل ذلك لم يشر «عليه السلام» إلى خزي وعذاب تارك الجهاد في الآخرة، والمصائب والبلايا التي سوف يتعرض لها في تلك الدار، مع أنها الأمرّ والأدهى.

كما أنه لم يشر إلى ما سيصيب الدين، والأخلاق والقيم، بسبب ترك الجهاد.. ولا إلى ما ستؤول إليه حال الأمم، ولا إلى الكوارث التي ستنزل بها. ربما لأنه يعلم أن من يترك الجهاد زهداً به ورغبة عنه، لا تحركه لغة الخسائر الأخروية، وما يصيب الدين والأمة.. فلا يؤثر فيه ما ستؤول إليه الأمور فيها.. كما هو ظاهر..

ما الرابط بين هذين عند علي ×؟!:

وتقدم: أنه «عليه السلام» يعنف أصحابه بأمرين متباعدين بحسب الظاهر، ولكن التأمل يعطي أن بينهما ارتباطاً وثيقاً.

وهذان الأمران هما:

1 ـ إزالة خيلهم عن مسالحها..

2 ـ ما جرى على المرأة المسلمة والمعاهدة..

والإرتباط بينهما واضح، فإن المفروض بالإنسان أن يهتم بكرامته، وشهامته، ونبله، وسؤدده، فلا يرضى بالمساس بها بأي حال..

لأنه يرى: أن هذه الأمور هي عنوان وجوده، وقوام كيانه، وأهم مظهر عملي لهذه الأمور هو صيانة العرض، والغيرة عليه.

والرجولة، والعزة، والشجاعة، والمنعة، والهيبة، والشعور بالأمن، ورعاية حقوقه، وحفظ نفسه وماله من العدوان..

ولذلك يلاحظ: أن أعظم شتم يؤثر في الإنسان، ويثير حفيظته هو اتهامه بالتفريط بالعرض، وبفقده معنى الكرامة والعزة، ولذا ترى: أن أية خصومة تحصل، فإن ما يؤججها هو الشتائم اللسانية التي تدل على فقدانه لهذه المعاني، فيكون ذلك أشد عليه من ضرب السيوف، ويهوّن عليه لقاء الحتوف. ولذا تراه يتعمد ذكر نقائصه وقبائحه ومعايبه، أو يسبغ عليه أوصافاً مهينة تصغِّر من شأنه، كالكلب، أو البهيمة، أو البعوضة، ونحو ذلك.. أو كلمات تطعن في عرضه، كأن يذكر أمه، أو أخته، أو غيرهما ممن ينسب إليه، بما يدل على انتهاك حرمتها..

كما أن مما يثير الحفيظة أيضاً: أن يوصف بالجبن والضعف، وذهاب الحرمة، وسقوط العزة..

والتجسيد الأتم لهذه الأحوال هو الهزيمة في ميدان القتال، والجبن أمام الأبطال..

فكيف إذا تجلى الضعف بسقوط الحصون، وفقدان الأمن، وتمكين عدوه منه، وزوال الموانع أمام العدو من انتهاك كرامته، والتفنن في إذلاله، وفي استلاب حقوقه؟!

فإذا أضيف إلى ذلك انتهاك حرمات النساء، والدخول إلى البيوت لسلب الأم والأخت، والزوجة والبنت، والجارة، حجلها وسوارها

وقرطها، ورعاثها، وقلائدها.. فتلك هي غاية المهانة، ومنتهى الذل والصغار، وفقدان الكرامة والشهامة..

فإزالة المسالح عن مواضعها معناه: فتح الأبواب، وتمهيد السبل للعدو للإغارة على البيوت، وهتك الحرمات إلى أقصى الحدود.. وما وراء عبادان قرية.

قيمة المرأة.. حتى المرأة المعاهدة:

إننا نشير هنا إلى ما يلي:

1 - إن ما قاله «عليه السلام» عن موقفه مما يجري على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، يدلنا على قيمة الإنسان في الإسلام، وعلى أن نفس كونه بشراً وإنساناً يعطيه قيمة بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى، أو كونه عالماً أو جاهلاً، أو أباً، أو جاراً، بعيداً أو قريباً.. ويدل على ذلك قوله تعالى: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)**[1]. وقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)**[2].

2 - صرح «عليه السلام» بأن الموقف الذي اتخذه مما يجري

---

(1) الآية 70 من سورة الإسراء.

(2) الآية 13 من سورة الحجرات.

على المرأة، لا يختص به كحاكم، بل قال: إن هذا هو ما ينبغي لكل امرئ مسلم.

3 ـ إنما خص المسلم لأنه هو من يتوقع منه أن يموت أسفاً مما يجري، لأن المسلم هو الذي كملت فيه ميزاته الإنسانية، وصحت مشاعره، وصدق في أحاسيسه، فهو يتفاعل مع الأمور بكل وجوده، ويتعامل معها بصدق، وطهر، وليس تعاملاً مصلحياً ولا تجارياً، ولا مصطنعاً، لأن الإسلام جعله إنساناً سوياً ومتوازناً، يزن مواقفه وحركته بموازين عدل وصدق، قائمة على الحجج والبينات والدلائل، زوده الله تعالى بها من خلال أنبيائه.. فقد قال: (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**)(1).

فدلت هذه الآية على:

ألف: أن الحجج والبينات هي الأساس والمرجع، ومنها المنطلق.

ب: إن المعايير والموازين التي ينطلق منها العدل تحتاج إلى تعليم وبيان إلهي.. وأن الله تعالى قد علَّم وبيَّن، وأنزل ما يحتاج إليه الناس من ذلك على يد النبيين..

ج: إن العدل لا يقوم بفعل تكويني إلهي قاهر، قوامه الجبر

---

(1) الآية 25 من سورة الحديد.

الإلهي.. بل الناس هم الذين يقومون بالعدل..

د: إن قيام العدل لا يكفي، بل لا بد له من قوة تحميه، حتى لا يسقط بعد قيامه تحت ضربات البغاة والطغاة الذين سيحاربونه، لأنهم لا يطيقونه..

هـ: إن الله تعالى كما أنزل الكتاب مع الأنبياء ليستفيد منها الناس سنن العدل ومعاييره، فإنه أنزل مع النبيين أيضاً الحديد الذي يعين على إشاعة العدل وقيامه، وترسيخه وبقائه واستمراره. وهو الذي يحميه، بما يمثله من قوة وبأس شديد..

و: إن على الناس أن يستفيدوا من هذا الحديد باستعماله في نصرة أطروحة العدل الإلهية، وفي حفظها.

ز: إن الرسل هم الذين يتولون القيادة والإشراف على تطبيق العدل، وليس الناس. وهم الذين يتعرضون لتحدي الطغاة، وأصحاب الأهواء بما يمثلونه ويحملونه من أطروحة إلهية وبينات. وهم الذين يحتاجون إلى نصرة الناس لهم باستعمال الحديد، الذي فيه بأس شديد.

ح: يجب على الناس نصر الأنبياء في حياتهم، وبعد وفاتهم، وفي حال حضورهم وغيابهم الظاهري عنهم، فإن موتهم لا يمنع من شهادتهم على الخلق من عالمهم الذي هم فيه..

ط: إن نصرة الناس لله، لا تعني حاجته إليهم، ولا ضعفه عن مواجهة الطغاة، بل هو قوي عزيز. ولكنه حين أوكل إليهم هذه المهمة، قد تفضل عليهم، وشرفهم، وكرمهم بها.. وراعى بذلك

صلاحهم، وإصلاحهم.

4 - إنه «عليه السلام» لم يفرق بين مسلمة ومعاهدة، لأن القدر الجامع بينهما، والأساس لحرمة التعدي والظلم لهما، هو نفس بشريتهما، وأنهما نظراء في الخلق، وقد قال «عليه السلام»: «ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق..»**(1)**.

5 - إنه «عليه السلام» لم يميز بين المسلمة والمعاهدة ما دام أن منشأ الحق، وهو المساواة في الخلق واحداً..

فإن منشأ بعض الحقوق قد يكون خصوصية زائدة على أصل المشاركة في الخلق ككونه عالماً، أو مسلماً، أو أباً، أو غير ذلك.. فإن لهذه الخصوصيات حقوقاً تناسبها.. وليس العدل إلا إيصال الحق إلى صاحبه، أو حرمانه منه بغض النظر عن المنشأ لذلك الحق.

وفي المرأة المسلمة والمعاهدة هناك مشاركة في الخلق.. الذي هو منشأ حقوق، يجب على الجميع مراعاتها، ولأجل ذلك: أطلق موقفاً واحداً طالب «عليه السلام» فيه كل مسلم بموقف واحد جازم

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص84 الكتاب رقم 53 الفقرة رقم9 وتحف العقول ص127 ومستدرك الوسائل ج13 ص161 وبحار الأنوار ج33 ص600 وج74 ص241 والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص679 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج4 ص235 ونهج السعادة ج5 ص60 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج17 ص32.

وحاسم تجاه الظلم الذي حاق بالمسلمة والمعاهدة، وأراد أن يكون له نفس القوة، والفعالية والتأثير في رفع الظلامة عنهما من غير تمييز..

6 - إنه «عليه السلام» اعتمد في تحريك المسلمين إلى نصرة هاتين المرأتين المظلومتين الأسلوب العاطفي المثير للمشاعر، وهو يتحدث عن سلب الحجل، والقلب، والرعاث، والقلائد..

7 - إنه اعتبر ما يجري على المسلمة والمعاهدة على حد سواء سبباً كافياً ليس فقط للتضحية بالنفس أو للمبادرة إلى المعونة، بل هو يكفي لأن يؤدي بسامع أخبار ما جرى إلى الموت من الأسف، بل لم يكتف بعدم لومه لو اتفق الموت بسبب ذلك، وإنما اعتبر أن من الفظاعة والشناعة، بحيث يصير الموت هو الحدث الطبيعي اللائق، والجدير، الذي ينبغي أن يحصل..

8 - إن هذا التوقع، ورفع مستوى بشاعة هذا الظلم إلى هذا الحد من شأنه أن يرفع من مستوى الشعور الإنساني، ويزيد من حرارة وحيوية وتأثير هذا الأمر في وجدان الإنسان، وفي أحاسيسه ومشاعره. ويؤكد وبعمق معنى الإنسانية فيه، وينمي مزاياه، وخصاله النبيلة، وخصائصه الرفيعة، فيحيا وجدانه، وتتبلور مشاعره، وتزكو نفسه، ويصفو به جوهره..

9 - إنه «عليه السلام» لم يستثن نفسه، وهو القمة، وجوهرة تاج هذه الأمة من الموت أسفاً. مع أنه هو نفس رسول الله «صلى الله عليه وآله» بنص آية المباهلة. إنه هو أيضاً جدير بالموت أسفاً ولو كان

الضحية إمرأة. مع أن ذلك المجتمع كان لا يعترف للمرأة حتى بحق الحياة، فكان الرجل يدفن ابنته وهي حية حتى لا تأكل من طعامه.

وهذا أفضل الخلق يعطي للمرأة هذه القيمة التي لا تجارى، يرى أنه جدير بأن يموت أسفاً لمجرد أن امرأة أخذ منها حجلها، ولو كانت الإمرأة التي يموت من أجلها، وهو أعظم البشر مقاماً عند الله، جاهلة، أو حتى لو لم تكن مسلمة أصلاً.. بل حتى لو كانت محاربة للمسلمين، وقد أُوْقِفَتِ الحرب بناء على معاهدة مع قومها.. وربما كانت أو كان أبناؤها، أو إخوتها، أو أقاربها، قد قتلوا مسلماً(1)، وربما يقتلون مسلمين في المستقبل، بعد انقضاء أمد العهد والعودة إلى الحرب في المستقبل..

مع أن المعاهدة لا تعني أنه يجب على المسلمين حمايتها إذا دخلت بلادهم في تجارة، أو زيارة، أو لأي غرض آخر..

ولكن علياً «عليه السلام» الإنسان الإلهي، لا يرضى بالعدوان والظلم أن يقع حتى على عدوه إذا كان معه في عهد مؤقت.. لأن الظلم يتناقض مع فطرته ووجدانه، ومع عقله ومشاعره، ومع قيمه ودينه، وكل شيء في هذا الوجود..

---

(1) ولو كان بحجم الحمزة أسد الله وأسد رسوله «صلى الله عليه وآله» الذي قتله وحشي، ثم تظاهر بالإسلام، وجاء إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلم يزد الرسول «صلى الله عليه وآله» على أن قال له: غيِّب وجهك عني.

10 - إنه «عليه السلام» قد أعلن أن دماء من ظلم تلك المرأة المسلمة والمعاهدة مهدورة، ولا حرمة لها، بل يجب السعي والجد والإجتهاد للإنتقام من ظالمها، وردعه عن ظلمه، ولزوم إهراق دمه بقتله، أو جرحه..

ولم ير «عليه السلام» أن القسوة على هذا المعتدي والظالم متنافرة مع تلك الرقة على المرأة المسلوب حجلها، وقرطها، وقلائدها.. بل رأى هذه القسوة امتداداً لتلك الرقة، وتجسيداً ونتاجاً وثمرة لها..

11 - ولعلك تقول: إن سلب هذه الأشياء: الحجل، والقلب، والقلائد من امرأة ضعيفة لا يستحق أن يرعف مسلم من الأسف، فضلاً عن أن يموت، فإن ما جرى كان أمراً بسيطاً للغاية، لأن المرأة المسلمة، وتلك المعاهدة لم تقتل، ولم تجرح، ولم يعتد عليها في كرامتها وعرضها، فلماذا يقتل سالبها؟! (وهو مسلم) ولماذا يموت من الأسف سامع خبر ما جرى عليها؟!

فضلاً عن أن يكون الميت هو إمام المسلمين، وسيد الوصيين، وقائد الغر المحجلين؟!

ونجيب:

بأن العقوبة لا تقدر بآثار العدوان المادية، وقيمة الخسائر في سوق البيع والشراء، بل تقدر بالروح التي تكمن وراء العدوان، وما تعبر عنه من قباحة وشناعة وتشويه في الروح والفطرة والوجدان،

وانحراف في الفكر والإيمان، وجرأة على حرمات الله سبحانه..

فمثلاً ساب الرسول «صلى الله عليه وآله» يقتل. وقاتل المسلم يقتل. وأين القتل من السب في أثره المادي الظاهر.. فإن السب هو مجرد صدى حروف يذهب في الهواء، والقتل أعظم من ذلك بكثير.

ولكن حين ننظر إلى الأمر بمنظار العقل والبصيرة ندرك أن سب الرسول «صلى الله عليه وآله» ـ والعياذ بالله ـ هو الأعظم والأبشع، والأقبح والأشنع.. لأنه عدوان مباشر على الله، وعلى كل الأقداس.. فضلاً عما ينشأ عن هذا السبب من فساد وإفساد في البلاد، والعباد لا يقاس به شيء.

وهذا يجعلنا نفهم بعمق بعضاً من المعنى الدقيق الذي أشير إليه في قوله تعالى: **(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)**(1).

ولهذا البحث مجال آخر.

12 ـ ثم إننا نراه «عليه السلام» يتابع وصفه التحريضي لحال المرأتين المسلوبتين، حيث يقول: «ما تمتنع منه إلا بالإسترجاع، والإسترحام»، ليذكر الناس: بأن امتناع المرأة من عدوها إنما يكون بنجدة أصحاب الحمية لها، لا بالتضرع إلى العدو ليرحمها، ويشفق عليها. وإذا بلغ الأمر بها إلى حد يدعو إلى رحمة العدو السالب لها،

---

(1) الآية 32 من سورة المائدة.

والمعتدي عليها، فكيف لا يتحرك لنصرتها أهلها وذووها، وأصحاب الغيرة عليها، والحمية لها؟!

وإذا كانت لا تجد ملجأ تطلب منه العون إلا الله، فتعود إليه وتقول: (**إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**)[1]. فأين عنها المدعون أنهم أنصار الله، ومطيعون لأوامره؟!

13 ـ واللافت هنا: زعم بعضهم، كالمعتزلي: أن المراد بالإسترحام هو أن تناشد المرأة سالبها بالرحم الذي بينها وبينه[2]. أي أن يرأف بها رعاية للرحم التي بينهما.

وهذا غير صحيح، إذ لا رحم بين أهل الأنبار، وبين الغزاة الآتين من بلاد الشام..

14 ـ وأخيراً.. فإنه «عليه السلام» يؤكد لنا بكلماته في هذا المورد على أمور كثيرة مثل:

ألف: مبدأ نصرة الضعيف، والمظلوم، الذي هو من الأوليات الفطرية، ومن الأمور الوجدانية التي يفرضها الضمير الإنساني..

ب: تركيز معنى الغيرة والحمية، بمعناها الإيجابي البنَّاء في نفوس الناس.

ج: عدم التفريق بين الناس، المسلمين وغيرهم، إذا كان منشأ

---

(1) الآية 156 من سورة البقرة.

(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص78.

الحق واحداً.

د: عدم التواكل في رد العدوان، فلا يرمي هذا مسؤولية الدفاع على ذاك، والعكس، بل يقوم كل امرئ بما يجب عليه..

هـ: أن يهب الإنسان المسلم لنصرة أخيه، فلا يخذله، ولا يتركه لقدره، بل ينجده، ويعينه، فإنه إن خذله، فليتوقع أن يخذله الآخرون حين يتعرض للعدوان..

وهناك أمور أخرى لا مجال للخوض فيها..

الفصل السابع:

شكوى علي × في خطبة الجهاد..
والإختبار العملي..

ما هذا العَجَبُ؟!:

ثم إنه «عليه السلام» قد تعجب من فقد المعايير لدى الناس، سواء في ذلك أهل الشام، وأهل العراق ووقوعهم فيما لا ترضاه العقول. فإن الباطل الصريح الواضح ينفر الناس منه، فما معنى أن يتمسكوا به؟! فضلاً عن أن يجمعوا عليه؟!

كما أن الحق الواضح والصريح من المفترض أن يتعلق الناس به، فما معنى إجماعهم على تركه، والتفرق عنه؟! فكيف إذا كان داعية هذا الحق هو من لم يزل تظهر لهم منه الكرامات ويسمعون منه الإخبار بالغيب، ويعلمون أنه سيد الأوصياء؟! وإمام الأتقياء؟!

وهنا سؤال يقول:

كيف نوفق بين هذا وبين قوله «صلى الله عليه وآله»: لا تجتمع أمتي على ضلالة، فإن هذا من الإجماع على الضلال..

ونجيب:

أولاً: إنهم لم يجمعوا على أمر واحد، بل هما أمران مختلفان،

فأهل العراق تركوا طاعة علي «عليه السلام»، وأهل الشام تمسكوا بطاعة معاوية. فلا أقل من أن هذا يكون من قبيل ما اصطلح عليه أنه الإجماع المركب.

ثانياً: المراد بالإجماع الذي أشار إليه الرسول هو الإجماع على المشروعية، واعتبار الضلال هدى.وليس الإجماع على معصية الأمر الذي يعترف بمشروعيته، وصوابيته.. وأهل العراق الذين أجمعوا على معصية علي «عليه السلام» لا يرون أن معصيته هدى وصواب، بل يرونها خطأً، ولكنهم يطيعون هوى نفوسهم. كما أنه ليس جميع أهل الشام يرون معاوية إمام هدى، وإنما يناصرونه طمعاً أو خوفاً، وقليل هم المعتقدون بصحة نهجه.

العجب المميت للقلب:

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الإتباع للهوى، المخالف لمصالح العباد، والموجب لغضب الله هو الذي جعل علياً «عليه السلام» يتعجب ويتنامى تعجبه «عليه السلام» مما يراه حتى بلغ حد فقدان الأمل بأي صلاح، أو إصلاح.

وهذه الدرجة تؤدي إلى أن يتعطل القلب عن العمل، ويفقد الرغبة في القيام بأي عمل إيجابي، فيصبح كالميت..

ثم تتراكم المشكلات، ولا يجد سبيلاً إلى حل شيء منها، فتتراكم الهموم، ولذلك قال «عليه السلام»: «عجباً ـ والله ـ يميت القلب، ويجلب الهم..».

وربما كان العجب من موجبات حياة القلب بذكر الله تعالى، كما لو رأى بعض الكرامات الربانية، التي تثير العجب الشديد، ولكنها تنعش القلب، وتفرح الروح.

مبدأ المقابلة بالمثل:

وفي قوله «عليه السلام»: «يغار عليكم، ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون»:

أولاً: إغراء بالمقابلة بالمثل، وتقريره له كمبدأ مشروع، ترضاه الفطرة، ويقره العقل، وتدعو إليه الحاجة.

ثانياً: إن هذا المبدأ ضرورة لا بد منها لهم، لحفظ حياتهم، وصيانة كراماتهم، ودفع الشرور والأسواء عنهم.

فما معنى عزوفهم عنه. لا سيما وأنه هو مقتضى الرجولة والحمية، والغيرة والإباء.. فالتخلف عنه تخلف عن مقتضى الطبيعة البشرية، والجبلة الإنسانية..

طلب الراحة في الذل!!:

وقد لام «عليه السلام» أصحابه، لأنهم في الصيف يطلبون تأجيل الحرب إلى الشتاء، وكذلك العكس..

وهذا غير معقول، ولا مقبول، للأسباب التالية:

فأولاً: لا يمكن القبول بحياة الذل والهوان، والصغار طلباً للجمام والراحة، لأنه من قبيل طلب الإنسان أن يضرب مئة جلدة حتى لا

يكلف بنقل ثلاثة أحجار من داخل الدار إلى خارجها.

وتأجيل الحرب إلى الصيف معناه: الرضا بالمذلة والهوان، وبنهب الأموال، وقتل الرجال، وسبي النساء والأطفال، والعيش في الرعب الدائم طيلة هذه الأشهر كلها، خوفاً من أن يتعرض لقليل من البرد، أو المطر، أو التعرض لقليل من الحر أثناء السفر.

ثانياً: إن الحر والبرد كما يتعرض لهما هذا الفريق، فإن الفريق الآخر ليس في منأى عنهما، بل هو الآخر سوف يواجههما بنفس المستوى، ولنفس السبب، وفي الزمان والمكان عينه..

ثالثاً: إن من يهرب من الحر والبرد، ويرضى بالتعرض لكل هذه المصائب والبلايا، ويواجه كسر الهيبة، ومر العيش بالذل والهوان، والخوف الدائم، سيكون أشد خوفاً من سيوف الأعداء.

رابعاً: كيف رضوا بأن يكونوا مصداقاً لقوله تعالى في سورة التوبة: **(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ)**(1).

فإنه إذا كان القتال واجباً إلهياً عليهم، ولا خيار لهم فيه، وهو طاعة لإمامهم، ودفع لعدوهم عنهم، وعن سائر المسلمين والمستضعفين، فإن التعلل بالحر والبرد يصبح سفهاً لا يمكن قبوله،

---

(1) الآية 81 من سورة التوبة.

لأنه يوجب تعريض النفس لعذاب الله سبحانه، وطبيعي أن الإنسان العاقل لا يرضى بدخول جهنم في الآخرة تفادياً لقليل من الحر في الصيف في دار الدنيا.

فتعلل هؤلاء الناس بالحر تارة، وبالقر ـ وهو البرد ـ أخرى، يجعل موقفهم أشبه بموقف المنافقين الذين فعلوا مثل ذلك مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» من قبل..

يا أشباه الرجال!:

إن الكلمات التي قرَّع بها علي «عليه السلام» أهل العراق كانت قاسية، بحجم الجرم الذي ارتكبوه في حق الإسلام الذي ضيعوه.. وفي فقرات الخطبة الجهادية طائفة من هذه الكلمات.. وفيها إشارة إلى أمور كثيرة أخرى، لا مجال للدخول في تفاصيلها.. فلا محيص عن الإكتفاء بالإلماح إلى بعض من ذلك على النحو التالي:

1 ـ للرجال خصوصيات يتميزون بها عن النساء، لا بمعنى فقدانها من النساء، بل بمعنى أنها في الرجال أكثر بروزاً وتجلياً. بل ربما كان طغيان بعض الصفات على النساء، وظهورها بقوة فيهن أمراً غير محمود..

فمثلاً: لا تستحسن في النساء:

ألف: صفة الشجاعة الطاغية. والحال أن الشجاعة في الرجال مطلوبة.

ب: لا تستحسن فيهن صفة السخاء، لأن المرأة إذا كانت بخيلة

حفظت مالها، ومال بعلها.

فقد قال الطريحي في حديث علي «عليه السلام»: «خير خصال الرجال شر خصال النساء»، كالشجاعة، والكرم، فإنهما من خير خصال الرجال، وهما في النساء شر.

وذلك: أن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها، ومال بعلها.. وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها[1].

وعند الرضي: خيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو، والجبن، والبخل، فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة، فرقت من كل شيء يعرض لها[2].

---

(1) مجمع البحرين ج5 ص363 ومستدرك سفينة البحار ج3 ص70.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص52 الحكمة رقم 334 وروضة الواعظين ص372 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج5 ص359 وبحار الأنوار ج100 ص238 ومجمع البحرين ج5 ص363 ومستدرك سفينة البحار ج3 ص70 وج10 ص46 وتحفة السنية (مخطوط) للجزائري ص270 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج2 ص352 وج11 ص325 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج19 ص65 وميزان الحكمة ج4 ص2874 وربيع الأبرار ج5 ص252 وقوت القلوب لأبي طالب المكي ج2 ص426 وإختيار مصباح السالكين ص632 والمحجة البيضاء ج3 ص86.

وقد بين قوله «عليه السلام» لأصحابه: «يا أشباه الرجال ولا رجال»: أن أصحابه «عليه السلام» لم تكن بعض الصفات فيهم بالمستويات المتوقعة، فلم تكن لديهم تلك الحمية، أو النخوة، أو الغيرة، أو الشجاعة المطلوبة، أو نحو ذلك..

ولذلك لم ينفروا معه «عليه السلام» لنصرة إخوانهم، أو للذب عن المرأة المسلمة والمعاهدة، ولا اهتموا للغارات التي كانت تشن عليهم، ولا تحركوا غضباً لانتقاص أطرافهم، وما إلى ذلك..

ثانياً: إن الله سبحانه قد أعطى الناس عقولاً يميزون بها بين الأمور، ويعرفون بها الحسن والقبيح، وما إلى ذلك. ولكن ذلك لا يعني أنهم جميعاً ينقادون لعقولهم، فقد تجد لدى الإنسان عقلاً يبرر توجيه التكاليف الإلهية إليه، ولكنه يعطيه دوره في كثير من المواضع، فهو لا يتعامل برزانة وحلم، وإنما بهوى وجهل وطيش، فيكون كأنه لا حلم عنده، ولا عقل لديه، بل هو كالأطفال في طيشه ورعونته..

ثالثاً: وحتى حين يريد هؤلاء أن يستجيبوا لنداء العقل، فإنهم لا يضعون أمام عقولهم القضايا الحساسة والكبرى التي يهتم لها أهل السؤدد والكرامة والشهامة، بل يستخدمون عقولهم في تدبير الأمور الصغيرة والشخصية التي تهم النساء بحسب العادة.. فكما أن المرأة تهتم بزينتها، وتدبير منزلها، فكذلك هم إنما تسرح عقولهم وتمرح في دائرة مصالحهم الشخصية، وحياة الدعة والرفاه.. وهم بمعزل وغربة

عن الإهتمام بالشؤون العامة، والقضايا الكبرى..

ولأجل هذه الأمور كلها قال لهم «عليه السلام»:

«يا أشباه الرجال، ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال..».

قاتلكم الله:

وفي نهج البلاغة، وغيره: أنه «عليه السلام» قال بعد هذا: «قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً..».

فقوله «عليه السلام»: قاتلكم الله، يدل على أن الأمور قد بلغت حداً خطيراً، يجعلهم شركاء في جريمة تضييع الدين وأهله، والتمرد على الله، حتى كأنهم يحاربونه، ويقاتلونه بهدف تضييع كل جهود الأنبياء، والصلحاء، ودماء الشهداء عبر التاريخ.. وأنهم استحقوا أن يدعو عليهم بأن يحاربهم الله كما يحاربونه، لأنهم أصبحوا مطرودين من رحمته، وموضع غضبه، ومستحقين لنقمته..

ملأتم قلبي قيحاً:

أما فيما يرتبط بشكواه، ودلالته على حجم الآلام التي عاناها مع أهل العراق، حتى قال: «لقد ملأتم قلبي قيحاً».

فقد بين «عليه السلام»: أن أسوأ آثارهم هو أنهم بسلوكهم السلبي، قد أفسدوا عليه رأيه.

فإنه «عليه السلام» كان عارفاً بالداء والدواء، ولم تكن تنقصه خبرة، ولا تعوزه كفاءة، ولا يحتاج إلى مزيد من المعرفة والعلم، ولكن المشكلة هي عجزهم وفشلهم، وجهلهم، وقلة أو عدم كفاءتهم لتحمل أية مسؤولية، وضعف إرادتهم، وسذاجة تفكيرهم.

فلم يكونوا قادرين على مواكبة قائدهم في تحمل المسؤوليات الجسام التي كان يواجهها، ولا بد له من القيام بها، لكي يحفظ لهم وجودهم، وعزتهم، ودينهم، وليدفع عنهم شر الأشرار، وكيد الفجار.

ويشبه حالهم معه حال البيضة التي لا يمكن أن يدخل الجبل فيها، بحيث لا يصغر الجبل ولا تكبر البيضة، فإن العجز كامن في البيضة والجبل.. وليست المشكلة في عدم وجود قادر، لأن القادر التام القدرة موجود، وهو الله تعالى..

شجاع، لكن لا علم له بالحرب:

والذي زاد الطين بِلَّةً والخرق اتساعاً: أن قريشاً كانت تبرئهم من هذا العجز، والقصور والتقصير الكامن فيهم، وتدعي: أنه «عليه السلام» هو العاجز، الذي لا يملك المعرفة والخبرة، والكفاءة المطلوبة..

وقد استدلت قريش على هذه الدعوى الباطلة: بأن ثمة فشلاً ظاهراً في السياسة الحربية المتبعة في مواجهة الغارات التي كان معاوية يشنها على البلاد التي في سلطة علي «عليه السلام».

وهذا الفشل هو الذي جعلهم يقولون: «إن علياً رجل شجاع،

ولكن لا علم له بالحرب». إذ لو كان له علم بها لكان ينبغي أن يحسم أمرها في إجراءات قوية يلقن بها أعداءه درساً لا ينسى، ويجعلهم ليس فقط يمتنعون عن الغارة، وإنما يتصدون هم أنفسهم لمن يفكر فيها بالغارة على بلاد لعلي «عليه السلام» فيها أمر، أو هوى..

فأجاب علي «عليه السلام» عن هذه التهمة الباطلة بجوابين:

الأول: ما ذكرناه آنفاً، من أن العلة ليست فيه كقائد مدبر، وخبير عالم، ومجرب.. بل العيب والنقص في الناس والأتباع الذين يفترض فيهم أن يكونوا أعواناً على تنفيذ أوامره وخططه، وإذ بهم يصيرون أعواناً على تعطيلها، وإفساد الرأي والتدبير الذي انطلقت منه، وتضييع الخطط التي اقتضت إصدار تلك الأوامر..

وقد أشار «عليه السلام» إلى هذه الحقيقة بقوله: «ولكن لا رأي لمن لا يطاع..».

الثاني: إن تاريخ علي «عليه السلام» يشهد على بطلان ما زعمته قريش، فإن حروبه التي خاضها في زمن الرسول «صلى الله عليه وآله»، ثم حروب الجمل وصفين، والنهروان شاهد صدق على ما قال. وعلى أن الفساد والإفساد إنما جاء من قبل الناس الذين خمدت همتهم، وانطفأت جذوتهم، وذهبت رغبتهم في الحرب، وكان ذلك بعد حرب النهروان لأسباب ذكرنا بعضها في فصل سابق من هذا الكتاب..

وقد شكا ذلك «عليه السلام» من أهل العراق مرات كثيرة، فقد

تقدم قوله: «والله ما تكفونني أنفسكم، فكيف تكفونني غيركم؟! إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها، وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأنني المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة..».

لماذا لم تؤثر شكاواه في أهل العراق؟!:

وقد تساءل البعض عن السبب في عدم تأثير شكاواه «عليه السلام» في الناس، حيث لم يستجيبوا له فيما كان يدعوهم إليه..

وقد أجبنا فيما سبق عن هذا، وقلنا:

إنه بالرغم من أن الأسباب التي صرفتهم عن الإهتمام بالحرب كانت قد هيمنت عليهم بعد حرب صفين والخوارج، ولكنه «عليه السلام» بالرغم من ذلك استطاع أن يجمع جيشاً مؤلفاً من عشرات الألوف، وعقد الألوية للقادة، وكاد أن يتحرك بهم نحو الشام لحرب معاوية، فعاجله ابن ملجم بضربته، فاستشهد.

نهض بالحرب، وما بلغ العشرين:

ويتساءل البعض عن مدى دقة قول علي «عليه السلام» عن خبرته الحربية: «لقد نهضت فيها، وما بلغت العشرين. وها أنا ذا قد ذرفت على الستين..»، فإنه «عليه السلام» إذا كان عمره حين بعث النبي «عليه السلام» عشر سنين كما هو الراجح من الأقوال. فإن عمره حين نهض بالحرب في حرب بدر حوالي خمس وعشرين سنة، فكيف يقول «عليه السلام»: إنه نهض بها، وما بلغ العشرين؟!

ونجيب:

1 - بأن الحرب قد بدأت قبل بدر، بل بدأت في مناوشات كثيرة كانت تحصل في مكة بين المسلمين الذين كانوا يستخفون بصلاتهم، فكان المشركون يلاحقونهم ويؤذونهم، وتحصل لهم معهم مناوشات، ومخاصمات. وكان صِبية المشركين يرمون الرسول «صلى الله عليه وآله» بالحجارة، فيدافع علي «عليه السلام» عنه، وينقضُّ عليهم، فيولون هاربين. ونزل قوله تعالى: **(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)**[1]»[2].

ويقول نص آخر، أو أكثر: أنه «عليه السلام» كان يلاحق الصبيان الذين يؤذون رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ويقضمهم بأسنانه في وجوههم وغيرها حتى سمي بالقضم[3]. وقد تقدم ذلك في بعض فصول هذا الكتاب.

2 - كما أنه قد واجه المشركين ليلة الهجرة بسيفه، بعد أن نام «عليه السلام» في فراشه «صلى الله عليه وآله» بانتظار المواجهة

---

(1) الآيتان 50 و 51 من سورة المدثر.

(2) مناقب آل أبي طالب ج2 ص68 و (ط المكتبة الحيدرية) ج1 ص342 وبحار الأنوار ج41 ص62 ونهج الإيمان ص315 ومستدرك سفينة البحار ج1 ص102.

(3) تفسير القمي ج1 ص113 وبحار الأنوار ج20 ص52 عنه، وراجع: البرهان ج1 ص311.

معهم.

وذكر محمد بن سلام نوم علي «عليه السلام» على فراش الرسول «صلى الله عليه وآله» ليلة الهجرة.. إلى أن قال: «فلما أصبح امتنع ببأسه، وله عشرون سنة، وأقام بمكة وحده مراغماً لأهلها، حتى أدى إلى كل ذي حق حقه»(1).

والظاهر: أنه يرى: أن علياً «عليه السلام» قد ولد قبل بعثة النبي «صلى الله عليه وآله» بسبع سنين، وهذا أحد الأقوال التي ذكرناها في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله».

3 ـ كما أن علياً «عليه السلام» قد بقي في الشعب ثلاث، أو أربع سنوات يبيت على فراش رسول الله «صلى الله عليه وآله» يفديه بنفسه، باعتبار أن قريشاً إذا أرادت قتل رسول الله «صلى الله عليه وآله» وقع القتل عليه «عليه السلام» وسلم رسول الله «صلى الله عليه وآله».

حتى قال مرة لأبيه أبي طالب: إني مقتول.

فقال أبو طالب:

اصبرن يا بني فالصبراً حجى — كل حي مصيره لشعوبِ
قد بذلناك والبلاء شديد — لفداء الحبيب وابن الحبيب

---

(1) مناقب آل أبي طالب ج2 ص59 و (ط المكتبة الحيدرية) ج1 ص335 بحار الأنوار ج38 ص291.

وقد تقدمت الأبيات في هذا الكتاب.

وقد أجاب «عليه السلام» أباه، فقال:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد ووالله ما قلت الذي قلت جازعا

ولكنني أحببت أن ترى (رؤية) نصرتي وتعلم أني لم أزل لك طائعا

وأبياتاً أخرى.

وقال أيضاً:

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجْرِ

رسول إله الخلق إذ مكروا به فنجاه ذو الطول الكريم من المكر (1)

هذا وكان «عليه السلام» في الشعب هو الذي يأتيهم بالطعام سراً من مكة من حيث يمكن، ولو ظفروا به لم يبقوا عليه، كما يقول الإسكافي، وغيره(2).

4 - ويبدو: أنه «عليه السلام» هو الذي شج في رأسه في هجرة الطائف بسبب تصديه للذين كانوا يلاحقون النبي «صلى الله عليه

---

(1) راجع هذا الكتاب ج2 ص75.

(2) راجع هذا الكتاب ج2 ص74.

وآله» بالحجارة(1).

5 ـ ما روي عن الإمام زين العابدين «عليه السلام»: أنه اجتمعت قريش إلى أبي طالب ورسول الله «صلى الله عليه وآله» عنده، فقالوا: نسألك من ابن أخيك النصف.

قال: وما النصف منه؟!

قالوا: يكف عنا ونكف عنه، فلا يكلمنا ولا نكلمه، ولا يقاتلنا ولا نقاتله(2). وهذا يدل على أنه كان يقاتل المشركين في مكة في حياة أبي طالب.

6 ـ قال علي بن الحسين «عليه السلام»: كان أبو طالب يضرب عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بسيفه ويقيه بنفسه، فلما حضرته الوفاة وقد قويت دعوة رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعلت كلمته إلا أن قريشاً على عداوتها وحسدها، فاجتمعوا إلى أبي طالب ورسول الله «صلى الله عليه وآله» عنده، فقالوا: نسألك من ابن أخيك النصف!

قال: وما النصف منه؟!

قالوا: ليكف عنا ونكف عنه، فلا يكلمنا ولا نكلمه، ولا يقاتلنا ولا

---

(1) راجع هذا الكتاب ج2 ص124.

(2) مناقب آل أبي طالب ج1 ص59 و 60 و (ط المكتبة الحيدرية) ج1 ص53 وبحار الأنوار ج35 ص87 عنه، والبرهان (تفسير) ج4 ص725.

نقاتله، لأن هذه الدعوة قد باعدت بين القلوب، وزرعت الشحناء، وأنبتت البغضاء(1). فإذا كانت قريش تقاتل رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأبا طالب، فهل يسكت علي «عليه السلام» عنها، ويعتزل؟!

7 ـ قال المعتزلي: وقد ذكر هو «عليه السلام» حاله يومئذ، فقال في خطبة له مشهورة: فتعاقدوا ألا يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطرونا إلى جبل وعر، مؤمننا يرجو الثواب، وكافرنا يحامى عن الأصل، ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارة والميرة الخ.. (2).

لو كانوا ألفاً:

1 ـ إن النداء الذي أطلقه أمير المؤمنين «عليه السلام» في الناس ليحضر إلى الرحبة الذين يشرون أنفسهم ـ أي يبيعونها إلى الله تعالى ـ وشرط أن لا يحضر منهم إلا صادق النية، قد أريد به أمور، لعل منها:

تعريف الناس بكذب ما تقوله قريش، من أن «علياً لا علم له بالحرب»، فإن المشكلة ليست في القائد، وإنما هي في الناس أنفسهم، الذين لا يستجيبون لندائه، ولم يحضروا إلى الرحبة كما طلب.

---

(1) روضة الواعظين ص54 وحلية الأبرار ج1 ص73 ونور الثقلين ج4 ص336.

(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج13 ص254.

ولعلك تقول:

ألف: إن نفس اعتماد آية الشراء في النداء الذي أطلقه في الناس **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)**(1) أساساً للإختيار فيه إغراء قوي للأخيار الحقيقيين بالإستجابة، واعتبارها فرصة سانحة.

كما أن أهل الدنيا قد يستفيدون من هذه الفرصة رياء وسمعة، لأن الناس قد يرغبون بأن يلبسوا لباس الأخيار، وإن لم يكونوا منهم، لأن نفس التظاهر بالصلاح هو من الوسائل التي يحاول بعض أهل الدنيا الإستفادة منها في المباهاة، والحصول على التكريم والتعظيم المجاني، والرفعة.

ب: قد يكون اشتراط صدق النية محفزاً آخر لبعض طلاب الدنيا لتبييض صفحتهم عند من يرجون الحصول منه على شيء من الإمتيازات المقامية أو المالية، أو على نفوذ الكلمة عنده.

ونجيب:

أولاً: إن هذا وذاك كما أنه محفز لهؤلاء للحضور في الرحبة، فإنه أيضاً محفز لصادقي النية الحقيقيين، لأنهم يستدلون به على أن ثمة أمراً بالغ الأهمية قد دعا إلى وضع هذا الشرط، وربما الحق التواكل او التراخي فيه ضرراً بالغاً في الدين وأهله، وطلاب الدنيا إذا

---

(1) الآية 207 من سورة البقرة.

رأوا أن الأمر جدي، وأن ثمة خطراً حقيقياً يتهددهم، وأمراً هائلاً سيواجهونه، فإنهم سوف يحاولون الإختفاء والإختباء في أبعد مكان يخطرعلى بالهم.

لاسيما وأنهم يعرفون أنه لا مجال للخطأ في الحساب في مثل هذه الأمور الحساسة جداً.. لاسيما وهم يعرفون: أنه لا مجال للإعتماد على الكثرة في مثل هذه الأحوال، كما لا مجال للتملص والتخلص من الخطر الذي سيواجههم، لأنهم سيكونون مكشوفين للعدو، وللصديق. فالأولى لهم أن يجلسوا في بيوتهم، ولا يخاطروا بأنفسهم.

ثانياً: إن ما زعمته قريش، من أن علياً رجل شجاع، ولكنه لا يعرف التدبير الحربي، ولا يجيد وضع الخطط، ومواجهة الأزمات. وهذا يحتاج إلى العقل والفكر، ولا يحتاج إلى الشجاعة كثيراً. إن هذا غير مرضي ولا مقبول، لأن الكل يعلم أن علياً «عليه السلام» أعقل البشر، وأعلمهم بالتدبير الصحيح. وقد عاش أجواء الحرب في مكة، وتحمل مسؤولية التدبير لدفع مكر الأعداء منذ الطفولة، فهل تبلَّد فكره، وذهب عقله بعد ذلك؟!

3 ـ إن مما يؤكد أن الناس من غير الأخيار لا يرغبون في الخروج، ولم يخرجوا إلى الرحبة لعلمهم بأنهم سوف لا يجدون كثرات يختبئون خلفها، ولن يكون لهم مجال للإفلات من المصائب.

ثم إنه «عليه السلام» لم يستنفر الناس نفيراً عاماً، بل هو نفير إنتقائي جعل فيه الخيار للأشخاص أنفسهم.. وجعل الإختيار

للأشخاص، ثم جعل شروطاً عليهم، أو لهم يؤكد على أن المطلوب: هو طرد العناصر المترددة، والتي لا تستجمع تلك الشروط.

إننا لم نعرف بالتحديد ما هو الرأي الذي كان عنده «عليه السلام» لو بلغ المجتمعون عنده ألفاً، غير أن من المحتمل أن يفكر في أن يسير بهم إلى الشام، وعدم انتظار اجتماع عشرات الألوف للمسير معه، باعتبار أنه كان يريد من هذه الكثرة أن تعوض النقص الحاصل في صفوف المقاتلين الحقيقيين الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، لو لم يتمكن بعضهم من المسير معه. ولعله كان يريد أن يجعل من الكثرة غطاءً لهذه القلة، أو كان يريد أن تكون ردءاً يمنع من شيوع القتل في هذه القلة، وإن كانت لهذه الكثرة ومشكلاتها الكثيرة كتلك التي حصلت في صفين!!

ويدلنا على صحة هذا الإحتمال قوله «عليه السلام»: «ولا يحضرنا إلا صادق النية في المسير معنا، والجهاد لعدونا».

فيكون «عليه السلام» قد حقق من هذا الإجتماع عدة فوائد كما هو واضح.

مكونات جيش علي ×:

وقد أظهر هذا الإختبار: أن جيشه «عليه السلام» كان يتكون من فئات ثلاث هي:

1 - الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، وكانوا صادقي النية في جهاد الأعداء.

2 ـ المعذرون: وهم الذين يرغبون بالخروج ولا يقدرون عليه. إما لعدم وجود النفقة، أو لمرض، أو لمشكلة خاصة تمنع من خروجهم، كتكفلهم لأم مريضة ليس لها كافل، أو نحو ذلك.

3 ـ المكذبون. الذين لا يصح الإعتماد عليهم، ولا الوثوق بهم.

وجيش كهذا لا يتوقع منه أن يحقق النتائج المرجوة منه، أو أن يوصل للأهداف التي كان «عليه السلام» يسعى للوصول أو لإيصال الأمة إليها.

ولأجل ذلك: مكث «عليه السلام» أياماً بادياً حزنه، شديد الكآبة.

ويلاحظ هنا:

أولاً: إنه «عليه السلام» وصف الفئة الثالثة بـ «المكذبين» ولم يصفهم بالنفاق، لأنه ليس له أن يصفهم به، أو ليس له أن يكشف ذلك. وربما كان بعضهم لم يصل إلى حد النفاق.

ثانياً: لم يقل «عليه السلام»: «الكاذبون»، لأن الأمر يتجاوز مجرد كذبة أراد بها مطلقها أن يجعل منها ذريعة للتملص من أمر تكرهه نفسه. بل هناك تكذيب لأمر خطير، وجدير بالإلماح إليه. ولعله التكذيب بإمامته «عليه السلام»، أو بعصمته، أو بعلمه بالأمور الغائبة، أو بكراماته ومقاماته «عليه السلام». فإن هذا قد لا يبلغ بهم حد الكفر والخروج من الدين. إن لم يتضمن تعمد تكذيب الرسول «صلى الله عليه وآله» في أمر قد ثبت له عنه.

ولكنه في أهميته وخطورته أعظم من جريمة ارتكاب الكذب في

أمر عادي، لغرض شخصي. كما قلنا.

ثالثاً: إن هذه الحالة التي كان «عليه السلام» يواجهها في أهل العراق تشبه حالة رسول الله «صلى الله عليه وآله» مع أصحابه، فقد كانوا أيضاً ثلاثة أقسام كما ورد في سورة التوبة.

فقد كان فيهم:

1 ـ المخلصون.

2 ـ أصحاب الأعذار والموانع.

3 ـ المنافقون.

أصحابه × في العرب أكثر من الأنصار في القبائل:

ولتوضيح مراده «عليه السلام» في الخطبة التي ذكرناها عنه أخيراً نقول:

إنه «عليه السلام» أراد أن يبعث في العراقيين أملاً بالنصر على عدوهم، ويعالج حالة خوفهم من الفشل، ويرفع من معنوايتهم، ويعيد إليهم الثقة بالنفس، فضرب لهم مثلاً بالأنصار من الأوس والخزرج، فقد كانوا قبيلتين ليس لهم تاريخ طويل يمنحهم تجربة، وعراقة في العلاقات، وخبرة في التدبير.

وكانوا أيضاً قليلي العدد، بالإضافة إلى قبائل العرب.

وقد عادتهم جميع القبائل العربية، وتحالفوا مع اليهود عليهم، وهم يعيشون بينهم، وغزتهم اليهود والقبائل قبيلة بعد قبيلة.

وتفرغوا لنصرة الدين، وقطعوا صلاتهم بجميع الناس، ونصبوا العداء لأهل البلاد: نجد وتهامة، ومكة واليمامة، وأهل السهل والجبل، وحاربوا وصبروا صبراً شديداً، وصار الجلاد، فلازموه ولم يفارقوه حتى دانت العرب للرسول «صلى الله عليه وآله»، ورأى قرة عينه في النصر والهيمنة على بلاد العرب قبل أن يقبضه الله تعالى.

فإذا كان الأنصار على ضعفهم وقلتهم قد فعلوا ذلك، فإن الذين كانوا معه «عليه السلام» كانوا أمة كبيرة يمكنها أن تنال النصر بأدنى جهد..

ولكن بعض السامعين قد فهم كلامه «عليه السلام» بصورة سيئة، واتهم الإمام «عليه السلام» بأنه يشبه نفسه برسول «صلى الله عليه وآله»، ويشبه أهل العراق بالأنصار في المقام والفضل، لكي يسوقهم بذلك إلى المهالك. فأزعج ذلك أمير المؤمنين «عليه السلام»، لأن منهم من لا يحسن سماع الكلام، ولا يحسن الجواب، فقال «عليه السلام» له: «أحسن سمعاً تحسن إجابة».

فأوضح «عليه السلام» لهم: أن مراده: هو دفعهم إلى التأسى بالأنصار، لأن ما يطلبه منهم هو أقل بكثير من الذي كان الأنصار يتحملونه، ويواجهونه..

استبان فقد الأشتر:

وقد ظهر الخلل في فهم الأمور أكثر من السابق حين قال قائل آخر منهم: استبان فقد الأشتر على أهل العراق..

وكأنه يريد أن يقول: إن أهل العراق يراعون جانب الأشتر، ويرون أن له حقاً عليهم أكثر من حق علي «عليه السلام» عليهم، فاستدعى ذلك بياناً وتصحيحاً منه «عليه السلام» لهذا الخطأ الذي هم فيه، وبين لهم أن الأشتر كان رجلاً من المسلمين، وحقه ينبثق من خصوصية: أن للمسلم حقاً على المسلم. وما لمالك الأشتر منها، لا يزيد على ما لغيره.

الفصل الثامن:

غارة ابن قباث..

11 ـ غارة ابن قباث على الجزيرة:

وفي سنة 39 كانت غارة عبد الرحمان بن قباث بن أشيم على الجزيرة، وفيها شبيب بن عامر بنصيبين.

وكان كميل بن زياد والياً على هيت، فبلغه عن قوم في قرقيسيا قد أجمعوا أن يغيروا على هيت ونواحيها، فقصدهم، واستخلف على هيت رجلاً اسمه عبد الله بن وهب الراسبي، واصطحب معه جميع المقاتلين فيها، ولم يبق فيها غير خمسين رجلاً، لأنه أراد أن يبدأهم قبل أن يبدأوه.

فجاء سفيان بن عوف للإغارة على هيت في غيبته، فأغضب ذلك علياً «عليه السلام»، فكتب إلى كميل، ونختار النص الذي أورده الشريف الرضي «رحمه الله»:

أما بعد.. فإن تضييع المرء ما ولي وتكلفه ما كفي لعجز حاضر ورأي متبر. وإن تعاطيك الغارة على أهل قرقيسيا، وتعطيلك مسالحك التي وليناك، ليس بها من يمنعها، ولا يرد الجيش عنها لرأي شَعاع.

فقد صرت جسراً لمن أراد الغارة من أعدائك على أوليائك، غير شديد المنكب، ولا مهيب الجانب، ولا سادٍّ ثغرة، ولا كاسرٍ شوكة، ولا مغن عن أهل مصره، ولا مجز عن أميره(1). انتهى.

ووجد عليه، وقال: إنه لا عذر لك عندي.

فكان كميل مقيماً على تخوف وغم لغضب علي «عليه السلام».

فبينا هو كذلك إذ أتاه كتاب شبيب بن عامر الأزدي من نصيبين في رقعة كأنها لسان كلب، يعلمه فيه أن عيناً كتب إليه يعلمه أن معاوية قد وجه عبد الرحمان بن قباث نحو الجزيرة، وأنه لا يدري، أيريد ناحيته، أم ناحية الفرات، وهيت.

فقال كميل: إن كان ابن قباث يريدنا لنتلقينَّه، وإن كان يريد إخواننا بنصيبين، لنعترضنه. فإن ظفرت أذهبت موجدة أمير المؤمنين فأعتبت عنه (أو فأغنيت عنه)، وإن استشهدت فذلك الفوز العظيم، وإني لممن رجوت الأجر الجزيل.

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص117 و 118 الكتاب رقم 61 وبحار الأنوار ج33 ص522 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص191 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج5 ص199 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج17 ص149 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416هـ) ج2 ص371 و (ط الأعلمي) ج2 ص473 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج12 ص273 ونهج السعادة ج5 ص320 و 321 ومنهاج البراعة ج3 ص210 وإختيار مصباح السالكين ص561.

فأشير عليه، باستئمار علي «عليه السلام»، فأبى ذلك.

ونهض يريد ابن قباث في أربع مئة [ست مئة] فارس، [كلهم أصحاب بيض ودروع] وخلف رجالته، وهم ست مئة في هيت. وجعل يحبس من لحقه، ليطوي الأخبار عن عدوه. وأتاه الخبر بانحيازه من الرقة نحو رأس العين، ومصيره إلى كفرتوثا. وكان ينشد في طريقه كثيراً:

يا خير من جر له خير القدر فالله ذو الآلاء أعلى وأبر
يخذل من شاء ومن شاء نصر

ثم أغذ السير نحو كفرتوثا، فتلقاه ابن قباث ومعن بن يزيد السلمي بها في ألفين وأربع مئة، فواقعهما كميل، ففض عسكرهما وغلب عليه، وقتل من أصحابهما بشراً، فأمر أن لا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح، وقتل من أصحاب كميل رجلان، وكتب بالفتح إلى علي، فجزاه الخير، وأجابه جواباً حسناً(1).

قالوا: وأقبل شبيب بن عامر، من نصيبين في ست مائة فارس ورجالة، ويقال: في أكثر من هذا العدد، فوجد كميلاً قد أوقع بالقوم واجتاحهم، فهناه بالظفر وقال: والله لأتبعن القوم، فإن لقيتهم لم يزدهم لقائي إلا هلاكاً وفلا، وإن لم ألقهم لم أثن أعنة الخيل حتى أطأ أرض

(1) أنساب الأشراف (ط سنة 1416هـ) ج2 ص371 و (ط الأعلمي) ج2 ص473.

الشام. وطوى خبره عن أصحابه، فلم يعلمهم أين يريد.

فسار حتى صار إلى جسر منبج فقطع الفرات، ووجه خيله فأغارت ببعلبك وأرضها، وبلغ معاوية خبر شبيب، فوجه حبيب بن مسلمة للقائه، [فلم يدركه] فرجع شبيب فأغار على نواحي الرقة، فلم يدع للعثمانية بها ماشية إلا استاقها، ولا خيلاً ولا سلاحاً إلا أخذه.

وكتب بذلك إلى علي حين انصرف [إلى] نواحي نصيبين، فكتب إليه [علي] ينهاه عن أخذ مواشي الناس وأموالهم إلا الخيل والسلاح الذي يقاتلون به، وقال: رحم الله شبيباً لقد أبعد الغارة، وعجل الإنتصار(1).

وحسب نص ابن أعثم:

ثم استخلف كميل بن زياد رجلاً يقال له: عبد الله بن وهب الراسبي، وخرج من هيت في أربع مائة [ست مائة] فارس كلهم أصحاب بيض ودروع، حتى صار إلى شبيب بنصيبين، وخرج شبيب من نصيبين في ست مائة رجل، فساروا جميعاً في ألف فارس يريدون عبد الرحمن، وعبد الرحمن يومئذ بمدينة يقال لها: كفرتوثا في جيش لجب من أهل الشام، فأشرفت خيل أهل العراق على خيل أهل الشام.

---

(1) أنساب الأشراف (ط سنة 1416هـ) ج2 ص373 و (ط الأعلمي) ج2 ص475 و 476 والكامل في التاريخ ج3 ص379.

قال: وجعل كميل بن زياد يرتجز ويقول:

يا خير من جر له خير القدر فالله ذو الآلاء أعلى وأبر

يخذل من شاء ومن شاء نصر

قال: وجعل شبيب يرتجز ويقول:

تجنبوا شدات ليث ضيغم جهم محيا عقربان شدقم

يغادر القرن صريعا للفم بكل عضب صارم مصمم

قال: واختلط القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من أصحاب كميل رجلان: عبد الله بن قيس القابسي، ومدرك بن بشر الغنوي، ومن أصحاب شبيب أربعة نفر، ووقعت الهزيمة على أهل الشام، فقتل منهم بشر كثير، فولوا الأدبار منهزمين نحو الشام. [وأمر أن لا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح].

فقال كميل لأصحابه: لا تتبعوهم فقد أنكينا فيهم، وإن تبعناهم فلعلهم أن يرجعوا علينا، ولا ندري كيف يكون الأمر.

قال: ثم رجع شبيب بن عامر إلى نصيبين، ورجع كميل بن زياد إلى هيت، وبلغ ذلك علياً «رضي الله عنه»، فكتب إلى كميل بن زياد:

أما بعد، فالحمد لله الذي يصنع للمرء كيف يشاء، وينزل النصر على من يشاء إذ شاء، فنعم المولى ربنا ونعم النصير.

وقد أحسنت النظر للمسلمين، ونصحت إمامك، وقدماً كان ظني بك ذلك، فجربت (لعل الصحيح: فجزيت) والعصابة التي نهضت بهم إلى حرب عدوك خير ما جزي الصابرون والمجاهدون، فانظر لا

تغزون غزوة، ولا تجلون (لعل الصحيح: ولا تخطونَّ) إلى حرب عدوك خطوة بعد هذا حتى تستأذنني في ذلك.

كفانا الله وإياك تظاهر الظالمين، إنه عزيز حكيم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قال: ثم كتب إلى شبيب بن عامر بمثل هذه النسخة ليس فيها زيادة غير هذه الكلمات: واعلم يا شبيب: أن الله ناصر من نصره وجاهد في سبيله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته(1).

ونقول:

علينا أن ننظر في العديد من النقاط التي منها:

مبررات غضب علي ×:

1 - إن أهل هيت، وإن تمكنوا من تحاشي المواجهة مع سفيان بن عوف، ولكن مما لا شك فيه: أن ما حدث كان خطيراً جداً بالنسبة إليهم، وقد وقعوا في إرباك شديد، وتحملوا مشقة غير عادية حتى تمكنوا من إبعاد الخطر عن أنفسهم. لاسيما وأن انتقال سكان بلد كبير من مكان إلى مكان ليس بالأمر السهل على ساكنيه.. الذين شعروا بعد

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج4 ص227 - 229 والكامل في التاريخ ج2 ص228 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص131 و 132 عنه، وعن أنساب الأشراف (ط سنة 1416هـ) ج2 ص372 و 373 و (ط الأعلمي) ج2 ص475 و 476.

مسير كميل عنهم بأنهم يفقدون الحماية والرعاية، حيث لا يوجد من يتحمل المسؤولية، ويرشد إلى الصواب من موقع السلطة والهيمنة، ونفوذ الأمر والنهي، فإن غيبة الوالي تعني فلتان الزمام، وفقدان النظام، والهرج والمرج، والإرباك.

2 - إن هذا الذي حصل من شأنه أن يترك أثراً سلبياً على روحيات الناس، وعلى سكينتهم وطمأنينهم، وشعورهم بالأمن في أوطانهم، ويؤثر على ثقتهم بحكمة السلطة، ويشككهم في قدرتها على حمايتهم، وحفظ مصالحهم..

3 - إن على الوالي من قبل الحاكم العام أن يبقى على اتصال دائم به، وأن يعرفه بأدق التفاصيل. ويخبره سلفاً عن كل حركة وسكون كان، أو يريد أن يقدم عليه في مستقبل الزمان..

فكيف إذا كان البلد الذي يتحمل مسؤولية حمايته، وإدارته ورعايته شديد القرب والإرتباط بنقطة الإرتكاز للحكم كله؟! وهو أحد الثغور التي توصل إليه، وتؤثر عليه. فتفريطه بما تحت يده تفريط بالكيان كله.

فإذا كان الوالي لا يرى نفسه مسؤولاً عن إعلام من ولاه بكل صغيرة وكبيرة بصورة دقيقة ومتواصلة، وإذا كان يرى أن له الحق في أن يتصرف كما يحلو له، ومن دون تنسيق مسبق معه، فعلى الدولة السلام..

فكيف إذا كان إلى جانب ذلك هناك عدو يملك قدرات كبيرة جداً،

ولا يملك أية روادع تصده عن ارتكاب المظالم والجرائم.. في سبيل تحقيق أغراضه، وتلبية شهواته ونزواته؟!

4 - إن تعمية الأخبار عن الحاكم العام يفقده القدرة على التخطيط السليم، لأنه لا يستطيع أن يضمن أي عامل من عماله أن يكون في الموقع الذي يضعه فيه، أو أنه يحفظ الأمانة التي وضعها بين يديه.. ويكون حاله حال من يريد أن يقود سيارة، وهو معصوب العينين!! فإنه يوردها بمن فيها المهالك بلا ريب.

هل هذا تضاد واختلاف؟!

وقد يقال:

إن الكتاب الذي وجهه أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى كميل بن زياد لا ينسجم مع وصف المؤرخين لما جرى.. فهم يقولون: إنه قد بلغ كميلاً أن عدواً يهيئ للهجوم عليه، فأراد كميل دفعه بعمل استباقي، ويباغته بالهجوم عليه. وهذا عمل وتدبير صحيح في نفسه، ولا يلام عليه فاعله..

ولكن كتاب أمير المؤمنين «عليه السلام» يقول: إن كميلاً قد تكلّف أمراً قد كفاه إياه غيره، فإذا كان كميل قد كفي أمر عدوه، فلماذا يبادر إليه؟! ومن الذي كفاه إياه يا ترى!!

وقد يجاب:

بأن المقصود: أن هذا ليس من مسؤوليات كميل، لأن التدبير الصحيح يقضي بإعلام الحاكم العام بأي تحرك بهذا الحجم، ثم يصار

إلى التنسيق معه، وإعداد العدة والخطة المناسبة، التي تنتهي بضربة قاصمة لا يقوم منها ذلك العدو أصلاً.. فعلي «عليه السلام» بتدبيره وخطته وأوامره هو الذي يكفي كميلاً.

أو مراده: أن المكلف برد عدوان ذلك العدو على كميل هو عمال آخرون يجب عليهم التصدي له قبل أن يصل إلى هيت.

الخطأ والجهل:

وقد ذكر «عليه السلام» لكميل: أن ما فعله خطأٌ وجهلٌ، ورأي شعاع ـ بفتح الشين، وهو المتفرق والمنتشر ـ ولعل سبب ذلك:

أولاً: أنه قد تكلف لأمر قد كفاه إياه غيره، حسبما أوضحناه.

ثانياً: ما أشار إليه «عليه السلام» بقوله في رسالته: إن في تصرفه هذا تضييعاً للبلد الذي كان قد ولاه عليه، فقد قال «عليه السلام»: «فإن تضييع المرء ما ولي»، ثم بيَّن: أن سبب هذا التضييع هو:

تعطيله المفارز المسلحة التي تتولى الحراسة والدفاع(1). فإن كميلاً قد أخلى تلك المفارز من الرجال والسلاح، واستصحبهم معه في سفره ذاك، ليقاتلوا العدو الذي قصده.

فلم يعد في تلك المواضع يقدر على منع العدو من الإقتراب منها،

(1) هذا هو المراد بكلمة مسالح، فإنها المفارز المسلحة التي ترابط في المواضع الحساسة لحفظها من الأعداء.

أو من يرد جيشه عنها..

وهذا خطأ واضح، وجهل بما ينبغي فعله فادح. وهو رأى غير متماسك، بل هو يفرق ما ينبغي أن يكون مجتمعاً، فهو يحاول أن يجزِّئ الأمور، ثم يضع لكل أمر وجزئية حلاً صغيراً ومحدوداً، منفصلاًَ عما عداه.. فأصبحت المعالجات بذلك مفتتة ومنتشرة، ولكنها كلها صغيرة، وغير مترابطة، ولا يقوي بعضها بعضاً.

ولذلك وصف الرأي تارة: بأنه متبَّر، وهو المحطم والمفتت، وتارة: بأنه شَعاع، أي موزع ومفرق.

ثالثاً: إن هذا العمل ـ أعني تعطيل مسالحه ـ قد جعله جسراً يستفيد منه الأعداء، ليصلوا إلى سائر المسلمين الذين تقع بلادهم خلف بلده. مع أن المفروض هو أن يكون مانعاً وحائلاً.

لأنه أظهر أنه الخاصرة الرخوة، ومن المواضع الآمنة، وكأنها همزة الوصل التي تصل بما بعدها.

إنه لم يعد يمثل سداً أمام الأعداء، بل صار الأعداء يرونه ثغراً مفتوحاً أمامهم.

كما أن الأولياء صاروا يشعرون بالفراغ في هذا الثغر، وصاروا يخافون من وصول العدو إليهم من خلاله.

رابعاً: إنه أذهب هيبته، فلم يعد مرهوب الجانب، ولا يحسب له الأعداء حساباً.

خامساً: إنه قد عطل نفسه، فلم يعد مؤثراً في العدو، ولا يسهم في

كسر أي من أشواكه.. وهذا يحتم البحث عن بدائل قادرة على كسر الأشواك التي كان يفترض فيه هو أن يكسرها.

سادساً: إن الوالي ينوب عن الرعية في شؤون معينة، فلا تحتاج إلى التفكير في تلك الأمور، وحمل همها. وقد دلَّهم فعل كميل هنا على أن عليهم أن يتولوا هم تلك الأمور بأنفسهم، وهذا ما حصل بالفعل. فإنهم لما سمعوا بسفيان بن عوف كانوا هم الذين أخلوا المدينة، وتجنبوا المواجهة مع الغامدي، وحفظوا أنفسهم منه.

سابعاً: إن المفروض بالعمال في البلاد هو أن يكفي إمامه ما يطلبه منه كفايته.. وفعل كميل هذا قد أظهر أن على الإمام نفسه أن يتابع شؤون بلد عامله ويتولى هو حل مشاكلها، لأن كميلاً ليس ممن يعتمد عليه في ذلك، بل على أميره أن يتولى الأمور بنفسه، أو يكون هو المدبر لها.

إصلاح الخطأ بخطأ آخر:

وقد يقال: إذا كان كل هذا قد أشار إليه أمير المؤمنين «عليه السلام» في رسالته إلى كميل، فما بال كميل قد عاد فوقع في نفس الخطأ مرة أخرى، فترك بلده ولاحق ابن قباث وقاتله، وسجل عليه نصراً استحسنه منه علي «عليه السلام»، واثنى عليه لأجله؟!

ولماذا أثنى عليه علي «عليه السلام» في المرة الثانية، وذمه في المرة الأولى، وهو قد وقع في نفس الخطأ الذي ذمه عليه؟!

ونجيب:

أولاً: إن رسالته الأولى «عليه السلام» إلى كميل، لم تصرح له بأن عليه أن يخبره بما يفعل قبل أن يقدم على الفعل.. بل كان هذا من الأمور التي أشرنا نحن إليها في سياق تحليلنا وبحثنا عن مواضع الخطأ في تصرف كميل.. بل لامه على أن تصرفه هذا قد يؤدي إلى تضييعه لما تحت يده. بالإضافة إلى الأمور الأخرى التي ذكرها في الكتاب، وأشرنا إليها..

ثانياً: إن كميلاً قد أصلح الخطأ في المرة الثانية، فقد أبقى ست مئة مقاتل في هيت، واستصحب أربع مئة، أو ست مئة، وحقق نصراً مؤزراً، وعاد مرفوع الرأس.

ولو أن أحداً أراد أن يهاجم البلد الذي كان مسؤولاً عنه، فإنه في هذه الحال لن يستطع أن يحسم الأمر بسهولة، وسيتمكن المقاتلون من الصمود إلى أن يأتيهم المدد إن احتاجوا إليه..

غير أن خطأ وحيداً وقع فيه كميل في المرة الثانية، وهو أنه تعمد وأصر على أن لا يخبر علياً «عليه السلام» بمسيره.

والذي دعاه إلى ذلك:

أولاً: إنه لم ير ذلك السفر حراماً، ولو من دون إذن، إذ لم يسبق أن أمره علي بالإستئذان في كل سفر..

ثانياً: إنه أراد أن يفاجئه بالبشارة بالنتائج، مقدمة لنيل رضاه «عليه السلام»، فحصل على ما أراد، وصدر منه «عليه السلام» الأمر له بأن ينسق معه «عليه السلام» ما كان من هذا القبيل، تفادياً

لأية مفاجأة غير محسوبة قد تحدث..

فئة قليلة غلبت فئة كثيرة:

1 ـ وتقدم: أن كميلاً قد حقق نصراً عظيماً بفئة قليلة قوامها أربع مئة أو ست مئة رجل، على فئة كثيرة قوامها: ألفان وأربع مئة. فكان مصداقاً لقوله تعالى: **(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ)**(1).

2 ـ كما أن طريقته في التعامل مع الأمور في المرة الثانية قد أظهرت أن لديه تدبيراً صحيحاً، وإيماناً صريحاً. وشهامة وشجاعة، ورغبة كبيرة بالشهادة.

3 ـ والأهم من ذلك: إلتزامه بالنهج النبوي والعلوي، ودقته في رعاية الأحكام الشرعية، حيث أمر أن لا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح..

3 ـ وأروع ما في الأمر: أن هذا النصر العظيم قد تحقق، ولم يقتل من أصحاب كميل سوى رجلين، مع أنه قتل من أهل الشام بشر كثير.

---

(1) الآية 249 من سورة البقرة.

الباب الخامس:

غارات بسر..

الفصل الأول: عصيان العثمانية في صنعاء..

الفصل الثاني: غارات بسر نصوص وآثار..

الفصل الثالث: قادة علي × يلاحقون بسراً نصوص وآثار..

الفصل الرابع: مع كلمات علي ×لأصحابه..

الفصل الخامس: عهد علي × لجارية بن قدامة..

الفصل الأول:

عصيان العثمانية في صنعاء..

تحرك العثمانية في صنعاء:

قالوا:

واختلف الناس على علي «عليه السلام» بالعراق، وقتل محمد بن أبي بكر بمصر، وكثرت غارات أهل الشام، وتحركت شيعة عثمان بن عفان. وخالفوا علياً «رضي الله عنه»، وأظهروا البراءة منه. [ودعوا إلى الطلب بدم عثمان، ومنعوا الصدقات، وأظهروا الخلاف] [ولم يكن لهؤلاء نظام ولا رأس].

وقالوا أيضاً، والنص في أكثره لابن أعثم:

وباليمن يومئذ عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب من قبل علي بن أبي طالب، وكان مقيماً بصنعاء، [وعامله على الجند سعيد بن نمران]، فأرسل إلى جماعة من هؤلاء الذين خالفوا علياً، فدعاهم ثم قال: يا هؤلاء! ما هذا الذي أنتم فيه من السعي في الفساد؟! وما أنتم والطلب بدم عثمان؟! وإنما أنتم قوم رعية، وقد كنتم قبل اليوم لازمين بيوتكم، فلما سمعتم بذكر هذه الغارات رفعتم رؤوسكم وخالفتم علينا!

قال: فقالوا: يا أمير! إنا لم نزل نرى مجاهدة من سعى على أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

قال: وأمر عبيد الله بن العباس بحبس رجال منهم فحبسوا. وبلغ ذلك قوماً من أهل اليمن، ممن كان يرى مخالفة علي «رضي الله عنه»، فكتبوا إلى عبيد الله بن عباس: أن خلِّ سبيل من في سجنك من إخواننا، وإلا فلا طاعة لك ولا لصاحبك علينا!

قال: فأبى عبيد الله أن يخلي سبيلهم.

قال: فاستعصى أهل اليمن، ومنعوا زكاة أموالهم، وأظهروا العصيان.

وكتب عبيد الله بن عباس [وسعيد] بذلك إلى علي، وأخبره بما هم فيه أهل صنعاء من الخلاف والعصيان.

فدعا علي بيزيد بن أنس الأرحبي، فقال: ألا ترى إلى صنع قومك باليمن، ومخالفتهم علي وعلى عاملي؟!

فقال يزيد بن أنس: والله يا أمير المؤمنين! إن ظني بقومي لَحُسْنُ طاعتك، وإن شئت سرت إليهم بنفسي، وإن شئت كتبت إليهم ونظرت ما يكون من جوابهم، فإن رجعوا إلى طاعتك، وإلا سرت إليهم فكفيتك أمرهم إن شاء الله.

فقال علي: أكتب إليهم.

قال: ثم كتب علي «رضي الله عنه»:

أما بعد، فقد بلغني جرمكم [تحزبكم] وشقاقكم، واعتراضكم على

عاملي بعد الطاعة والبيعة، فاتقوا الله وارجعوا إلى ما كنتم عليه، فإني أصفح عن جاهلكم، وأحفظ قاصيكم، وأقوم فيكم بالقسط، وإن لم تفعلوا فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، **(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)**.

[وعند المعتزلي: أنه «عليه السلام» أجاب على رسالة عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران بما يلي:

أما بعد، فإنه أتاني كتابكما تذكران فيه خروج هذه الخارجة، وتعظمان من شأنها صغيراً، وتكثران من عددها قليلاً، وقد علمت أن نخب أفئدتكما، وصغر أنفسكما، وشتات رأيكما، وسوء تدبيركما، هو الذي أفسد عليكما من لم يكن عليكما فاسداً، وجرَّأ عليكما من كان عن لقائكما جباناً، فإذا قدم رسولي عليكما، فامضيا إلى القوم حتى تقرءا عليهم كتابي إليهم، وتدعواهم إلى حظهم وتقوى ربهم، فإن أجابوا حمدنا الله وقبلناهم، وإن حاربوا استعنا بالله عليهم ونابذناهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

فكتب علي «عليه السلام» إليهم:

من عبد الله على أمير المؤمنين، إلى من شاق وغدر من أهل الجند وصنعاء.

أما بعد، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا يعقب له حكم، ولا يرد له قضاء، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

[أما بعد، فقد]

وقد بلغني تجرؤكم وشقاقكم وإعراضكم عن دينكم، بعد الطاعة

وإعطاء البيعة، فسألت أهل الدين الخالص، والورع الصادق، واللب الراجح عن بدء محرككم، وما نويتم به، وما أحمشكم له، فحدثت عن ذلك بما لم أر لكم في شيء منه عذراً مبيناً، ولا مقالاً جميلاً، ولا حجه ظاهرة، فإذا أتاكم رسولي فتفرقوا وانصرفوا إلى رحالكم أعف عنكم، وأصفح عن جاهلكم، وأحفظ قاصيكم، وأعمل فيكم بحكم الكتاب.

فإن لم تفعلوا، فاستعدوا لقدوم جيش جم الفرسان، عظيم الأركان، يقصد لمن طغى وعصى، فتطحنوا كطحن الرحى، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، **(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)**. وإلا فلا يحمد حامد إلا ربه، ولا يلم لائم إلا نفسه، والسلام عليكم ورحمة الله. انتهى نص المعتزلي].

قال ابن أعثم:

ثم بعث بكتابه هذا إليهم مع رجل من همذان يقال له: الحر بن نوف بن عبيد. [جبر بن نوف أبو الوداك]

قال: فأقبل الهمذاني بالكتاب إلى أهل اليمن، ثم صار إلى مدينة من مدنهم يقال لها: الجند، وأهل الجند قد كتبوا إلى معاوية، وسألوه أن يوجه إليهم بأمير من قبله.

قال: فقدم عليهم رسول علي فأقرأهم الكتاب ثم قال: اعلموا أن أمير المؤمنين علياً أراد أن يوجه إليكم يزيد بن أنس [بن قيس الأرحبي] في الخيل والرجال، ثم إنه لم يحب أن يعجل عليكم، فاتقوا الله، ربكم ولا تفسدوا في أرضكم، ولا تقاتلوا إمامكم.

قال: فتكلم قوم من كبرائهم، فقالوا: يا هذا! إنا قد سمعنا كلامك، فاذهب إلى علي «رضي الله عنه»، فليبعث إلينا من شاء، فإنا على بيعة أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

قال: ثم كتبوا إلى معاوية:

أما بعد، يا أمير المؤمنين! فالعجل العجل! وجه إلينا من قبلك لنبايعك على يديه، وإلا كتبنا إلى علي فاعتذرنا إليه مما كان منا. والسلام(1).

وعند البلاذري ما ملخصه:

كان عبيد الله بن العباس عامل علي على اليمن وسعيد بن نمران الهمداني على الجند، قد اشتدا على أهل صنعاء، فيما يجب عليهم، وطردا قوماً من شيعة عثمان عنها.

فتجمعت العثمانية، وادعت أن الأمر قد أفضى إلى معاوية، واجتمع الناس عليه، فكتب عبيد الله بن العباس وسعيد بن نمران بذلك إلى علي، فوجه إليهما جبر بن نوف أبا الوداك بكتاب ينسبهما فيه إلى العجز والوهن.

فأرجف عبيد الله وسعيد بأن يزيد بن قيس الأرحبي قد فصل من عند علي في جيش عظيم يريدهم. وسألا أبا الوداك أن يحدث بذلك

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج4 ص229 - 231 وراجع: بحار الأنوار ج34 ص7 - 9.

ويشيعه، ففعل.

فكتبوا إلى معاوية:

معاوية إلا تسرع السير نحونا   نبايع علياً أو يزيد اليمانيا

وإن كان فيما عندنا لك حاجة   فأرسل أميراً لا يكن متوانيا

فبعث معاوية بسر بن أبي أرطاة في ألفين وست مئة انتخبهم بسر، وقال له: يا بسر قد فتحت مصر، فعز ولينا وذل عدونا، فسر على اسم الله، فمر بالمدينة فأخف أهلها الخ.. (1).

ثمرات الغارات:

ذكرنا فيما سبق طائفة من النصوص التي ذكرت غارات بسر على البلاد والعباد، وكيف تم التعامل معها..

وقد كانت لهذه الغارات بعض الآثار على روحيات الناس، وعلى أفكارهم، ثم على تحركاتهم، ومواقفهم، ومن هذه الثمرات هرب بعض أهل الأطماع إلى معاوية.

وسيأتي عن قريب: أن معاوية كان ينوه بها، ويصرح بأنها كانت من أهداف تلك الغارات.

وقد صرح عبيد الله بن عباس: بأن العثمانية في بلاد اليمن قد

---

(1) أنساب الأشراف (ط سنة 1416هـ) ج2 ص351 و (ط الأعلمي) ج2 ص453.

لزموا بيوتهم، ولم يأتوا بأية حركة، إلى أن سمعوا بذكر الغارات، فأنغضوا رؤوسهم وأعلنوا الخلاف. وشعروا بأن الفرصة مؤاتية، لأن الوهن قد طغى على أصحاب علي «عليه السلام» بما ظهر عليهم من تخاذل وتواكل..

وهذا إحدى ثمرات الغارات التي توخاها معاوية، وكان يريد أمير المؤمنين «عليه السلام» أن يتلافاها، فكان يحاول أن يدفع أصحابه إلى مواجهة المغيرين.. ويرسل الجيوش لملاحقتهم، ويأمرهم بإخراجهم من البلاد كلها، وكان كل همه أن ينفر الناس بأعداد كبيرة، وبصورة جماعية لمواجهة المغيرين، لينزل بهم ضربات قوية وقاصمة..

ولو أن أصحابه أطاعوه مرة واحدة لانتهت القضية، ولدب اليأس إلى قلوب المتربصين والمعتدين..

ولكن تباطؤ أهل العراق وسأمهم للحرب، وحبهم للراحة قد أفشل خطته، وجرَّأ معاوية على متابعة خطته، حتى انتهت الأمور إلى ما توقعه «عليه السلام»، وما قصد إليه معاوية..

موقف علي × من العصاة والولاة:

1 - وقد لاحظنا: أن النصوص السابقة تذكر: أن ابن عباس قد تصدى في بداية الأمر للعصاة والمتمردين، وحبس رجالاً منهم.. ولم نر علياًً «عليه السلام» قد اعترض عليه، بل كان ـ فيما يبدو ـ راضياً عن تصرفه، وقد اعتبرهم مجرمين، بل هو قد كتب إليهم

يتهددهم ويتوعدهم.. وبالتمعن في كتابه إليهم نرى أنه قد تضمن الأمور التالية:

أولاً: إنه «عليه السلام» قد أخذ على أولئك العصاة الذين وصفهم في رسالته بالمجرمين أموراً، هي:

ألف: أنهم قد تحزبوا، وهذا مرفوض عنده، لأن في التحزب شرذمة وتفرقاً وعبثاً في النسيج الإجتماعي، ووضع حدود وفواصل بين الناس، وفيه إعداد لنشوء عصبيات لم يكن لها وجود. وهذا مضر جداً في المجتمع الواحد، لأن الله تعالى يريد أن يكون الأمة كلها بمثابة أسرة واحدة تربطها وشائج محبة، وأخوة إيمانية. ولها رئيس، ومرب، وأب واحد، يدبر شؤونها من موقع المحبة والعقل، والدراية والحكمة. والتحزب ينقض بناء هذه الأسرة، ويشرذمها، ويضع حدوداً وفواصل بينها كما قلنا.

ب: إنهم بادروا إلى الشقاق، والإختلاف، والتفريق، والمنازعة. وهذه جريمة أخرى تحمل معها الضغائن، والإتهام المتبادل بالخروج عن جادة الإستقامة والعدل، وتكرِّس الإختلاف بتكريس مناشئه كأسس ومنطلقات للإتفاق والإفتراق، مع أن الحق والحكم الشرعي، وحقائق الدين، ومقتضيات الإيمان هي التي تجمع وتفرق، وتبعد، وتقرب..

ولو أن هذا الشقاق انطلق من عدم اطلاعهم على الحقائق الإيمانية، والأحكام الشرعية، ومن الحقوق والمبادئ لأمكن التغاضي

عنه إلى حين حصحصة الحق لهم فيه، ووضع النقاط على الحروف.

ولكنه لم يكن كذلك، فقد سبقته المعرفة والطاعة والرضا، والقبول والتسليم، والبيعة، ومما يعني: أن الأهواء والعصبيات والميول هي التي تقف وراء الشقاق، وأن الطاعة والبيعة السابقة قد فرضها عليهم فقدان الحيلة، وعدم وجود سبيل، أو حجة ودليل يبرر الخلاف.. إذ لو كان لديهم مقال يمكن أن يكون مقبولاً ومعقولاً لأدلوا به، وبرروا به عزوفهم عن الطاعة والبيعة من أول الأمر.. لا سيما وأن علياً «عليه السلام» قد بقي أياماً كثيرة، وهو يأبى قبول البيعة له..

وحتى بعد أن بويع له، فإنه أرسل من ينادي في الناس: هل من كاره؟! فلما لم يجد أحداً يدعي كراهته نهض بالأمر..

فهذا الشقاق والعصيان يصبح بلا مبرر..

ج: إن سبق بيعتهم طوعاً لأمير المؤمنين «عليه السلام» يحملهم مسؤولية شرعية بعدم جواز نقض البيعة، ويرتب أحكاماً يستطيع أن يواجههم «عليه السلام» بها لو ارتكبوا جرم هذا النقض.

د: تضمنت رسالته «عليه السلام» لهم أمراً لم نستطع أن نفهمه من سياق حديث الناقلين لما حدث، فقد ذكر «عليه السلام»: أن العثمانية لم يكتفوا بمجرد منع الزكاة، وإظهار البراءة من علي «عليه السلام»، وعصيان أوامره. بل تجاوزوا ذلك إلى الإعتراض على عامله «عليه السلام»..

مما يعنى: أنهم قد تقدموا باتجاه المواجهة مع العامل المنصوب من قبله «عليه السلام».. وليس في أيدينا ما يدل على المدى الذي بلغته هذه المواجهة، وهل اقتصر الإعتراض على مجرد المنافرة في الكلام، أو أنه تعدى ذلك إلى تصرفات تستبطن التمرد، والإهانة والإستهانة، وعرقلة مسيرته العملية، ومنعه من القيام بوظائفه؟! وما هي طبيعة وحقيقة هذه التصرفات يا ترى؟!

هـ: تضمنت الرسالة بحسب النص الذي ذكره المعتزلي: أنهم قد أعرضوا عن دينهم أيضاً، ولكنها لم تبين لنا تجليات ودلائل هذا الإعراض.. هل تركوا صلاتهم، أو صومهم؟! أو أنهم تظاهروا بالحنين إلى دين آخر كان دينهم، أو دين آبائهم؟! أو أنه قد ظهر على تصرفاتهم العزوف، وعدم المبالاة بمراعاة أحكام دينهم؟!

و: إنه «عليه السلام» وصف الذين تمردوا على عامله: بأنهم قد غدروا به، والمراد بالغدر: نقض العهد، وهذه جريمة أخرى يطالبون بها.. وذلك لأنهم حين بايعوا قد أعطوا عهداً بالطاعة، وبالنصرة، لا مجرد المسالمة وعدم إعلان الحرب.. وها هم قد صرحوا بعدم الطاعة له «عليه السلام»، وهذا غدر ونقض للعهد..

ثانياً: إنه «عليه السلام» بدأ الكلام مع أهل صنعاء وأهل الجَنَد ـ بفتحتين ـ بالحديث عن أن الله تعالى: «لا يعقب له حكم، ولا يرد له قضاء». ربما لكي يفهمهم: أنه فيما يقوله لهم، لا يتجنّى، ولا يخالف حكم الله، بل هو منسجم مع أحكامه وشرائعه تعالى، ومع قضائه

سبحانه، فيمن يرتكب أمثال هذه الجرائم..

ومن الواضح: أن أحكامه تعالى غير قابلة للتعقيب عليها، بزيادة، ولا بنقيصة، ولا بأي شيء آخر..

ثم أشار إلى أنه تعالى «لا يرد بأسه عن القوم المجرمين»، فلا مجال إذن للتهرب من إجراء قضائه سبحانه، ولا من العقوبة على مخالفة أحكامه..

كما أنه يطمئنهم بذلك: إلى أنه لا يريد أن يظلمهم، ولا أن يفرض عليهم آراءه، أو ينساق مع انفعالاته التي قد يتوهمون أنها خارجة عن الحد المعقول والمقبول.

شهادة الأعوان لا تكفي:

إنه «عليه السلام» لم يكتف بسماع أخبار العصيان التي ربما تتوالى وتتواتر حتى تكاد تفيد اليقين.

ولا عوَّل على ما يخبره به عامله حول أمر يعنيه أكثر من غيره. والذي قد يكون له نوع ارتباط بما جرى بسبب سوء معاملة، أو تقصير، أو قصور، أو نحو ذلك.

كما أنه لم يوكل أحداً باستعلام الحال، وإعطائه تقريراً عن الموضوع.. بل أجرى بنفسه تحقيقاً حول الأمر.. فإن الحكم للناس أو عليهم يحتاج إلى الوقوف المباشر على ما جرى، ولا يجوز أن يكون المتيقن شخصاً، والحاكم شخصاً آخر.

مواصفات الذين سألهم:

وقد كان يمكن لأمير المؤمنين «عليه السلام» أن يصدر حكمه، وأوامره، ويقرر ما يريده من أولئك العصاة، وينتهي الأمر، ثم يبلغهم بما حكم وقرر..

ولكنه لم يفعل ذلك، بل ذكر لهم أنه سأل عن أمرهم، وتحقق مما جرى..

وكان يمكنه أيضاً: أن يقتصر على هذا الخبر، ولكنه لم يفعل.. بل ذكر لهم أوصاف الذين سألهم، مصرحاً لهم بأنهم من أهل الثقة والأمانة.

ولم يكتف بذلك أيضاً، بل ذكر لهم تفاصيل المواصفات التي توخاها في أولئك الذين سألهم، وهي الأمور التالية:

1 - إنه سأل أهل الدين.. ولم يقل: سألت بعض أهل الدين. ليظهر أن من المحتمل أن يكون قد سألهم كلهم، أو أكثرهم على الأقل..

2 - إنه لم يسأل مطلق من يُعدّ من أهل الدين، بل اختار خصوص أهل الدين الخالص. أي الذي لا تشوبه الدنيا، وليس فيه شبهات، وأباطيل، وعصبيات، أو أضاليل..

3 - إنه «عليه السلام» اختار أن يكون المسؤول هم أهل الورع، وهم الذين يتوقفون فيما فيه ريب وشبهة..

4 - واختار «عليه السلام» من له ورع صادق، لا مطلق من

يتظاهر بالورع، مع أنه قد يكون مصطنعاً، وإنما يعرف هؤلاء بالتجربة والمراقبة، والإختبار، والتدقيق معهم، والسؤال عنهم.

5 - واختار أيضاً خصوص أصحاب اللب من العقلاء، لأن هناك فرقاً بين العاقل وبين ذي اللب، فالعقل اسم للقوة المدركة للأمور كيفما كانت.. أما اللب، فهو ما زكا من العقل، فكل لب عقل، ولا عكس، فإن للعقول مراتب من الجودة والقوة، والنقاء والخلوص من شوائب المصالح والأهواء. وقد ورد الأمر بأن نكلم الناس على قدر عقولهم..

6 - واختار أيضاً من ذوي الألباب الذين تتفاوت مراتبهم أيضاً خصوص من كانت ألبابهم راجحة على ألباب الآخرين..

وكل هذا رغبة منه «عليه السلام» في إنصافهم، وتوخي الخير والوفاء والنصح لهم، ولأنه يريد أن يكون رفيقاً بهم، ويزيل أي احتمال للتسرع في أمرهم، أو التقصير في إنصافهم، أو في تحري الأمور في شأنهم..

ما الذي سأل عنه علي ×؟!:

وقد كان بإمكان علي «عليه السلام» أن يقول لأهل صنعاء والجند: لقد سألت عن أمركم أهل الدين والورع و.. و.. فلم أر لكم عذراً فيما فعلتموه، ولم يكن بحاجة إلى إخبارهم بالذي استفسر عنه..

ولكنه «عليه السلام» تعمد التطرق إلى هذا أيضاً، نتعلم منه كيفية التعامل مع أمثال هذه القضايا.. كما أنه يريد أن يعلم العصاة

أنفسهم: بأن عليهم أن لا يتوهموا أنه قد تجاوز الحدود المسموح بها شرعاً في أمرهم.

والأمور التي ذكر أنه سأل عنها هي التالية:

1 - لقد سأل «عليه السلام» عن أنه كيف بدأت المشكلة.. وما هي أول كلمة، أو حركة، أو شرارة أطلقت.. قال «عليه السلام»: «فسألت أهل الدين الخالص، والورع الصادق، واللب الراجح عن بدء محرككم». فإن معرفة هذه النقطة تفيد جداً في تحديد المخطئ والمتسبب بالمشكلة، فلعل تصرفاً، أو خطأً صدر من عامله عليهم أثار حفيظتهم، ثم تفاقمت الأمور حتى انتهت بالعصيان. أو لعل إجحافاً، أو تقصيراً ما قد جرى في حقهم.. أو لعل صاحب فتنة تسبب فيما جرى، أو لعل أمراً قد فهم خطأً.. ولعل.. ولعل..

2 - ذكر «عليه السلام» أيضاً: أنه سأل أولئك الثقات عن: «ما نويتم به» أي عن مقاصدكم التي تريدون الوصول إليها، ليعلم إن كانت مما يمكن الإغضاء عنه، والتهاون به أم لا، بل هي مما يحدث ضرراً بالغاً بالكيان كله.

فظهر له أنها من هذا النوع الأخير.

3 - وقال «عليه السلام»: أنه سألهم عن الأمر الذي أثار غضبهم، ودفعهم إلى البراءة منه «عليه السلام»، وإلى نقض البيعة، ومنع الصدقات، وإظهار العصيان، فظهر له: أنها لم تكن أسباباً وجيهة تبرر هذا الغضب..

وبذلك يظهر: أن هذه الأمور الثلاثة هي التي يجب أن تكون المنطلق في التعامل مع أمثال هذا الذي جرى.. وهي التي تحتم طريقة التعامل معهم، ومستواه.

فلو أنه «عليه السلام» رأى لهم في هذه الأمور عذراً ظاهراً، أو وجد لهم مقالاً جميلاً، أو نوايا صالحة، كأن منعوا الصدقات لأجل معونة فقرائهم بها، أو برئوا من علي «عليه السلام» لأنه بلغهم عنه ما يوجب ذلك ـ ولو كان الخبر كذباً مثلاً ـ.

وكذا لو وجد لهم حجة تبرر غضبهم، كأن رأوا ظلماً ظاهراً، أو استئثاراً، أو تعدياً على الحرمات، أو وهناً في الدين، أو ما إلى ذلك.. لكان موقفه منهم مختلفاً تماماً عما هو عليه الآن..

إعطاء الفرصة، ومنح العفو:

وبالرغم من أنه «عليه السلام» لم يجد له عذراً، ولا مقالاً جميلاً، ولا حجة ظاهرة، فإنه «عليه السلام» لم يدفع الأمور إلى الحد الأقصى.. بل منحهم فرصة جديدة، من شأنها أن تصلح الأمور، وتعيدها إلى نصابها..

وهذا يدلنا: على أن من الضروري ـ في الحالات المشابهة ـ: أن يُمنح المخطئ فرصة للتراجع عن خطئه، وأن يمنح العفو إذا كان ذلك يصلحه.. لأن الإصلاح أولوية عند الحاكم العادل، والحكيم الأريب، وهو أساس سياسته، وإنما يلجأ إلى الإجتثاث والحسم حين لا يجد سبيلاً إلى الإصلاح، وقد يصبح التأجيل مساوقاً لتسميم الكيان كله،

والتسبب بالقضاء على سائر نبضات الحياة فيه.

ولذلك كتب «عليه السلام» إلى أولئك العصاة، بعد أن بيَّن لهم كل ما قدمناه: «فإذا أتاكم رسولي فتفرقوا، وانصرفوا إلى رحالكم أعف عنكم، وأصفح عن جاهلكم، وأحفظ قاصيكم، وأعمل فيكم بحكم الكتاب».

ولكنه حين ذكر الخيار الآخر لم يقل: ومن لم يفعل أطحنه طحن الرحى، بل تهددهم بقدوم جيش «جم الفرسان، عظيم الأركان، يقصد لمن طغى وعصى، فتطحنوا كطحن الرحى، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها إلخ..».

أي أنه:

أولاً: قد جعل أمر الإيقاع بهم مرهوناً بالطغيان والعصيان منهم..

ثانياً: حملهم هم مسؤولية ما يجري لهم، بعد مرورهم بالمراحل التالية..

ألف: إنهم بعد أن نقضوا عهده وبيعته، وتبرأوا منه، ومنعوا صدقاتهم.

ب: أعطاهم فرصة ليتفرقوا ويعودوا، لكي لا يكون له عليهم سبيل.

ج: إن لم يعودوا ولم يتفرقوا.. فسيرسل جيشاً كثير الفرسان، عظيم الأركان، ولكنه لا يصنع شيئاً، بل يبقى في حالة انتظار

وترقب.

د: فإن طغوا وعصوا، فإن ذلك الجيش سوف يتصدى لهم، لأنهم هم فعلوا ذلك بأنفسهم.

كتاب علي × إلى عامليه على صنعاء والجند:

وقد ذكرنا فيما سبق كتاب علي «عليه السلام» إلى عبيد الله بن عباس عامله على صنعاء، وسعيد بن نمران عامله على بلد آخر اسمه «الجَنَد»، وهو شمالي تعز، يبعد عن صنعاء ثمانية وأربعين فرسخاً.

وقد نقلنا كتابه إليهما عن المعتزلي والثقفي أيضاً(1).

وقد رأينا: أنه «عليه السلام» قد شد النكير على عبيد الله، وابن نمران، من جهات:

أولاها: أنهما قد عظما شأن أولئك العصاة، مع أن شأنهم صغير، وكثَّرا من عددهم، وهو قليل..

الثاني: اتهم «عليه السلام» عامليه: بأنهما هما السبب في فساد من لم يكن فاسداً عليهما، وجرأا عليهما من كان عن لقائهما جباناً، [أو أيقظا من كان عنهما نائماً].

الثالث: إنه «عليه السلام» قد اتهم عامليه بأمور أربعة، هي

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص592 و 597 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص4 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص127 وبحار الأنوار ج34 ص7 و 8 ونهج السعادة ج5 ص363.

السبب في فساد العصاة وجرأتهم.. وهي:

1 ـ نخب ـ أي جبن ـ أفئدتهما.

2 ـ وصغر أنفسهما.

3 ـ شتات [تباب] رأيهما.

4 ـ سوء تدبيرهما..

ولكنه «عليه السلام» لم يعذر أولئك العصاة، ولا هون من جرمهما، ولا تنازل عن قراره بالمواجهة معهم إن أصروا على المنابذة.

بل أمر عامليه بإيصال رسالته التي كتبها لأولئك العصاة «فإن أجابوا حمدنا الله وقبلناهم، وإن حاربوا استعنا بالله عليهم ونابذناهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين».

لماذا الشدة على عاملَيه؟!:

وإذا أردنا أن نجيب عن السؤال عن سبب هذه الشدة التي أبداها «عليه السلام» على عبيد الله بن عباس، وسعيد بن نمران: فإننا نقول:

ذكر «عليه السلام»: أن سبب ما جرى هو الأمور الأربعة التي ذكرناها آنفاً، وهي: الجبن، وتباب الرأي، وسوء التدبير، وصغر النفس.

وتوضيح ذلك جاء في رواية الثقفي «رحمه الله»، فقد ذكر: أنه لما اختلف الناس على علي «عليه السلام»، وقتل محمد بن أبي بكر

بمصر، وكثرت الغارات، وتحركت العثمانية بصنعاء، ودعوا إلى الطلب بدم عثمان، وحبس عبيد الله جماعة منهم، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بالجند، فثاروا بواليهم سعيد بن نمران، فأخرجوه من الجند، وخرج إليهم من كان بصنعاء، ولحق بهم من لم يكن على رأيهم، وممن أراد منع الصدقة..

فاجتمع سعيد بن نمران بعبيد الله بن عباس، فقال له ابن عباس: إن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدائرة.

ثم كتب إلى علي «عليه السلام» بخبرهم، وعددهم، وأنهم استولوا على الجند، وجاء في ذلك الكتاب: «وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين، ومن كان على طاعته، وإن ذلك أحمشهم وألبهم، فتعبوا لنا، وتداعوا علينا من كل أوب.. إلى أن تقول الرسالة: فنحن في خير، وهم منك في قفزة، وليس يمنعنا إلا إنتظار الأمر من مولانا أمير المؤمنين إلخ..»(1).

فقد دلنا ما تقدم: على أنه «عليه السلام» قد تغيظ على عامليه، لأنهما كانا قادرين على إخراج العصاة من الجند، ولكنهما خافا أن تكون الدائرة عليهما. ولم يكونا بحاجة إلى الإنتظار كل تلك المدة التي كانت تكفي لأن يحكم العصاة قبضتهم على البلاد، وتقوى شوكتهم،

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص594 ونهج السعادة ج5 ص363 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص4.

وتعطيهم الفرصة للطلب ممن هم على رأيهم في سائر البلاد ليأتوا إليهم لمعونتهم.

فكانوا قلة قليلة كان يمكن تسديد الضربة إليهم، وإنهاء تحركهم بأهون سبيل. ولكن إفساح المجال لهم جعل التخلص من هذا المأزق مكلفاً جداً.

ودلنا قول البلاذري المتقدم: على أن ابن عباس لم يحسن التصرف مع العثمانية، فقد قال: «تشدد على أهل صنعاء فيما يجب عليهم، وطرد قوماً من شيعة عثمان عنها»**(1)**. وهذا يوجب تعاطف الناس معهم، واعتبارهم مظلومين، ويستحقون الشفقة والمؤازرة.

ويزيد في قبح ما أتياه: أنهما عظَّما أمر العصاة، وذكرا لهم أعداداً غير واقعية.

مواصفات في القادة، وضوابط في السياسة:

وقد دلنا هذا النكير الذي سجله «عليه السلام» على عامليه: أن المطلوب أن تتوفر بمن يتولى الأعمال الجليلة الصفات التالية:

1 - أن يكون شجاعاً.

2 - أن يكون عزيز النفس.

3 - أن يكون سديد الرأي.

---

(1) أنساب الأشراف (ط الأعلمي) ج2 ص453.

4 - حسن التدبير.

وأن يراعي في سياساته أمرين:

أولهما: أن يحافظ على مهابته، وموقعه في النفوس، فلا يتبع سياسات تسقط هيبته، وتجرئ الناس عليه.

الثاني: أن يستديم في سياساته ولاء الناس له، فلا يصدر منه ما يفسد قلوبهم عليه، ويدعوهم إلى البحث عن بديل.

الفصل الثاني:

غارات بسر نصوص وآثار..

بداية:

نذكر في هذا الفصل طائفة من النصوص التي ذكرت غارات بسر بن أبي أرطأة.. ونحاول أن ندمج بعضها ببعض، بحيث تصبح قادرة على إعطاء الإنطباع الكافي عن نهج معاوية، وجرائم بسر.

ثم نعقب ذلك بفصل نشير فيه إلى شيء مما يرتبط بتعامل أمير المؤمنين «عليه السلام» مع هذه الأحداث، ولا نهمل الإشارة إلى شيء ـ ولو يسير ـ مما يمكن أن يستفاد من كلماته «عليه السلام» في هذا السياق، فنقول:

12 ـ غارات بسر وأوامر معاوية:

قالوا:

وجه معاوية بسر بن أبي أرطاة، وقيل : ابن أرطاة العامري ـ من بني عامر بن لؤي ـ في ثلاثة آلاف رجل، فقال له: سر حتى تمر بالمدينة، فاطرد أهلها، وأخف من مررت به، وانهب مال كل من أصبت له مالاً

ممن لم يكن دخل في طاعتنا. وأوهم أهل المدينة أنك تريد أنفسهم، وأنه لا براءة لهم عندك، ولا عذر.

وسر حتى تدخل مكة، ولا تعرض فيها لأحد.

وارهب الناس فيما بين مكة والمدينة، واجعلهم شرادات.

ثم امض حتى تأتي صنعاء؛ فإن لنا بها شيعة، وقد جاءني كتابهم.

فخرج بسر، فجعل لا يمر بحي من أحياء العرب إلا فعل ما أمره معاوية، حتى قدم المدينة وعليها أبو أيوب الأنصاري ، فتنحى عن المدينة(1).

وقالوا، والنص لابن أعثم:

فعندها دعا معاوية بسر بن [أبي] أرطاة الفهري، [وكان قاسي القلب، فظاً سفاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمة]، وهو أحد فراعنة الشام، فعقد له عقداً، وضم إليه أربعة آلاف رجل من نجبة(2) رجال أهل الشام، ثم قال له: سر إلى اليمن سيراً عنيفاً حتى تأخذ بيعة الناس، فإنهم قد خالفوا علياً «عليه السلام».

وانظر أن تجعل طريقك على مكة والمدينة، فلا تنزلن بلداً أهله

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص197 وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص6 و 7 وراجع: الغارات للثقفي ج2 ص600 وبحار الأنوار ج34 ص9 والغدير ج11 ص23.

(2) لعل الصحيح: نخبة.

في طاعة علي «عليه السلام» إلا بسطت لسانك عليهم حتى يظنوا أنك محيط بهم، وأنه لا نجاة لهم منك.

ثم اصفح عنهم بعد ذلك، وادعهم إلى البيعة [لي]، فمن أبي عليك فاستعمل السيف، واقتل كل من نابذك حتى تدخل أرض اليمن. [واقتل شيعة علي «عليه السلام» حيث كانوا].

قال: فخرج بسر بن [أبي] أرطاة في أربعة آلاف فارس من دمشق يريد المدينة، وعلى المدينة يومئذ أبو أيوب الأنصاري من قبل علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، فلما أحس بخيل بسر أنها قد شارفت المدينة خرج منها هارباً خوفاً على نفسه. [فأتى علياً «عليه السلام» في الكوفة].

بسر في المدينة:

قال: وخرج أهل المدينة إلى بسر يستقبلونه خوفاً منه على أنفسهم، فلما نظر إليهم صاح بهم وانتهرهم.

ثم قال: شاهت الوجوه! إن الله تعالى ضرب لكم مثلاً: **(قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)**(1).

فقد وقع بكم هذا المثل وأنتم أهل لذلك، لأن بلادكم هذه قد كانت مهاجر نبيكم «صلى الله عليه وآله»، ومنازل الخلفاء من بعده، فلم

---

(1) الآية 112 من سورة النحل.

تشكروا نعمة الله ربكم، ولم ترعوا حق أئمتكم، حتى قتل خليفة الله بين أظهركم، فكنتم بين قاتل، وخاذل، وشاتم، ومتربص.

أما والله، لأفعلن بكم الأفاعيل، ولأجعلنكم أحاديث كالأمم السالفة..

يا أشرار الأنصار، وحلفاء اليهود! ويا أسماء العبيد! إنما أنتم بنو النجار، وبنو دينار، وبنو سالم، وبنو زريق، وبنو طريف، وبنو عجلان.

أما والله، لأوقعن بكم وقعة تشفي صدور المؤمنين!

قال: ثم دخل المدينة فصعد المنبر [فنادى على المنبر: يا دينار! ويا نجار! ويا زريق! شيخي، شيخي، عهدي به بالأمس، فأين هو؟! يعني عثمان]. وتكلم بنظير ذلك الكلام، حتى خاف أهل المدينة أن يوقع بهم.

فقال له حويطب بن عبد العزى، وهو على المنبر:

أيها الأمير! عشيرتك، وقومك، وأنصار نبيك، وليسوا بقتلة عثمان، فالله الله إليهم!

قال: فلم يكلمه بسر بن [أبي] أرطاة بشيء، غير أنه مكث، وكف عن بعض الكلام، وأمر بدور قوم من الأنصار فحرقت وهدمت، ثم دعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه. [فبايعه قوم، وهرب منه قوم، فهدم منازلهم].

ثم أرسل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري ليأتيه، فلم يفعل، وذلك أنه كان شيخاً كبيراً، فهم بقتله، حتى أرسلت إليه أم سلمة زوج النبي

«صلى الله عليه وآله»، وسألته الأمان له.

فقال بسر: لا والله لا أؤمنه حتى يبايع معاوية.

قال: فبايع جابر بن عبد الله معاوية على الكره منه.

وأقام بسر بالمدينة أياما حتى أخذ البيعة لمعاوية.

[وحسب نص الطبري:

وأرسل إلى بنى سلمة، فقال: والله! ما لكم عندي من أمان، ولا مبايعة، حتى تأتوني بجابر بن عبد الله؟!

فانطلق جابر إلى أم سلمة زوج النبي «صلى الله عليه وآله»، فقال لها: ماذا ترين إني قد خشيت أن أقتل، وهذه بيعة ضلالة؟!

قالت: أرى أن تبايع، فإني قد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن يبايع، وأمرت ختني عبد الله بن زمعة، وكانت ابنتها زينب ابنة أبى سلمة عند عبد الله بن زمعة.

فأتاه جابر، فبايعه.

[وعند اليعقوبي، قالت: إذن فبايع، فإن التقية حملت أصحاب الكهف على أن كانوا يلبسون الصلب، ويحضرون الأعياد مع قومهم].

وهدم بسر دوراً بالمدينة.

ثم نادى في الناس، فجمعهم، ثم قال: يا أهل المدينة! إني قد صفحت عنكم، وما أنتم لذلك أهل، لأنه ما من قوم قتل إمامهم بين

أظهرهم، فلم يدفعوا عنه بأهل أن يعفى عنهم، وإن نالتكم العقوبة في الدنيا، فإني أرجو أن لا تنالكم رحمة الله عز وجل في الآخرة.

ألا وإني استخلفت عليكم أبا هريرة، فاسمعوا له وأطيعوا. وإياكم والخلاف! فو الله لئن عدتم لمعصية لأعودن عليكم بالهلاك، وقطع النسل.

بسر في مكة:

ثم سار من المدينة يريد مكة، وبها يومئذ قثم بن العباس، فخرج عنها هارباً خوفاً على نفسه، حتى إذا أشرف بسر بن [أبي] أرطاة على مكة، خرج إليه أشراف أهلها، فلما نظر إليهم انتهرهم، وشتمهم.

ثم قال: أما والله! لولا خلّة واحدة أوصاني بها أمير المؤمنين معاوية لما تركت منكم أحداً يمشي على وجه الأرض.

قال: فقال له أشراف مكة: أيها الأمير! فإنا نذكرك الله في بيضتك، وعشيرتك، وأهل حرم الله، وحرم رسوله «صلى الله عليه وآله».

قال: فسكت بسر، ولم يتكلم بشيء. وسار حتى جاز بئر ميمون، جعل الناس يهربون بين يديه خوفاً منهم على أنفسهم.

بسر يقتل ابني عبيد الله بن عباس:

قال: ونظر بسر إلى غلامين من أحسن الغلمان هيئة وجمالاً، وهما هاربان. فقال: علي بهما!

فأتي بهما، حتى وقفا بين يديه. فقال لهما: من أنتما؟!

فقال أحدهما: أنا قثم، وهذا أخي ابنا عبيد الله بن عباس بن عبد المطلب.

فقال بسر: الله أكبر! أنتما ممن أتقرب بكما، وبسفك دمائكما إلى الله تعالى!

قال: ثم أمر بهما فذبحا ذبحاً.

وبلغ ذلك أمهما، فجزعت عليهما طويلاً. ثم أنشأت تقول:

ها من أحس بابني اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم
ها من أحس بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما
من دل والهة حرى مدلهة على جبينين ضلا إذ غدا
ها من أحس بابني اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم
نبئت بسرا وما صدقت ما من إفكهم ومن القول الذي
أنحى على ودجي ابني مرهفة من الشفار كذاك الإثم يقترف

هكذا ذكر ابن أعثم.

[ولكن ذكر غيره: أن قتل أبناء ابن عباس كان في صنعاء.

فبعد أن ذكروا: أن عبيد الله بن عباس خرج من صنعاء هارباً إلى الكوفة، قالوا:

ولقي بسر ثقل عبيد الله بن عباس، وفيه ابنان له صغيران، فذبحهما.

وقد قال بعض الناس: إنه وجد ابني عبيد الله بن عباس عند رجل من بنى كنانة من أهل البادية، فلما أراد قتلهما قال الكناني: علام تقتل هذين ولا ذنب لهما؟! فإن كنت قاتلهما، فاقتلني.

قال: أفعل.

فبدأ بالكناني، فقتله، ثم قتلهما.

ثم رجع بسر إلى الشأم، وقد قيل (كما ذكره الثقفي): إن الكناني قاتل عن الطفلين حتى قتل.

وقال نسوة من بني كنانة: يا بسر! هكذا الرجال يقتلون، فما بال الولدان؟! والله! ما كانت الجاهلية تقتلهم. والله! إن سلطاناً لا يشتد إلا بقتل الصبيان لسلطان سوء.

فقال بسر: والله! لقد هممت أن أضع فيكن السيف.. وقدم الطفلين، فذبحهما.

وكان اسم أحد الطفلين اللذين قتلهما بسر: عبد الرحمن، والآخر: قثم.

وقتل بسر في مسيره ذلك جماعة كثيرة من شيعة على «عليه السلام» باليمن].

خطبة بسر في مكة:

وقال ابن أعثم:

قال: ثم دخل عدو الله إلى مكة، فطاف بالبيت، وصلى ركعتين،

وقام فقال:

الحمد لله الذي جمع لنا أمرنا، وأعز دعوتنا، وكبت عدونا بالقتل والتشريد. هذا علي بن أبي طالب بناحية من العراق في قلة وذلة، قد سلبه اليوم جزيل عطائه، وأسلمه اليوم بجريرته، وهذا معاوية بن أبي سفيان ولي الأمر، والطالب بدم الخليفة عثمان بن عفان، فبايعوه، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً.

قال: فبايع الناس معاوية بالكره منهم، وهم في ذلك ناقمون على بسر بن [أبي] أرطاة لوقعته في علي بن أبي طالب «عليه السلام».

قال: وأقام بسر بن [أبي] أرطاة بمكة أياماً، ثم عاد ودعا بشيبة بن عثمان العبدري، واستخلفه على أهل مكة.

وقال: يا أهل مكة! اعلموا أني قد صفحت عنكم بعد أن كان رأيي استئصالكم، فإياكم والخلاف! فوالله لئن خالفتم لأقتلن الرجال منكم، ولأحوين الأموال، ولأخر بن الديار، ولأفنين الصغار والكبار.

وقال الطبري:

[ثم مضى حتى أتى مكة فخافه أبو موسى أن يقتله، فقال له بسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله «صلى الله عليه وآله» ذلك. فخلى عنه. وكتب أبو موسى قبل ذلك إلى اليمن أن خيلا مبعوثة من عند معاوية تقتل الناس، تقتل من أبى أن يقر بالحكومة].

بسر في الطائف:

قال: ثم سار يريد الطائف، حتى إذا دنا منها خرج إليه المغيرة بن شعبة، فاستقبله، وكلمه في قومه.

فقال: أيها الأمير! إنه لم يزل يبلغنا عنك منذ خرجت من الشام شدتك على عدو أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وكنت في ذلك محموداً عندنا، وإنك أيها الأمير متى كان عدوك ووليك عندك في منزلة واحدة تأثم في ربك، وتغرى الناس بك.

قال: فأمسك بسر، ولم يؤذ أحداً من أهل الطائف.

ثم نزل ودعا برجل من أصحابه، فأرسله إلى تبالة، وبها يومئذ قوم من شيعة علي «رضي الله عنه»، فأمر بقتلهم، فقتلوا عن آخرهم.

بسر في نجران:

قال: ثم سار بسر إلى نجران، وبها يومئذ رجل من أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله» يقال له عبد المدان، فسماه النبي «صلى الله عليه وآله» عبد الله، وكان من شيعة علي رضي الله عنه، فقتله بسر بن [أبي] أرطاة، وقتل ابناً له يسمى مالكاً، فأنشأ بعض بني عمه يقول:

فلولا أن أخاف صيال بسر بكيت على بني عبد المدان

قال: ثم جعل بسر يتهدد أهل نجران بالقتل، ويقول لهم:

يا إخوان اليهود والنصارى! أما والله! لئن بلغني عنكم أمر

أكرهه من ولايتكم علي بن أبي طالب «عليه السلام»، لأرجعن عليكم بالخيل والرجال، ثم لأكثرن فيكم القتل، فانظروا لأنفسكم، فقد أعذر من أنذر.

بسر في همذان وجيشان:

قال: ثم سار بسر بن [أبي] أرطاة إلى بلاد همذان، وبها قوم من أرحب من شيعة علي بن أبي طالب، فقتلهم عن آخرهم.

ثم سار إلى جيشان، وبها يومئذ خلق من شيعة علي رضي الله عنه، فقتلهم عن آخرهم.

بسر في صنعاء:

ثم سار يريد صنعاء، وبها يومئذ عبيد الله بن عباس من قبل علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، فلما بلغه خبر بسر دعا برجل يقال له: عمرو بن أراكة، [وفي نص آخر: عبد الله بن عبد المدان الحارثي] فاستخلفه على صنعاء، وخرج عنها هارباً [فر إلى الكوفة حتى أتى علياً «عليه السلام»].

وأقبل عدو الله حتى دخل صنعاء، فأخذ عمرو بن أراكة [عبد الله بن عبد المدان الحارثي]، فضرب عنقه صبراً [وقتل ابنه] [ودعا الناس إلى بيعة معاوية، فبايعوه]، وجعل يتلقط من كان بصنعاء من شيعة علي «عليه السلام»، فيقتلهم حتى لم يبق منهم أحد.

وخرج من صنعاء يريد حضرموت، فلما دخلها جعل يسأل عن

كل من يعرف أحداً من موالاة علي «عليه السلام»، فيقتله حتى قتل خلقاً كثيراً.

قتل ابن ثوابة:

قال: ثم أقبل إلى رجل من ملوكهم يقال له: عبد الله بن ثوابة، وهو في حصن له، فلم يزل يختدعه، ويحلف له، حتى استنزله من حصنه، ثم أمر بقتله.

فقال له ابن ثوابة: أيها الرجل! إني لا أعلم ذنباً لنفسي يوجب القتل، فعلام تقتلني؟!

فقال له بسر: بقعودك عن بيعة معاوية، وتفضيلك علي بن أبي طالب «عليه السلام».

فقال ابن ثوابة: فذرني حتى أصلي ركعتين أختم بهما عملي.

فقال بسر: صلِّ ما بدا لك، فإني قاتلك.

قال: فصلى عبد الله بن ثوابة ركعتين، فعجل عن إتمامهما، وقطع بالسيف إرباً إرباً(1).

---

(1) راجع ما تقدم في: الغارات للثقفي ج2 ص607 ـ 631 والفتوح لابن أعثم ج4 ص231 ـ 241 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص139 و 140 و (ط الأعلمي) ج4 ص107 والكامل في التاريخ ج3 ص383 وموسوعة الإمام علي «عليه السلام» ج7 ص132 ـ 134 والبداية والنهاية ج7 ص422 وراجع: أنساب الأشراف ج3 ص457 و (ط أخرى) ج3 ص211 ـ 215

ونقول:

نذكر هنا بضعة أمور نكتفي بها عما عداها..

التبريرات لا تجدي:

إن ما ذكرناه في النصوص المتقدمة عن أوامر معاوية لبسر ما هو إلا غيض من فيض من الأوامر الصادرة عن معاوية لعماله، ولأعوانه بقتل الناس، وظلمهم، والإستيلاء على أموالهم، وحرق وهدم منازلهم، وسبي نسائهم وذراريهم لمجرد أنهم شيعة لأمير المؤمنين على بن أبي طالب «عليه السلام».

ولا يستطيع أحد تبرير ذلك إلا بما يلحق ظلماً أشد، وأدهى، وأمض بأمير المؤمنين «عليه السلام» وبشيعته الميامين، وبأبرار الصحابة، والأخيار والمنتجبين.. ويكون شريكاً لمعاوية ولأعوانه من أمثال بسر بن أبي أرطأة، في كل ما قالوه وفعلوه، بل يكون الشريك الأخسر صفقة، والأعظم جرماً وإثماً، لأن أولئك قد فعلوا ما فعلوا لحقد دفين، وإحن وضغائن، بالإضافة إلى أطماع حاضرة، يرون أن وصولهم إليها لا يكون إلا بالقضاء على من يمنعهم من مخالفة أحكام الله، ويدفعهم عن ظلم عباد الله، لأنه وصي رسول الله «صلى الله عليه وآله» وحافظ دينه، وولي أمر عباده، بنص حديث الغدير، وآية التصدق بالخاتم حال الركوع في الصلاة.

وتاريخ اليعقوبي ج2 ص197 و 199 وبحار الأنوار ج33 ص7 - 11.

ولكن ما الذي يدعو الذين جاؤوا من بعدهم لطمس الحقائق، والتصرف بحقائق الدين، والتلاعب بأحكامه؟! ولماذا يسعون لتبرئة المعتدين، والجبارين والظالمين، وقتلة أبناء الأنبياء، والساعين لتضييع جهود المرسلين والصديقين، وطل دماء الشهداء والمظلومين؟!

وإنما يفعل هؤلاء هذا كله لمجرد حب النهج الأموي، وبغض النهج العلوي.. فهل هناك خسران أعظم، وخذلان وخزي أشد من هذا؟!

ثلاثة، أو أربعة آلاف:

ثم إننا لا نريد أن نحقق وندقق في عدد جيش بسر، هل هو ثلاثة آلاف، أو أربعة آلاف؟! أو ألفان وست مئة؟! فإن ذلك لا أهمية له عندنا، لأنه لا يغير في النتائج التي انتهت إليها تلك الغارة، وهي قتل ثلاثين ألفاً من شيعة علي «عليه السلام»، وسبي النساء المسلمات، وبيعهن في سوق المسلمين، وهدم المنازل، ونهب الأموال، وذبح الأطفال.. وما إلى ذلك مما تقدم.

بسر يقر بالإجماع على قتل عثمان:

وقد تضمنت أقوال بسر بن أبي أرطأة لأهل المدينة: بأن أهل المدينة قد أجمعوا على المناوأة لعثمان.

فقد قال لهم: «فكنتم بين قاتل، وخاذل، وشاتم، ومتربص».

وهذا ليس في صالح عثمان، فإن إجماع أهل المدينة على ذلك، يدعو إلى الريب القوي فيما يدعيه أنصار عثمان بأنه قتل مظلوماً..

إذ لا يعقل أن يتفق أنصار رسول الله «صلى الله عليه وآله» والمجاهدون في سبيل الله، وفيهم الصلحاء، والعلماء، والأخيار الأبرار ـ أن يتفقوا ـ على معصية الله ورسوله في عثمان، الذي هو خليفتهم، وله بيعة في أعناقهم، وكيف يقتلون امرأً مسلماً، أو يشتمونه، أو يتربصون به الدوائر، أو يخذلونه، وهو ـ فيما يدعون ـ زوج ابنتي الرسول «صلى الله عليه وآله»، ومجهز جيش العسرة، وغير ذلك مما ينسبونه إليه؟!

فكيف استساغوا قتله؟! بل كيف تولوا ذلك منه؟! ألا يوجب ذلك الريب في جميع ما ينسبونه إليه من فضائل، وحقوق ومقامات. وما يدعونه له من عصمة عن الذنوب، وبراءة من العيوب؟!

إحراق وهدم دور الأنصار:

ويبدو لنا: أن ذنب الأنصار عند معاوية وبسر بن أبي أرطأة ليس هو قتل عثمان، وإنما هو تأييدهم لعلي «عليه السلام»، ومناصرتهم لقضيته، ومناوأتهم لحكومة معاوية، وبني أمية..

فلما رضي أهل المدينة بحكومته، وحكومة بني أمية زال الخطر عن المدينة وأهلها. فلما عادوا إلى رفض حكومة يزيد أوقع بهم مسرف بن عقبة في وقعة الحرة، فلما استقاموا لبني أمية ورضوا بهم عادت الأحوال مع بني أمية إلى الصلاح..

بسر يولي على المدينة أبا هريرة:

لا شك بأن بسر بن أبي أرطأة الرجل الباغي والطاغي، والفاجر، لا يقدم على تولية شخص بلداً مثل المدينة.. إلا إذا كان موضع ثقته بأنه ينفذ جميع ما يريد، ويؤدي إليه الأمانة التي سلمه إياها كما أحب بل أكثر.

ومعنى هذا: أن ثمة جامعاً روحياً، واتفاقاً في الرأي والمنهج والسلوك بين ابن أبي أرطأة وبين أبي هريرة في الأمور الأساسية والحساسة، ولولا ذلك لما ولاه بسر المدينة.

ويدل على وحدة المسار والرأي والسياسة بين أبي هريرة وابن أبي أرطأة أمور كثيرة تبين إلى أي حد كان أبو هريرة منخرطاً في مشروع معاوية..

ونذكر على هذا ثلاثة أمثلة فقط، مع أن الأمثلة كثيرة جداً، والأمثلة هي:

1 ـ نقل المعتزلي: أن الإسكافي عد أبا هريرة في جملة جماعة وضعهم معاوية على وضع أخبار قبيحة في علي «عليه السلام»، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب فيه(1).

2 ـ لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية حين الصلح جثا بباب مسجد الكوفة، وضرب على صلعته، وقال: أتزعمون أني أكذب

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص63 و 64.

على رسول الله؟!

ثم ذكر حديث من أحدث في المدينة حدثاً، فعليه لعنة الله، ثم قال: وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها. فأجازه معاوية وأكرمه، وولاه المدينة(1).

3 - توليته المدينة من قبل بسر. ولعل من أسباب هذه التولية: أن بسراً أراد تحقير أهل المدينة بها، وإهانة أهلها، وتصغير شأنهم وشأنها.

ذبح الغلامين:

وليس المهم أن نعرف أين قتل ابنا عبيد الله بن العباس؟! هل قتلا قرب بئر ميمون، حيث كان أهل مكة قد أضلوهما عند ذلك البئر (2)، وكانا لم يبلغا الحنث، أو أنه قتلهما على درج الحلم(3)، أو صنعاء(4)، في اليمن؟!

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص67.

(2) الغارات للثقفي ج2 ص611 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص13.

(3) الغارات للثقفي ج2 ص635 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج15 ص236 والنزاع والتخاصم ص36 وبحار الأنوار ج34 ص18.

(4) الغارات للثقفي ج2 ص616 و 621 وبحار الأنوار ج34 ص13 والدرجات الرفيعة ص145 والغدير ج11 ص26 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص14.

فإن النتيجة واحدة، وهي أن بسراً قد تعمد ذبح طفلين صغيرين، ولما اعترض عليه الكناني الذي كان الطفلان عنده قتله قبلهما.. ثم أبدى رغبته بقتل النساء المعترضات عليه أيضاً.. وليس هذا غريباً على بسر، فقد توعد أهل مكة إن خالفوا بقتل رجالهم، واحتواء الأموال، وتخريب الديار، وإفناء الصغار والكبار.

كما أن معاوية لم يتحرك ولو لتوجيه كلمة ملامة واحدة لبسر هذا، حتى حين طالبه عبيد الله بموضوع قتل ابنيه، بل اكتفى بإنكار أن يكون قد أحب، أو هوي قتلهما.. ولكن هل اغتاظ من ذلك، أو كرهه؟! هذا أمر سكت عنه معاوية، إلى حد أنه لم يوجه كلمة تعزية واحدة لعبيد الله بقتل ولديه، بل كان جُلُّ همه أن لا ينال بسراً مكروه من عبيد الله أبي الطفلين، حين ألقى بسر سيفه أمامه..

فقد روي عن عبد الرحمن بن نعيم: أنه اجتمع ذات يوم هو وعبيد الله بن العباس عند معاوية بعد صلح الإمام الحسن «عليه السلام».

فقال ابن عباس لمعاوية: أنت أمرت هذا القاطع البعيد الرحِم، القليل الرحْم بقتل ابني؟!

فقال معاوية: ما أمرته بذلك، ولا هويت.

فغضب بسر، ورمى بسيفه، وقال: قلدتني هذا السيف، وقلت: اخبط به الناس، حتى إذا بلغت ما بلغت، قلت: ما هويت، ولا أمرت؟!

فقال معاوية: خذ سيفك، فلعمري إنك لعاجز حين تلقي سيفك بين يدي رجل من بني عبد مناف، وقد قتلت ابنيه أمس.

فقال عبيد الله بن عباس: أتراني كنت قاتله بهما؟!

فقال ابن لعبيد الله: ما كنا نقتل بهما إلا يزيد وعبد الله ابني معاوية.

فضحك معاوية، وقال: وما ذنب يزيد وعبد الله؟!(1).

القسوة الشيطانية:

وما أقسى قلب بسر بن أبي أرطأة، حين أقدم على قتل مئة شيخ في صنعاء من أبناء فارس، لمجرد أن ابني عبيد الله بن عباس كانا مستترين في بيت امرأة من أبنائهم، تعرف بـ: أم النعمان ابنة بزرج(2).

ويبدو لنا: أن تعصب العرب ضد غير العرب كان له الأثر القوي في حصول هذا القتل الذريع في شيوخ أبناء فارس.

أبو موسى محترم عند بسر:

وقد بينت الروايات المتقدمة: كيف أن بسراً كان يتهدد جابر بن

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص661 - 663 وبحار الأنوار ج34 ص21 وأنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ. ق.) ج2 ص357 و (ط الأعلمي) ص459 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص143 وراجع: الأمالي للمفيد ص307 والأمالي للطوسي ص77.

(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص16 والغارات للثقفي ج2 ص621 وبحار الأنوار ج34 ص12 و 13 ونهج السعادة ج5 ص369.

عبد الله الأنصاري بالقتل، وقد رد شفاعة أم سلمة فيه، حتى يبايع معاوية. ولكنه يطمئن أبا موسى الأشعري، ويخلي عنه.

مع أن أبا موسى كان يريد أن يخلع معاوية وعلياً «عليه السلام»، ويجعل مكانهما صهره عبد الله بن عمر. وقد جرى بينه وبين عمرو بن العاص في دومة الجندل ما هو معروف..

ولكن الذي كان يشفع لأبي موسى: هو انحرافه عن أمير المؤمنين «عليه السلام»، فإن هذا يغفر كل ذنب، ويقرب كل بعيد، ويسهل كل عسير..

إبادة شيعة علي ×:

ويلاحظ من النصوص المتقدمة: أن الحرب التي كان يشنها معاوية على شيعة أمير المؤمنين «عليه السلام» بواسطة بسر وغيره كانت حرب إبادة شاملة، لا تبقي ولا تذر، وكان معاوية يصرح لهم بأوامره هذه.

وقد عملوا على تنفيذها بحرفيتها، فقد تقدم: أن بسراً بن أبي أرطأة قد أباد قوماً من شيعة علي «عليه السلام» في بلاد همذان، من أرحب، وقتلهم عن آخرهم..

وأباد خلقاً من شيعة علي «عليه السلام» من أهل جيشان عن آخرهم. وجعل يلتقط من كان بصنعاء من شيعة علي «عليه السلام»، فيقتلهم حتى لم يبق منهم أحد..

وفي حضرموت جعل يسأل عن كل من يعرف أحداً من موالاة علي «عليه السلام» فيقتله حتى قتل خلقاً كثيراً..

وكان في تبالة قوم من شيعة علي «عليه السلام» أمر، بقتلهم عن آخرهم.. ولكن القدر حال دون ذلك، وغير ذلك.

قتل رُبع أهل حضرموت:

وتقدم: أن بسراً حين وصل إلى حضرموت استنزل عبد الله بن ثوابة من حصنه، بخديعة وأيمان ثم قتله.. ويقال: إن وائل بن حجر هو الذي أغراه بقتله، فقد كتب إلى بسر يستقدمه إلى حضرموت، فلما وصل إليها قال له وائل: ما تريد أن تصنع بأهل حضرموت؟!

قال: أريد أن أقتل رُبعهم.

فقال له وائل: إن كنت تريد ذلك، فاقتل عبد الله بن ثوابة، فاستنسر، وهو آمن للقتل، فقتله..

يقال: استنسر إذا صار كالنسر في القوة.

وكان وائل عند علي بالكوفة، وكان عثمانياً، فاستأذنه بالخروج إلى بلاده ليصلح ماله هناك، ثم يرجع، فأذن له.. فحرَّض بسراً على قتل ابن ثوابة، وكان عدواً له.

وبلغ علياً «عليه السلام» مظاهرة وائل بن حجر شيعة عثمان

على شيعته، ومكاتبته بسراً، فحبس ولديه عنده(1).

ونقول:

1 - إن ما فعله وائل بن حجر من الخيانة والغدر قد دل على نذالته، وسقوط همته، وعلى أنه كسائر الذين تربوا على مفاهيم الجاهلية، وتظاهروا بالإسلام، ليستروا به عوراتهم، وينالوا بعض شهواتهم، ويحققوا بعض أطماعهم.

فإسلامهم إسلام أطماع وإجرام، وأهواء، وعصبيات.. وهو نموذج للنهج الأموي الذي فرض نفسه بالبغي والعدوان على الواقع السياسي العام برهة طويلة، ولا سيما بعد استشهاد أمير المؤمنين «عليه السلام»..

2 - غير أن السؤال هنا هو: لماذا حبس «عليه السلام» ولدي وائل بن حجر عنده، وهما لم يرتكبا ذنباً؟! أليس هذا من أخذ البريء بذنب المجرم؟!

ويجاب:

أولاً: بأنه لا شيء يدل على أنه «عليه السلام» حبسهما، بمعنى: أنه وضعهما في الحبس، بل المراد: أنه أصدر إليهما أمره بالبقاء في الكوفة، وعدم الذهاب إلى حضرموت. ولعل ذلك لم يوجب لهما أي أذى، أو مضايقة. بل ربما كانا في غاية الراحة والرضا..

---

(1) راجع: الغارات للثقفي ج2 ص629 - 631.

ثانياً: إن تحديد الإمام الإقامة لبعض الناس لاعتبارات يراها ضرورية لإقامة العدل في البلاد أمر مقبول ومعقول.. وقد تبين أن وائل ابن حجر رجل مجرم، لا بد من مواجهته بالعقاب الذي يستحقه. وليكن منعه عن الإتصال بذويه، والتنعم بقربهم، من وسائل التضييق عليه، من جهة.. وهو أيضاً من الإجراءات المطلوبة لحفظ عائلته من الضياع، أو من الضلال، أو من كليهما فلو أنه «عليه السلام» سمح لهم باللحاق به، فإنه سوف يضلهما بالباطل الذي سيحاول أن يزرعه فيهما، وقد يهرب بهما إلى بلاد الأعداء، ويتضاعف لهما بذلك الشقاء والبلاء..

فيكون منعهما من السفر إليه، رأفة بهما، وإحساناً لهما، وفيه من الجهة الأخرى تضييق عليه، ومنع له من الفرار بهما إلى العدو، فهذا المنع سائغ، لأن الذهاب بهما يضرّ بهما، ويضر بالكيان العام، ويشجع ضعفاء النفوس على التأسي بهم في ذلك..

غارة بسر في سنة أربعين:

يذكر المؤرخون عادة، ومنهم الطبري غارات بسر بن أبي أرطأة على اليمن وسواها في جملة أحداث سنة تسع وثلاثين، ولكن عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري يصرح: بأنها كانت سنة أربعين..

ويبدو لنا: أن هذا هو الصحيح، لأنه شاهد عيان، ولأنه شريك في الإعداد لها..

ولأن سائر المؤرخين يصرحون: بأن أمير المؤمنين «عليه

السلام» قد استشهد حين كان جارية بن قدامة لا يزال في مكة، يطارد بسراً حتى أخرجه إلى الشام، ولم يعد إلى الكوفة إلا بعد البيعة للإمام الحسن «عليه السلام»..

فقد ذكر الفزاري: أنه لما دخلت سنة أربعين تحدث الناس بالشام: أن علياً يستنفر الناس بالعراق، فلا ينفرون معه. فقام الفزاري هذا في نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عقبة فكلموه ليقنع معاوية: بأن يهاجم العراق.

فقال معاوية: إنه لا يرى أن تفرق أهل العراق عن علي «عليه السلام» قد وصل إلى حد يسمح لأهل الشام باجتياحهم، واستئصالهم. ومسيره إليهم مخاطرة لا يعلم نتائجها.

ثم قال لهم: إنه يتبع سياسة شن الغارات، وها قد تمكن من الإستيلاء على مصر. وهذا مما يزيد أهل الشام، وينقص أهل العراق، ويقوى هؤلاء، ويضعف أولئك، ويعز هؤلاء، ويذل أولئك.

قال الفزاري: فخرجنا من عنده، ونحن نعرف الفضل فيما ذكر. فجلسنا ناحية، ثم بعث معاوية عند مخرجنا من عنده إلى بسر بن أبي أرطأة من بني عامر بن لؤي، فبعثه في ثلاثة آلاف..

ثم ذكر أوامر معاوية لبسر، وخروج بسر إلى المدينة ومكة، حتى بلغ صنعاء..[1].

---

(1) راجع: الغارات للثقفي ج2 ص599 - 601 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2

نجاة أهل تبالة:

وأحب هنا أن أورد ما ذكره الثقفي عن نجاة أهل تبالة من الذبح بلطف رباني، بالرغم من أن بسراً كان وجه رجلاً من قريش إلى هذا البلد، ليقتل أهله، لأنهم من شيعة علي «عليه السلام»..

فكلموا رسوله بأن يمهلهم حتى يأتوه بكتاب من بسر بأمانهم، وكان بسر بالطائف، فأمهلهم، فأرسلوا من كلم بسراً، فوعدهم، وماطلهم حتى ظن أن القوم قد قتلوا، فكتب إليهم الكتاب، وسلمه لرسول اسمه منيع، قال ذلك الرجل عن نفسه: إنه حمل الكتاب إلى المنزل الذي كان قد نزل فيه، فلم يجد صاحبة المنزل، فركب ناقته. فسار يوم الجمعة، وليلة السبت، لم ينزل عن راحلته، قط.

فأتاهم ضحوة، وقد أُخرِج القومُ ليقتلوا، فقُدِّم رجل منهم فضربه الشامي بسيفه، فانقطع سيفه، فقال الشاميون: شمسوا سيوفكم حتى تلين. فهزوها، فتبصر منيع ـ وهو الرسول الحامل للكتاب ـ بريق السيوف، فلوح يثوبه، فقالوا: هذا راكب عنده خبر..

ولكن بعيره وقف من الكلال.. فنزل عنه، وجاء يشتد على رجليه، ودفع الكتاب إليهم ـ وكان الرجل الذي ضُرِب بالسيف أخاه ـ فنجا ونجوا بذلك..[1].

ص6.

(1) الغارات للثقفي ج2 ص610 و 611.

وبذلك يتضح: أن ما تقدم من أن أهل تبالة قد ذبحوا في من ذبح بأمر بسر بن أبي أرطأة غير دقيق، فقد أمر بسر بذبحهم، ولكن لطف الله بهم قد حال دون ذلك..

إلا أن يكون قد عاد فذبحهم حين عودته من صنعاء، بعد أن علم بنجاتهم في المرة الأولى.

عبيد الله لم يقاتل!! لماذا؟!:

وقد ذكر أبو الوداك، قال:

كنت عند علي «عليه السلام» حين قدم عليه سعيد بن نمران الكوفة، فعتب (علي «عليه السلام») عليه وعلى عبيد الله، أن لا يكونا قاتلا بسراً.

فقال سعيد: والله، قاتلت. ولكن ابن عباس خذلني، وأبى أن يقاتل. ولقد خلوت به حين دنا منا بسر، فقلت: إن ابن عمك لا يرضى مني، ولا منك إلا بالجد في قتالهم، وما نُعْذَرُ.

قال: لا والله ما لنا بهم طاقة، ولا يدان..

فقمت في الناس وحمدت الله وأثنيت عليه، ثم قلت: يا أهل اليمن، من كان في طاعتنا، وعلى بيعة أمير المؤمنين «عليه السلام»، فإليَّ، إليَّ..

فأجابني منهم عصابة، فاستقدمت بهم، فقاتلت قتالاً ضعيفاً، وتفرق الناس عني، وانصرفت. ووجهت إلى صاحبي فحذرته موجدة

صاحبه عليه، وأمرته أن يتمسك بالحصن، ويبعث إلى صاحبنا، ويسأله المدد، فإنه أجمل بنا، وأعذر لنا.

فقال: لا طاقة لنا بمن جاءنا. وأخاف تلك.

وزحف إليهم بسر، فاستقبلهم سعيد بن نمران، فحملوا عليه، فقاتل كلا، ولا، ثم انصرف هو وأصحابه إلى عبيد الله وحضر[1] صنعاء، ثم خرج منها إلخ..[2].

ونقول:

1 ـ بيَّن لنا هذا النص: أن سعيد بن نمران كان أبعد نظراً، وأشجع قلباً، وأكثر حرصاً على القيام بواجباته، من ابن عباس..

2 ـ إن نفس التصدي للغازي في كل بلد يقصده، ومشاغلته بالحرب، يفسح المجال أمام القائد الأعلى لتهيئة النجدة، وإيصالها على جناح السرعة لموضع الحاجة.

وسيكون وصول أقل القليل من المقاتلين من موجبات رعب الغزاة وتوقعهم المزيد، مع شعورهم بغربتهم، ووحدتهم، وعدم تمكنهم من الإستنجاد بأحد. وسيدعو ذلك الغزاة إلى الفرار، وإخلاء الديار..

---

(1) لعل الصحيح: حصر.

(2) الغارات للثقفي ج2 ص619 و 620 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص15 ونهج السعادة ج5 ص369.

وقد تقدم معنا نموذج حي لغارة نظمها معاوية، لغزو بعض البلاد، التي كان فيها قلة قليلة من الجند، وكان الجيش الغازي كبيراً، إلا أن ذلك الجيش ولى هارباً لمجرد أنه رأى خمسين شخصاً جاؤوا لإنجاد إخوانهم، مع أن وجود هؤلاء الخمسين لا يقدم، ولا يؤخر في النتيجة التي كانت ستحصل لو استمرت الحرب..

3 ـ لقد كان في صنعاء حصن كان ابن عباس يستطيع أن يتحصن به ويطاولهم فيه إلى أن يأتيه المدد.. وقد أشار عليه سعيد بن نمران بأن يفعل ذلك، فلم يقبل..

4 ـ لاحظنا: أن سعيد بن نمران كان صادقاً في وصفه لما جرى، حتى إنه ليعترف لعلي «عليه السلام» بأنه قد قاتل قتالاً ضعيفاً..

5 ـ يفهم من ابن عباس: أنه يرى أن تسليم البلاد للغازي، وتمكينه من أن يعيث فيها فساداً، ولو أباد رجالها، وسبى نساءها وأطفالها، وسلب أموالها، وأحرق وهدم منازلها ـ إن هذا ـ أولى عنده من الدخول في الحرب مع ذلك العدو، لاحتمال أن لا يتمكن من الإنتصار عليه.

وهذه نظرة عجيبة منه، ولذلك استحق الملامة من أمير المؤمنين «عليه السلام».

الفصل الثالث:

قادة علي × يلاحقون بسراً:
نصوص وآثار..

علي × يدعو لملاحقة بسر:

قال البلاذري، والثقفي:

إن خبر مسير بسر بن أبي أرطأة إلى اليمن بلغ علياً «عليه السلام» من رجل قدم عليه من الشام يقال له: قيس بن زرارة بن عمر بن حطيان الهمداني ـ وكان قيس هذا عيناً له بالشام يكتب إليه بالأخبار ـ ويقال: إن كتابه ورد عليه بخبر مسير بسر.

وفي بعض المصادر قال:

إنه ابن قيس، أو زرارة بن قيس الشاذي، قدم إلى الكوفة يخبر علياً «عليه السلام» بالعدة التي خرج فيها بسر، فندب «عليه السلام» الناس، فتثاقلوا عنه.

فقال على «عليه السلام»: «أتريدون أن أخرج بنفسي في كتيبة في الفيافي والجبال؟! ذهب والله أولو النُّهى والفضل، الذين كانوا يدعون فيجيبون، ويؤمرون فيطيعون. لقد هممت أن أخرج عنكم، فلا أطلب بنصركم ما اختلف الجديدان..

فقام جارية بن قدامة، فقال: أنا أكفيكهم..».

وفي نص آخر: أنه «عليه السلام»: صعد المنبر، فحمد الله وأثني عليه، ثم قال:

أما بعد..

أيها الناس! فإن أول فرقتكم وبدء نقصكم ذهاب أولي النُّهى وأهل الرأي منكم، الذين كانوا يَلْقَوْن فيصدقون، ويقولون فيعدلون، ويدعون فيجيبون، وأنا والله قد دعوتكم عوداً وبدءاً، وسراً وجهاراً، وفي الليل والنهار، والغدو والآصال، فما يزيدكم دعائي إلا فراراً وإدباراً..

أما تنفعكم العظة، والدعاء إلى الهدى والحكمة، وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، ولكني والله لا أصلحكم بإفساد نفسي.

ولكن أمهلوني قليلاً، فكأنكم والله بامرئ قد جاءكم، يحرمكم، ويعذبكم، فيعذبه الله كما يعذبكم.

إن من ذُلّ المسلمين وهلاك الدين أن ابن أبي سفيان يدعو الأراذل والأشرار فيجاب، وأدعوكم وأنتم الأفضلون الأخيار، فتراوغون وتدافعون، ما هذا بفعل المتقين.

إن بسر بن أبي أرطاة وجه إلى الحجاز وما بسر لعنه الله؟! لينتدب إليه منكم عصابة حتى تردوه عن شنَّتِه، فإنما خرج في ست مائة أو يزيدون.

ويتابع الثقفي، فيقول:

قال: فسكت الناس ملياً لا ينطقون.

فقال «عليه السلام»: ما لكم أمخرسون أنتم لا تتكلمون؟!

فذكر عن الحارث بن حصيرة، عن مسافر بن عفيف، قال:

قام أبو بردة بن عوف الأزدي، فقال: إن سرت يا أمير المؤمنين سرنا معك.

فقال: اللهم ما لكم؟! لا سددتم لمقال الرشد، أفي مثل هذا ينبغي لي أن أخرج؟! إنما يخرج في مثل هذا رجل ممن ترضون من فرسانكم وشجعانكم، ولا ينبغي لي أن أدع الجند والمصر، وبيت المال، وجباية الأرض، والقضاء بين المسلمين، والنظر في حقوق الناس، ثم أخرج في كتيبة أتبع أخرى في الفلوات وشعف (أي رؤوس) الجبال، هذا والله الرأي السوء.

والله! لولا رجائي عند لقائهم لو قد حم لي لقاؤهم لقربت ركابي، ثم لشخصت عنكم فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال.

فوالله! إن [في] فراقكم لراحة للنفس والبدن .

وذكر الرضي «رحمه الله» هذه الخطبة مع بعض الإختلاف[1].

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص624 وبحار الأنوار ج34 ص14 وراجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص231 الخطبة رقم 119 وراجع: الإرشاد ج1 ص272 وأنساب الأشراف ج3 ص215 و (ط الأعلمي) ج2 ص458 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج1 ص303 وج3 ص253 وبحار الأنوار ج34 ص14 و 151 ونهج السعادة ج2 ص598 و 599 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص198.

وقال ابن أعثم:

وبلغ ذلك ـ يعني مسير بسر إلى اليمن ـ علي بن أبي طالب «عليه السلام»، فاغتم لذلك غماً شديداً، ثم إنه نادى الناس، فجمعهم، ثم خطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس! إن الله تبارك وتعالى لا يخفى عليه ما العباد عاملون في ليلهم ونهارهم، فاتقوا الله عباد الله في أمره ونهيه.

وبعد فإني أخبركم أن بسر بن [أبي] أرطأة عدو الله قد توجه إلى أرض اليمن من قبل معاوية، وقد سلك طريق الحجاز في جمع عظيم من أهل الظلم والعدوان، وفعل كذا وكذا، وأحرق وهدم.

وما بسر برح الله بسراً، فلقد باع الآخرة بالدنيا، فلينتدب له منكم أهل الجنة والجهاد، وطلاب الأجر والثواب، فإن ترك المجاهدة المستحق للجهاد نقص في الدين مع الذل والصغار.

قال: فلم يجبه أحد منهم بشيء.

فقال لهم علي «عليه السلام»: ما لكم لا تردون جواباً، ولا ترجعون قولاً؟! أدعوكم إلى جهاد عدوكم سراً وجهراً، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً. أتتناشدون الأشعار، وتتسلون عن الأسفار؟! تربت يداكم لقد نسيتم الحرب والإستعداد لها، فأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها.

قال: فلم يجبه أحد منهم بشيء.

فقال «عليه السلام»: أوليس من العجب أن معاوية يأمر فيطاع،

ويدعو فيجاب، وآمركم فتخالفون، وأدعوكم فلا تجيبون؟!

ذهب والله! أولو النُّهى، والفضل والتقى، الذين كانوا يقولون فيصدقون، ويدعون فيجيبون، ويلقون عدوهم فيصبرون، وبقيت في حثالة قوم لا ينتفعون بموعظة، ولا يفكرون في عاقبة..

لقد هممت أن أشخص عنكم، فلا أطلب نصركم ما اختلف الجديدان. وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، وكأني بكم وقد ولاكم من بعدي من يحرمكم عطاءكم، ويسومكم سوء العذاب. والله المستعان وعليه التكلان.

فلما فرغ علي «رضي الله عنه»، ونظر أنه ليس يجيبه أحد، انصرف إلى منزله.

خطبة ثانية لعلي ×:

قال: فلما كان من الغد عاد إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس! والله لقد خشيت أن يدال هؤلاء القوم منكم لمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة، وخيانتكم، واجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، استعملت فلاناً ففعل ذلك، ولو ائتمنت أحدكم على قدح لخشيت أن يذهب بعلاقته.

أيها الناس! استعدوا للجهاد في عدوكم الذي قد شن عليكم الغارات في كل وجه ليلاً ونهاراً، وذروا التثاقل والصمم **(إِنَّ شَرَّ**

الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)(1).

قال: فما أجابه أحد منهم بشيء.

فقال علي «كرم الله وجهه»: إني قد كرهتهم وكرهوني، ومللتهم وملوني، فأرحني منهم، وأرحهم مني.

اللهم! وأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني.

اللهم! أمت [أمث] قلوبهم ميت [ميث] الثلج في الماء.

[وذكر اليعقوبي نصاً آخر لخطبته «عليه السلام» هذه، فمن أراد فليراجعها].

تجهيز جارية بن قدامة:

قال: فوثب إليه جارية بن قدامة السعدي، فقال:

يا أمير المؤمنين! مرني بأمرك، فإني لك حيث أحببت.

فقال علي «رضي الله عنه»: [تجهز، فإنك ـ ما علمتك ـ رجل في الشدة والرخاء، المبارك، الميمون النقيبة] (وفي نص آخر) لعمري أنت لها! فإنك ميمون النقيبة، مبارك الأثر، حسن النية، صادق [صالح] العشيرة.

قال اليعقوبي، والثقفي:

[ثم قام وهب بن مسعود الخثعمي، فقال: أنا أنتدب يا أمير

---

(1) الآية 22 من سورة الأنفال.

المؤمنين.

قال: انتدب، بارك الله عليك.

فخرج جارية في ألفين، ووهب ابن مسعود في ألفين، وأمرهما علي أن يطلبا بسراً حيث كان حتى يلحقاه، فإذا اجتمعا، فرأس الناس جارية.

فخرج جارية من البصرة ووهب من الكوفة، حتى التقيا بأرض الحجاز].

قال: ثم ضم إليه علي «رضي الله عنه» ألفي فارس، وأمره بالمسير إلى بسر بن [أبي] أرطاة.

[وفي نص آخر: وقال بعضهم ألفاً. وأمره أن يأتي البصرة فيضم إليه مثلهم]

وأوصاه وصية، وعهد إليه عهداً، [وخرج معه يشيعه] فقال «عليه السلام»:

يا جارية! عليك بتقوى الله عزو جل، وإذا صرت إلى بلاد اليمن وإلى الموضع الذي أمرتك بالمسير إليه، فلا تحتقر مسلماً ولا معاهداً، ولا تغصبن لأحد مالاً ولا دابة، [وإن حفيت وترجلت]، وصلِّ الصلوات الخمس لوقتها، واذكر الله كثيراً.

وقد أفردنا عهد علي «عليه السلام» لجارية بن قدامة في فصل مستقل هو الفصل التالي، فانتظر..

قالوا:

[فقدم جارية البصرة، فضم إليه مثل الذي معه].

قال: فخرج جارية من العراق [يريد مكة، حتى قدم اليمن لم يغصب أحداً، ولم يقتل أحداً إلا قوماً ارتدوا باليمن، فقتلهم وحرقهم. وسأل عن طريق بسر، فقالوا: أخذ على بلاد بني تميم.

فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم.

فانصرف جارية، فأقام بجرش][1].

ابن قدامة يلاحق ابن أرطأة:

قال المعتزلي وغيره:

وأغذ جارية السير، ما يلتفت إلى مدينة مر بها، ولا أهل حصن. ولا يعرج على شيء، إلا أن يرمل بعض أصحابه من الزاد، فيأمر أصحابه بمواساته. أو يسقط بعير رجل، أو تحفى دابته، فيأمر أصحابه بأن يعقبوه، حتى انتهى إلى أرض اليمن، فهربت شيعة عثمان، حتى لحقوا بالجبال، وأتبعهم شيعة علي «عليه السلام»، وتداعت عليهم من كل جانب، وأصابوا منهم.

[وقال البلاذري: وطلب بسراً فهرب، فأتبعه إلى مكة، وظفر بقوم من أصحابه، فقتلهم]

ومر جارية نحو بسر، وبسر يفر من جهة إلى جهة، حتى أخرجه من أعمال علي «عليه السلام» كلها.

---

(1) راجع: الغارات للثقفي ج2 ص623 و 624 وبحار الأنوار ج34 ص13.

فلما فعل ذلك به، أقام جارية بجرش نحواً من شهر، حتى استراح، وأراح أصحابه.

ووثب الناس ببسر في طريقه لما انصرف من بين يدي جارية، لسوء سيرته، وفظاظته، وظلمه، وغشمه. وأصاب بنو تميم ثقلاً من ثقله في بلادهم..

قال البلاذري: وأما وهب بن مسعود الخثعمي، فسار، فلم يلحق بسراً، ولم يظفر بأحد من أصحابه.

ويقال: إن علياً رده من الطريق.

وحدثنا أبو مسعود الكوفي عن عوانة: أن وائل بن حجر الحضرمي كان عثمانياً، فاستأذن علياً في إتيان اليمن ليصلح له ما هناك، ثم يعجل بالرجوع.. فأذن له في ذلك، فذهب، فمالأ بسراً وأعانه على شيعة علي.

وقال ابن أعثم:

وبلغ ذلك (أعني تسريح جارية بن قدامة في طلبه) بسر بن [أبي] أرطاة، فخرج عن بلاد اليمن، وصار إلى أرض اليمامة، فأخذ عليهم بيعة معاوية، وأشخص معه جماعة من أهل الشام، وقد قتل من الناس بأرض اليمن وغيرها نيفاً عن ثلاثين ألف من شيعة علي بن أبي طالب.

وبلغ ذلك عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، فخرج في طلبه

في زهاء ألف رجل من نجبة[1] فرسان اليمن، فلحقه قبل أن يدخل الشام، فواقعه، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وقتله فيمن قتل، وأحرقه بالنار، وانهزم أصحابه هزيمة قبيحة، حتى صاروا إلى معاوية، فخبروه الخبر.

قال: وخرج جارية بن قدامة من العراق يقتل الخيل قتلاً، وهو يرجو أن يدرك بسر بن [أبي] أرطاة، حتى إذا صار في بعض الطريق بلغه ما قد نزل ببسر، فحمد الله على ذلك.

ثم إنه سار حتى صار إلى مكة، فدخلها مغضباً، فقال: يا أهل مكة! أخاف أن تكونوا من الذين **(إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)**[2].

قال: ثم أخذ بيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام».

ثم سار من مكة إلى الطائف، فلم يرد أحداً من أهلها ولم يظلمه، لكنه أخذ البيعة، وجدَّدها لعلي «كرم الله وجهه»، فلم يزل كذلك حتى سكن الناس، وأمنهم، ووعدهم ومناهم، فلم يعاقب أحداً ولا قتل أحداً إلا قوماً من اليهود قد كانوا أسلموا، ثم ارتدوا عن الإسلام، فقتلهم وأحرقهم بالنار بعد القتل.

---

(1) لعل الصحيح: نخبة.

(2) الآية 14 من سورة البقرة.

فأنشأ الجون بن قتادة يقول:

تهود أقوام بصنعاء بعد ما — أقروا بآيات الكتاب وأسلموا

فسرنا إليهم في الحديد يقودنا — أخو ثقة ماضي الخيار مصمم

قتلناهم بالسيف صبراً وبعده — شببنا لهم ناراً عليهم تضرَّم

حفرنا لهم لما طغوا وتمردوا — أخاديد فيها للأراذل مجثم

قال: ثم رجع جارية بن قدامة من اليمن إلى مكة، فأقام بها ثلاثة أيام حتى أخذ البيعة ثانية لعلي بن أبي طالب «عليه السلام».

ثم أقبل إلى المدينة، فلما دخلها استقبله الناس يدعون له.

فقال: يا أهل يثرب! أما أنا أعلم أن فيكم الشامت بما فعله بسر بن [أبي] أرطاة، وأيم الله لو أني أعلم الشامت منكم بذلك لبدأت به كائناً من كان.

قال: ثم رجع جارية إلى الكوفة حتى دخل على علي «رضي الله عنه»، فخبره بما كان منه بأرض اليمن، ومكة والمدينة(1).

---

(1) الفتوح لابن أعثم ج4 ص231 - 241 و (ط أخرى) ج2 ص477 وراجع: الغارات للثقفي ج2 ص607 - 628 و 639 وبحار الأنوار ج34 ص7 - 11 و 18 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص139 و 140 و (ط الأعلمي) ج4 ص107 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» ج7 ص132 - 134 عنه، وعن الكامل في التاريخ ج2 ص430 والبداية والنهاية ج7 ص322 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص357

[وقال الطبري:

وبلغ علياً خبر بسر، فوجه جارية بن قدامة في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين. فسار جارية حتى أتى نجران، فحرق بها، وأخذ ناساً من شيعة عثمان فقتلهم، وهرب بسر وأصحابه منه [وقتل من أصحابه خلقاً]، وأتبعهم [بقتل وأسر] حتى بلغ مكة، [ومر بسر حتى دخل الحجاز لا يلوي على شيء].

فقال لهم جارية: بايعونا.

فقالوا: قد هلك أمير المؤمنين، فلمن نبايع؟!

قال لمن بايع له أصحاب علي «عليه السلام»، فتثاقلوا. [فقال: والله! لتبايعن ولو باستاهكم]. ثم بايعوا.

ثم سار حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي بهم، فهرب منه، فقال جارية: والله! لو أخذت أبا سنور لضربت عنقه.

ثم قال لأهل المدينة: بايعوا الحسن بن علي. فبايعوه.

وأقام يومه، ثم خرج منصرفاً إلى الكوفة، وعاد أبو هريرة، فصلى بهم(1).

وراجع: أنساب الأشراف ج3 ص211 - 215 و (ط الأعلمي) ج2 ص457 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص197 - 199.

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص139 و 140 و (ط الأعلمي) ج4 ص107 وعن الكامل في التاريخ ج2 ص430 و 431 وتاريخ العقوبي ج2

وقال أبو الكنود: إن جارية انتهى إلى اليمن ونجران، فقتل من قتل، وهرب منه بسر، وحرق تحريقاً، فسمي محرقاً[1].

وقال الثقفي: كان الذي قتل بسر في وجهه، ذاهباً راجعاً ثلاثين ألفاً. حرق قوماً بالنار[2].

وقال ابن عبد البر: أرسل معاوية بسر بن أرطاة إلى اليمن، فسبى نساء مسلمات، فأقمن في السوق[3].

ونقول:

هناك أمور كثيرة لا نريد التوقف عندها، فمثلاً:

1 - لا نريد أن نصرف وقتنا في تحقيق اسم العين الذي كان لعلي «عليه السلام» بالشام، وأخبره بمسير بسر إلى اليمن.

2 - ولا نريد أيضاً أن نبحث وندقق في أنه هل جاء ذلك العين بنفسه ليخبر علياً بحركة بسر نحو اليمن، أو أنه أخبره بالأمر بواسطة كتاب أرسله إليه؟!

ص197 - 199 والبداية والنهاية ج7 ص322 وراجع: أنساب الأشراف (ط سنة 1416 هـ.) ج2 ص355 و (ط أخرى) ج3 ص211 - 215 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص134.

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص198 - 200.

(2) الغارات للثقفي ج4 ص639 و 640 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص17.

(3) الإستيعاب ج1 ص243 و (ط دار الجيل) ج1 ص161.

بالإضافة إلى اختلافات أخرى تظهر بالتتبع والمقارنة بين الروايات، وكلمات المؤرخين..

ونكتفي بالإشارة إلى بضعة أمور، هي كما يلي:

جيش بسر ست مئة!!:

ذكرت رواية الثقفي المتقدمة: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» ذكر في خطبته: أن الذين كانوا مع بسر بن أبي أرطأة بالحجاز كانوا ست مئة، أو يزيدون.

مع أن بعض الروايات المتقدمة تذكر: أن معاوية أرسل بسراً إلى اليمن في أربعة آلاف.

وفي نص آخر: في ثلاثة آلاف..

ونص ثالث يقول: إنهم كانوا ثلاثة آلاف، ثم اعتبرهم بسر ـ أي عدهم ـ فسقط منهم أربع مئة، فسار في ألفين وست مئة.

وكان معاوية قد فوَّض إليه أن ينتخبهم حسبما يريد.

ولم نجد فيما بين أيدينا رواية تقول: إنهم كانوا ست مئة سوى هذه الرواية عن الثقفي. ومن البعيد أن يكون معاوية قد أرسل ست مئة فقط إلى بلد بعيد كاليمن، ويحتمل أن يتعرض للمواجهة في كثير من البلاد ذهاباً وإياباً.

فربما أسقط الراوي كلمة ألفين سهواً. وربما كان بسر حين بلغ الحجاز قد فرق أصحابه في البلاد المختلفة ليوقعوا بأهلها، وبقي هو

في ست مئة.

ويشهد لذلك: أنه حين كان في الطائف كان له فريق في تبالة. وقد أمرهم بسر بقتل شيعة أمير المؤمنين «عليه السلام» في ذلك البلد الذي كان في اليمن، كما ذكرناه في موضع آخر من هذا الكتاب.. وتقدم أن جارية بن قدامة قد ظفر ببعض أصحاب بسر، فقتل منهم وأسر.

الفصل الرابع:

مع كلمات
علي × **لأصحابه..**

قيمة أولي الرأي والنهى:

إن أول كلمة نسمعها من علي «عليه السلام» في خطبته التي دعا فيها الناس للخروج لملاحقة بسر بن أبي أرطأة.. هي: أنه حدد أول سبب من أسباب الفرقة وبدء الإضمحلال في المجتمعات، وهو فقدان الأشخاص الذين يجمعون صفتين:

الأولى: أنهم أصحاب النُّهى.

والثانية: أنهم أهل الرأي.

والمراد بأصحاب النهي، ذوو العقول الوافية والتامة، أو التي تنهى الإنسان عن القبيح، وعن كل ما ينافيه.. لأن فقد هؤلاء يفسح المجال أمام ظهور القبائح، لعدم وجود من يردع عنها، ويحذر منها..

أما أصحاب الرأي ـ أي الرأي الصحيح والصائب الجامع للعناصر المطلوبة ـ فهم الذين يضعون المعالجات الصحيحة والمطلوبة، كلما مست الحاجة إليها، وبآرائهم الصائبة تستجمع الأمة كمالاتها، وتحفظ منجزاتها. تواصل مسيرتها نحو أهدافها السامية، لكي

تصل إلى ما تتمناه من السؤدد والرفعة والمجد..

ولهؤلاء ثلاث خصوصيات:

أولاها: إنهم حين يلقون عدوهم في ساحات الجهاد، فإنهم يكونون صادقي اللقاء، فلا يلقونه إرضاء لهذا، أو خجلاً من ذاك، أو طمعاً في مقام، أو للحصول على شيء من فضول الحطام، أو لأجل إيجاد العذر، فيكون لقاء شكلياً لا يعبر عن الحقيقة، ولا يحاكي ما هو مطلوب منهم، فهو كاذب في حكايته هذه.

وصدقهم هذا لأجل أن عقلهم التام، ورأيهم الصحيح يحتم عليهم الصدق في لقاء العدو، وإعطاء الحرب معه حقها، فيطابق فعلهم قولهم، وحقيقة ما يدور في خلدهم. ويوافق موافقة تامة ما ينبغي لهم، وما يطلب منهم..

الثانية: إنهم لا يلقون الكلام على عواهنه، بل يزنونه بميزان العدل والإنصاف، فلا يزيد عن الحاجة، ولا يقصر عنها. وتكون أقوالهم صحيحة وخالية من التجني على الحق، وعلى الناس.. بعيدة عن المبالغات فيما أحبوا، وعن التقصير عن المطلوب منهم فيما كرهوا.

الثالثة: إنهم يدعون فيجيبون، لأن عقلهم التام، ورأيهم الصحيح يحتم عليهم هذه الإجابة، لإدراكهم لزوم طاعة ولي الأمر، ولكي لا يكونوا سبباً في حدوث أي إخلال في تدبيره للأمور، وأي إضعاف لإرادته، ولموقعه، لأن رأيهم الصحيح يلزمهم بضرورة أن يبقى

الحاكم مطمئناً إلى سلامة المسار والمسير، وتماسك البنية في عناصرها ومداميكها، وصلاحيتها، للإعتماد عليها، وعدم إثارة ما يوجب القلق والشك لديه في هذا الإتجاه.

ثم بين «عليه السلام»: أن الذين معه لم يجيبوا دعواته التي تكررت وتواصلت، فدل ذلك على أن عليهم أن يعيدوا النظر في مدى هيمنة عقولهم على مواقفهم، وأن يطمئنوا إلى صحة وسلامة آرائهم..

البديل عن الإمام ×:

1 - وقد اتبع «عليه السلام» هنا أسلوباً لاستدراج الناس لمواجهة الواقع، وإحراجهم به من خلال وضعهم أمام خيار صعب وحاسم.

فقد لاحظنا:

أولاً: أنه «عليه السلام» بعد أن واجههم بما دل على أمر يصعب عليهم الإعتراف به، لأن كل إنسان يعتبر نفسه أعقل الناس وأسدهم رأياً، فوبخهم «عليه السلام» واتهمهم باحتمال فقدانهم للنهى، والرأي الصحيح.. لاختلال الخصوصيات الثلاث لأولي النُّهى والرأي، ثم أحرجهم بما دل على أن هذه الخصوصيات مفقودة فيهم..

لأنه لم يزل يدعوهم باستمرار إلى أمور، هي تجسيد لخصوصيات أولي النُّهى والرأي، فلا يستجيبون.

ثانياً: إنه «عليه السلام» حين ذكر ما يدعوهم إليه لم يقل: دعوتكم لحرب عدوكم، ولم يحدد لهم أي شيء آخر دعاهم إليه، لأنه لو فعل ذلك، فلربما تحولت أنظارهم باتجاه آخر في فهم مرامي كلامه هذا. فآثر أن

يجعل كل ما كان يدعوهم إليه في قالب بياني خاص يحتم عليهم إجراء فحص دقيق، لتحديد مغزاه ومضمونه، ثم تطبيق مفردات دعواته لهم على ذلك المضمون، وتفقدها فيما يرتبط بمدى توفر ذلك المغزى في تلك المفردات، وعدم توفره.

فقد قال «عليه السلام»: «أما تنفعكم العظة، والدعاء إلى الهدى والحكمة». فقرر أن ما كان يدعوهم إليه هو من الهدى الذي هو مرام ذوي النُّهى، وهو الحكمة التي هي مرام ذوي الرأي الصحيح والصائب، الذي يتمثل بوضع الأمور في مواضعها..

ثالثاً: إنه «عليه السلام» بين لهم: أنهم بالرغم من عدم إجابة دعواته، وعدم توافر خصوصيات النُّهى، والرأي السليم فيهم.. وبالرغم من أن من يكون كذلك، فلا بد من التعامل معه كما يتعامل مع ناقصي العقول، ومع ذوي الآراء الفاسدة، الذين لا ينفع معهم إلا فرض الحق عليهم، وقهرهم على سلوك طريق الإستقامة..

نعم.. ـ بالرغم من ذلك كله ـ فإنه لم يفعل ذلك، لأنه وإن كان فيه صلاح الناس، ولكنه فيه فساد لنفسه، ولدينه، ولوجدانه «عليه السلام»، لما فيه من خروج على الضوابط التي يرضاها الله سبحانه.. والتي لوحظت فيها مصالح، منها ترشيد عقول الناس بالإعتماد على تجاربهم أنفسهم، وتكريس معنى الحرية والإختيار لديهم.

رابعاً: ثم جاء دور تحريضهم على المقارنة بين عهدين: عهد سينتهي عن قريب، وهو عهد علي «عليه السلام» الذي لا يريد

إصلاحهم بفساد نفسه، فيكتفي بموعظتهم، ودعوتهم إلى الهدى والحكمة، ليختاروها بملء حريتهم، وقد باتت أيامه «عليه السلام» قليلة بينهم، وعهد امرئ آخر سوف يتسلط تميزه خصوصيتان:

الأولى: أنه سوف يحرمهم.. وقد أطلق «عليه السلام» كلمة الحرمان، ولم يقيدها بشيء مما يعني: أنه سيكون حرماناً شاملاً. فسيحرمهم من الحرية، ومن الأموال، ومن المقامات، ومن الكرامة، ومن الهدى، ومن الحكمة، ومن العلم، ومن العدل، ومن القيم، والأخلاق، والخير، والسعادة، والراحة، وكل ما فيه روح وراحة وحياة..

الثانية: أنه سوف يعذبهم.. أي لا يكتفي بحرمانهم من جميع النعم والخيرات، وكل شيء، فإن الإنسان قد يدرك قيمة ما حرم منه، فيسلوه ولا يهتم له، ويرتاح باله وينساه. بل هو يعوضهم عنه بالأذى، والعذاب، والآلام..

خامساً: ثم أتبع هذه المقارنة بمقارنة أخرى فيها المزيد من الإغراء بالطريق التي توصل إلى النجاح والفلاح، والهدى والحكمة، وتحذير وتنفير من الطريق التي فيها المزالق والمهالك.

فمعاوية الذي يحرمهم ويعذبهم يدعو الأراذل والأشرار، فيجاب ويطاع.. أما علي «عليه السلام»، الذي يدعو أصحابه لما يحييهم، ويزيدهم عزاً وكرامة، فإن أصحابه ـ مع أنهم هم الأفضلون الأخيار ـ يراوغون، وينأون بأنفسهم عن الإجابة والطاعة، مع أن هذا الفعل

منهم ليس بفعل المتقين..

فما هذه المفارقة التي يراها.. فإنها لا تنسجم مع الرأي والنُّهى، لأن النُّهى والرأي يحتمان الإستجابة لدعوة علي «عليه السلام»، لأنه الإمام الورع التقي العادل، ولأن ما يدعوهم إليه هو الصلاح والفلاح، والهدى والحكمة.. ولأن المدعوين هم الأفضلون الأخيار.

ويفترض أن يعصى معاوية.. لأنه المعتدي الظالم، المتعمد للباطل الصريح، ولأن ما يدعو إليه هو الحرمان والتعذيب.. ولأن المدعوين عنده هم الأشرار والأراذل.. فكيف تجاب دعوة معاوية، ولا تجاب دعوة أمير المؤمنين «عليه السلام»؟!

إن سرت سرنا معك:

وبالرغم من كل تلك التوضيحات السديدة التي أدلى بها «عليه السلام»، فإن جواب أصحابه كان في غاية السقوط، فقد قال له أبو بردة بن عوف الأزدي: «إن سرت سرنا معك». وهذا اشتراط مهين ومشين لأمير المؤمنين «عليه السلام»، وربما كان الغرض منه إسقاط محله «عليه السلام» في النفوس، وابتذال شخصيته، وتحقيره، وتصغيره في أعين الناس، ليبقى معاوية هو الملك المؤيد، الرفيع المقام في برجه العاجي، وعلي «عليه السلام» مجرد قائد مجموعة يطارد عصابة من الأشرار، يجوب البلاد طولاً وعرضاًً.. ويترك أمور الناس من دون مدبر، وبيت المال من دون حافظ وراصد، وجباية الأرض من دون فعالية..

ويترك الخلافات تضرب في المسلمين وتتفاقم وتزداد من دون أن تجد من يفصل فيها..

ويترك أيضاً حقوق الناس تضيع في مهب رياح الأهواء..

ويترك أمر البلاد والعباد، من دون تدبير.

ويترك الثغور مستباحة..

ويترك أيضاً الجند بلا قائد وناظم ومهيمن، ومدبِّر..

إنه لو فعل هذا لانفرط عقد النظام، وزالت الهيبة، والدولة، وانتقضت دعائمها، وعفت معالمها.. وسيُفرِح ذلك قلب معاوية، وبني أمية.. وبذلك تضيع الأمة، وتضيع الإمامة، ويضيع الدين، وأهل الدين..

ولذا قال «عليه السلام»: «هذا ـ والله ـ الرأي السوء»، وأي رأي أسوأ من هذا..

وقد قال: «الرأي السوء»، فوضع أل التعريف في الكلمتين معاً، ليدل على أن هذا الرأي هو السوء بعينه، وحقيقته وجوهره.. فلو قال: هذا رأي سوء.. لأمكن أن يكون هناك رأي أسوأ منه..

صاحب الرأي أسوأ من الرأي:

ونلاحظ:

1 ـ إنه حين قال أبو بردة بن عوف: إن سرت سرنا معك.. بادر «عليه السلام» إلى الدعاء على صاحب هذا الرأي ومن وراءه: بأن

لا يسددهم الله لمقال الرشد.. ربما لأنهم ليس فقط لا يستحقون الهداية، وإنما هم لعظم جرائمهم وطغيانهم، وخبث نواياهم وسرائرهم يستحقون أعظم أنواع الخزي والعذاب.. ويصبح الدعاء لهم بالتوفيق لبعض مقال الرشد معناه التعاطف مع المجرم، ويساوق طلب تخفييف العذاب عنه، وكما لا يصح طلب تخفيف العذاب عن إبليس، كذلك لا يصح طلب توفيق إبليس لفعل ما يخفف بعض العذاب عنه.. وهكذا يكون الحال بالنسبة للتعاطي مع كل مجرم..

2 - إن أبا بردة بن عوف كان فيما يبدو من الأشرار والفجار، وأصحاب النوايا الخبيثة، فاستحق أن يدعى عليه، وعلى أمثاله بما قاله أمير المؤمنين «عليه السلام»، ويشهد على ما نقول:

ألف: إنه قد تعرض لتوبيخ أمير المؤمنين «عليه السلام» لتخلفه عنه يوم الجمل[1].

ب: روى أبو مخنف: أن عبيد الله بن زياد دعا زحر بن قيس، فسرح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية، وكان مع زحر أبو بردة بن عوف الأزدي، وطارق بن أبي ظبيان الأزدي، فخرجوا حتى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية[2].

---

(1) صفين للمنقري ص7 و 8 وبحار الأنوار ج32 ص355 و 356 وقاموس الرجال للتستري ج11 ص222.

(2) مقتل الحسين لأبي مخنف ص208 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص459 و (ط الأعلمي) ج4 ص351 وتاريخ مدينة دمشق ج18 ص445 وأنساب

ج: قال المنقري عن أبي بردة بن عوف: «وكان أشياخ الحي يذكرون أنه كان عثمانياً، وقد شهد مع علي «عليه السلام» ـ على ذلك ـ صفين، ولكنه بعدما رجع كان يكاتب معاوية. فلما ظهر معاوية أقطعه قطيعة بالفلوجة، وكان عليه كريماً»(1).

وهذا كله يعطي: أن هذا الرجل وجماعة كانوا معه، كانوا يسعون إلى تدمير الدولة العلوية، وتهيئة أسباب النصر لمعاوية، ولولا عظيم ما حققوه وأنجزوه ـ خصوصاً هذا الرجل ـ لمعاوية لما كان معاوية كريماً عليه إلى هذا الحد..

وظائف الرئيس:

وقد تضمنت كلمات الإمام «عليه السلام» الوظائف المناطة بالرئيس والحاكم، وهي وظائف بالغة الحساسية، بل هي الركائز والعمد، والأسس التي تحفظ الكيان كله.. وإن أي إخلال بواحد منها يهدد الكيان كله بالسقوط..

وهذه الأركان هي التالية:

1 ـ الجند، فإن تدبير الجيش، وتنظيمه، وإعداده، وإمداده بالسلاح، وتهيئة متطلبات وفرص التدرييب له، وتمكينه من وضع

الأشراف (ط الأعلمي) ج3 ص212 وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ج8 ص3784 والوافي بالوفيات ج14 ص127 .

(1) صفين للمنقري ص5 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج3 ص104.

الخطط، ونشر قواه لحفظ الثغور، وحراسة البلاد. وإمداده بكل ما يحتاجه من وسائل، ومتابعة شؤونه، وحل مشكلاته، أمر ضروري جداً لحفظ الدولة، وحراستها من أعدائها، وترسيخ قوتها، وبسط هيبتها.

2 ـ إن حفظ البلاد مرهون بحفظ نقطة الإرتكاز، وهي العاصمة، أو فقل: المصر، كما أن إدارة شؤون الدولة، إنما يبدأ بها، ومنها المراكز الإدارية الكبرى، فلا بد من فعاليتها، وحفظ حالة تواصل سائر الأقطار والأمصار معها، باعتبارها المرجعية للجميع. وهذا أمر هام جداً في إشاعة الطمأنينة في البلاد والعباد، وتأكيد الشعور بالثبات والقوة..

ولأجل ذلك استنكر «عليه السلام» على أبي بردة الأزدي وأصحابه ما اقترحوه عليه من ترك الجند والمصر، ليلاحق شرذمة مسعورة تدور في الصحارى والقفار، إذ يكفي للقضاء على تلك الشرذمة انتداب قائد شجاع من القادة لها، أما حفظ الجند والمصر فلا يمكن إيكاله لأي كان من الناس، كما لا يمكن تركهما للأقدار، وعرضة للخراب والإنهيار..

3 ـ حفظ بيت المال، فإنه العصب الإقتصادي الفاعل في الدولة. وعليه وبه قيام مؤسساتها، ومنه ينفق على جيشها، وبه تحفظ ثغورها، ويعان فقراؤها، وينفق على المرافق العامة منها، فلا يمكن أن يتركه أمير المؤمنين «عليه السلام» في مهب الريح، وعرضه

للعدوان وللإنتهاب، وللسطو والإستلاب، ومن أراد تقويض حكم، فإن الإستيلاء على بيوت أمواله هو من الوسائل الشديدة التأثير في ذلك..

4 - وفي مستوى الإستيلاء على بيوت الأموال عرقلة جبايتها، والمنع من وصولها، لأنها هي التي ترفد بيوت الأموال بالمال.. وهذا يحتاج إلى متابعة ورعاية، وإشراف، وتنظيم، وتدقيق من قِبَلِ رأس النظام. ولا يصح إهماله، ولا التهاون فيه، لأن ذلك يعني: إما جفاف مصادر التمويل وعقمها. أو انحسار مائها عن المواضع العطشى، وضياعه في المسارب والمهارب..

وهذا يعني: أن يعم اليباس جميع الرياض، والغياض، وأن يموت الزرع، ويجف الضرع..

5 - وللقضاء دوره في بسط العدل، ومنع القطيعة، والتظالم، وإشاعة التواصل والتراحم. وقطع دابر الخلافات، وإلجائها إلى الإنحسار، ومنعها من التنامي والإنتشار، لكي لا تصبح وباءً يأتي على الأبرار والأشرار..

6 - كما أن حفظ حقوق الناس، وردع الظالمين من العدوان على المستضعفين، وإشاعة الأمن، وضبط الأمور، وحفظ الحقوق أمر ضروري لبقاء الحكم.

فإذا اختل أي من هذه الأصول الستة، فعلى الحكم السلام، فما بالك بالتخلي عن جميعها، فإنه سفه ورعونة ما بعدها رعونة.. وأمير المؤمنين «عليه السلام» أعقل البشر ممن مضى وغبر، ما خلا خاتم

الأنبياء «صلى الله عليه وآله».

فإذا اقترح أحد ذلك على من هو مثل أمير المؤمنين «عليه السلام» في عقله ودرايته، وحكمته وعلمه، وحرصه على الصالح العام، فإن ذلك:

إما على سبيل الدعابة، وليست هي ساعة دعابة، لأن العدو حاضر أمام كل ناظر..

وإما على سبيل الإستخفاف بعقل أمير المؤمنين «عليه السلام»، وتعمد تحقيره، وتصغير شأنه..

وإما أن يكون من منطلق تآمري بشع وخبيث.

وهذا هو الراجح، فإن أبا بردة الازدي هو من ذكرناه..

ولذلك غضب أمير المؤمنين «عليه السلام»، وأطلق هذا الدعاء عليه، وعلى المتآمرين معه..

ولكن ذلك لا يعني أن لا يخرج الرئيس والإمام في جيش أصلاً.. فقد خرج الإمام «عليه السلام» بنفسه في حروب الجمل، وصفين، والنهروان..

وخرج النبي «صلى الله عليه وآله» بنفسه في بدر، وأحد، والخندق، وحنين، وخيبر، وغيرها.. لأن هذا الخروج كان لمواجهات مصيرية يحسم فيها الأمر بقطع رأس الأفعى، ويزول بذلك الخطر

الكبير، وتتلاشى من بعده الفقاقيع[1] الصغيرة بصورة تلقائية. ولأن العدو قد حشد كل ما لديه، كما أن القوات التي كانت مع النبي «صلى الله عليه وآله» والإمام «عليه السلام» في تلك الحروب هي الجيش الأكثر عدة وعدداً، ولا تجرؤ تلك الجماعات الصغيرة على مواجهته وهو في حالة تأهب واستعداد، وتبقى تلك الجماعات الصغيرة في خوف مستمر من أن يلاحقها ذلك الجيش الهائل الذي لا طاقة لها به.

ونجد أيضاً في مقابل ذلك: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد أرسل عشرات السرايا بقيادة بعض الصحابة، لدفع مجموعة صغيرة هنا، أو مفسدين هناك، وكذلك كان يفعل أمير المؤمنين «عليه السلام» في مواجهة تحركات بعض المجموعات القليلة من الخوارج تارة، أو من الذين كان يرسلهم معاوية للعبث بأمن الناس، والعدوان عليهم في البلاد المختلفة..

ولكن الذي يريدوه أبو بردة بن عوف، ومن وراءه: هو أن يذهب علي «عليه السلام» وجماعة صغيرة معه ليتيهوا في الصحارى والقفار، وفي السهول والجبال.. ويبقى أهل الأطماع وطلاب الدنيا، والخانعون، والمنافقون يسرحون ويمرحون، ويتلاشى الجيش، ويتفرق، وتنهب بيوت الأموال وتتمزق، ويهمل أمر جباية خراج الأرض وجمع الصدقات من الناس. ويهمل أمر القضاء، وحماية

---

(1) جمع فقاعة، وهي انتفاخات الماء.

المستضعفين، والدفاع عن حقوقهم، وتترك البلاد لعبث العابثين، وإفساد المفسدين..

فإذا أراد علي «عليه السلام» أن يرجع إلى عاصمة حكمه، فسيجد كل شيء قد انهار وتلاشى، وسيرى نفسه وحيداً مضطهداً ليس لديه جيش ولا أموال، ولا نظام، ولا مجتمع متماسك، ولا راحة بال، بل اضطرابات وعصيان، وهرج ومرج..

ويصبح البلد وأهله لقمة سائغة للأعداء، سواء في ذلك معاوية، أو أي عدو يرغب في الإستيلاء عليه.

وقد أوجز «عليه السلام» كل هذه المعاني بقوله: «ثم أخرج في كتيبة أتبع أخرى، أتقلقل تقلقل القدح في الجفير الفارغ، وإنما أنا قطب الرحا، تدور علي، وأنا بمكاني. فإذا فارقته استحار مدارها، واضطرب ثفالها. هذا لعمرو الله الرأي السوء»**(1)**. أي أن قطب الرحى إذا زال عن مكانه صار المدار مضطرباً.. تارة يصير هنا، وأخرى يصير هناك. فلا يعلم له نقطة يستقر عليها، أو ينتهي إليها..

كما أن زوال قطب الرحى عن موضعه يوجب اضطراب ثفالها، وهو الحجر الأسفل من الرحى،أو هو الجلد الذي توضع عليه الرحى كلها، ليجمع عليه الطحين، فإذا زال قطب الرحى، واضطربت في مدارها، فإن الجلد الذي تحتها سوف يزول ويضطرب، ويصير تارة

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص231 الخطبة رقم 119.

إلى هذه الجهة، وأخرى إلى تلك الجهة..

والتقلقل: الحركة من جانب إلى آخر.

القدح: السهم، أو السهم قبل أن يجعل له ريش ونصل.

الجفير: الكنانة.

رجاء الشهادة كيف؟! ولماذا؟!:

ثم أشار «عليه السلام» إلى أنه حين يندب أصحابه إلى لقاء عدوهم معاوية، لا لأجل أنه يريد أن يحقق بهم نصراً عليه، ليصفو له هو الملك من بعده، ويفوز بلذته، ويتقلب في نعمته، بل لأنه يرجو نيل الشهادة لنفسه في ساحات الجهاد. لو قدر له لقاء ذلك العدو. أعني معاوية. فإنه كان يعلم أنه سيموت شهيداً على يد أشقاها.. وربما حضر أشقاها تلك الحرب.

فلعله «صلى الله عليه وآله» أخبر عن شهادته، ودلَّ على قاتله وحسب، والمناسبة التي تقرب احتمال حصول القتل هي الحرب، حيث يختلط فيها الحابل بالنابل. وتسنح فرص للإغتيال بالسيف تارة، وبالسهم أخرى، وبغير ذلك من وسائل..

وحتى لو كان النبي «صلى الله عليه وآله» قد حدد له أيضاً مكان وزمان شهادته «عليه السلام»، فلعل قانون البداء يجري في هذا الأمر..

ولولا رجاؤه الشهادة بمحاربته لما احتاج إلى دعوتهم إلى

الحرب، ولكان قد خرج عنهم، لأن فيهم عيوباً أربعة تجعل العمل معهم غير منتج، فهم: طعانون، عيابون، حيادون، رواغون..

يضاف إلى ذلك: أن كثرة عددهم لا تفيد شيئاً ما دامت قلوبهم متفرقة.

ولكنه مع ذلك كله قد قام بما يجب عليه، حيث حاول حملهم على الطريق الواضح.

وهذا ما أشار إليه بقوله كما في نهج البلاغة الخطبة رقم 117: «إنه لا غناء في كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم، لقد حملتكم على الطريق الواضح، التي لا يهلك عليها إلا هالك، من استقام فإلى الجنة، ومن زل فإلى النار».

تهويل أمر بسر غير معقول:

وتقدم في رواية ابن أعثم: أنه «عليه السلام» قال لأصحابه عن بسر: «وقد سلك طريق الحجاز في جمع عظيم من أهل الظلم والعدوان».

ونقول:

أولاً: نستبعد أن يكون «عليه السلام» قد ذكر كلمة «عظيم» في كلامه، فإن هذا التعبير يدخل الرعب في قلوب أصحابه، ويجعلهم يترددون في إجابة طلبه بالخروج لملاقاة بسر.. وقد قال تعالى فيما يرتبط بحرب بدر: (**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ**

يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)(1).

ويشهد لما نقول: أنه «عليه السلام» قد ذكر ـ كما تقدم ـ: أن عدد جيش بسر هو ست مئة رجل.. وقد قلنا: إنهم كانوا ألفين وست مئة. وحتى لو كانوا ستة آلاف، فإنهم ليسوا جيشاً عظيماً، ولا هم من الكثرة بحيث يخاف منهم أهل العراق.. وأهل العراق في بلادهم، يأتيهم المدد من كل اتجاه إن احتاج الأمر إلى ذلك، وأولئك غرباء لا يجدون معيناً، ولا يأتيهم مدد؟!

ثانياً: عرفنا: أن خبر تحرك بسر نحو اليمن قد سار إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» بمجرد تحرك بسر من الشام، فخطب «عليه السلام» وحرَّض الناس على النهوض إليه..

فتحريض علي «عليه السلام» لأصحابه كان قبل وصول بسر إلى الحجاز، وقبل أن يقتل ويحرق ويهدم.. فما معنى أن تنسب هذه الخطبة إلى علي أنه قال في تحريض أصحابه: «أخبركم أن بسر بن [أبي] أرطأة عدو الله قد توجه إلى أرض اليمن من قبل معاوية، وقد سلك طريق الحجاز في جمع عظيم من أهل الظلم والعدوان، وفعل كذا وكذا، وأحرق وهدم الخ..».

فمتى وصل بسر وفعل ذلك كله، حتى بلغ علياً «عليه السلام»

---

(1) الآيتان 43 و 44 من سورة الأنفال.

كل هذه التفاصيل، ثم انتدب الناس إلى المسير إليه؟!

ونجيب:

إنه يبدو لنا: أنه «عليه السلام» قد خطب في أهل الكوفة مرات مختلفة ومتباعدة كلما بلغه من بسر خبر يسيئه، ولكن أصحابه كانوا يخلدون إلى الأرض، ويتشبثون بدنياهم أكثر فأكثر..

فلعل هذه الخطبة قد حصلت بعد أن بلغ بسر الحجاز، ثم جاءت الخطبة التالية لها بعد أن وصل إلى اليمن، وفعل ما فعل.

لو ائتمنه على تعب لذهب بعلاقته:

وقد خطب أمير المؤمنين «عليه السلام» أصحابه مرة بعد أخرى ليحركهم للمسير إلى رد عادية بسر الذي واصل سيره، ولم ير أمامه أي عائق، وعاث في الأرض فساداً، وعسف وظلم، وقتل وأحرق وهدم حتى بلغ اليمن، فكان علي «عليه السلام» يتابع أخباره، ويندب الناس للمسير إليه مرة بعد أخرى.. حتى وصل إلى اليمن، وفعل الأفاعيل، وهرب عبيد الله بن عباس، أمير صنعاء، وسعيد بن نمران أمير «الجند» إلى الكوفة..

فخطب علي «عليه السلام» الناس، وذكر أموراً عديدة منها شيوع الخيانة في الناس، وقلة الأمانة حتى لو ائتمن «عليه السلام» أحداً على قعب (وهو قدح من الخشب مقعر) لخشي أن يذهب بعلاقته.

أي حبله. وقد صرح الشريف الرضي (1): بأنه «عليه السلام» قد خطب بهذه الخطبة بعد قدوم عامليه: عبيد الله، وابن نمران من اليمن إلى الكوفة لما غلب عليها بسر، قال: «فقام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي، فقال: ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها. إن لم تكوني أنت تهب أعاصيرك، فقبحك الله. وتمثّل بقول الشاعر:

لعمرو أبيك الخير يا عمرو   على وضر من ذا الإناء

أنبئت بسراً قد اطلع اليمن. والله لا ظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم إلخ..».

فقد أشار «عليه السلام» بكلماته هذه إلى أمور كثيرة نذكر منها ثلاثة، هي:

ألف: لم يبق إلا الكوفة كيف؟!:

لقد أشار «عليه السلام» إلى أمر قد طرأ على حال أهل العراق بعد حروب الجمل، وصفين والنهروان، وهو انحسار محيط الخطاب، وتبعه أيضاً محيط التعامل عن مساحة العالم الإسلامي الذي يشمل جميع الأقطار والأمصار لينحصر بأهل الكوفة.. وأصبح التعامل مع

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص63 الخطبة رقم 25 وبحار الأنوار ج34 ص159 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج2 ص17 ومنهاج البراعة ج1 ص196 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص332.

سائر البلاد أشبه بالروتين الإداري الجاف والممل، والذي لا لون له ولا طعم، ولا رائحة.

أنه «عليه السلام» يريد أن يفهمنا: أن مركز الدولة هو الذي يعطي الإيحاء، ويفرض الحالة الروحية والثقافية، والإيمانية، والحيوية الإجتماعية، وطبيعة التعامل مع الرئيس والحاكم الأول.

وبعد أن كانت الكوفة قد تأسست لتكون معسكراً ينطلق منه الفاتحون ليأتوا أهلهم بالغنائم والأموال والعبيد، والسبايا، والمناصب، والنفوذ. والهيمنة والتوسع والولايات، وما إلى ذلك. وبعد أن قتل أماثل وخيار الناس في الجمل وصفين، وبقي أراذلهم ـ على حد قول الأشتر ـ ولحقهم بعد ذلك من تبقى من أولئك الأماثل، كالأشتر ومحمد بن أبي بكر، فقد وجد أهل العراق أنفسهم محرومين من الغنائم والسبايا، وسواها طيلة حكومة أمير المؤمنين «عليه السلام»..

كما أنهم، أصبحوا ملزمين بمراعاة سنن العدل، والإنصاف، وحفظ حقوق الناس، وضرب على أيدي المعتدين، والمتجاوزين لحدود الشرع والدين..

وبعد أن أطيح بنظام الإمتيازات القبلية، والتمييزات العرقية، وجوبه بالرفض والإدانة منطق العصبيات، ومنطق التمييز بين السيد والعبد. ولم يعد يسمح للسيد بالعدوان على من هم تحت يده، وأدين ورفض منطق التمييز العرقي وبعد أن أصبح المطلوب أن يكون العمل خالصاً لله، لا لمصلحة العشيرة والزعيم والرئيس، وبعد أن

أصبح لا بد من الإقتصاص للجماء من القرناء، وللمظلوم من ظالمه..

نعم.. بعد ذلك كله، وسواه مما لم نذكره مما أطيح به من سياسات الجور والخطأ والإنحراف لصالح السياسات الإلهية، والسنن النبوية لتكون هي المهيمن على حياة الناس.. بردت همم أهل الدنيا، وتراجع حماسهم، بل تبدل وتحول إلى اتجاهات أخرى، أو بقي متذبذباً حائراً، بل تائهاً.. أو حاول أن يتوارى عن الأنظار بانتظار حلول الليل،، وانحسار النهار ليهرب إلى حيث يتوقع أن تفتح الدنيا له ذراعيها.

من أجل ذلك كله.. انحسر الحماس، والرضا في جميع البلاد، وتبعه انحسار كل نشاط أمير المؤمنين عنها، ليستقر في الكوفة وينحصر فيها.

ولذلك قال «عليه السلام»: «ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها» أي أنه أصبح منشغلاً فيها، ولا يهتم لسواها، لأنها إن صلحت سهل عليه أمر غيرها، ولعله يصلح تبعاً لصلاحها.

ب: تأثير العاصمة في الأطراف:

ولو أنه أراد «عليه السلام» أن يتجه في نشاطه إلى غير الكوفة من سائر البلاد، فإنه «عليه السلام» سيواجه نفس الروحية والنظرة، والتعامل والموقف، لأن الكوفة كعاصمة مركزية هي التي تطبع سائر البلاد بطابعها، وتترك أثرها عليها، ولذلك أضاف «عليه السلام» قوله: «إن لم تكوني أنت تهب رياحك».

ج: من بقي لعلي ×:

ثم ذكر «عليه السلام» أن ما تبقى له ممن يمكنه أن يحركهم، ولو بصورة ضعيفة، ويتعامل معهم، ويعتمد عليهم بصورة أو بأخرى هم بمثابة وضر قليل في إناء.

والوضر: هو بقايا الدسم في الإناء، أو بقية قطرات الماء فيه. أو الرائحة الباقية في إناء الطعام.

وهذا يدل: على أن هذه البقية لم تبلغ في تكوينها الفكري والإيماني، والروحي الدرجات المطلوبة. وإنما تظهر عليه مسحة ضعيفة وضئيلة من الخير والصلاح والموافقة والطاعة، من دون أن يكون لها الكثير من القوة والتأثير، فكأنها بقايا دسم من طعام كان موجوداً وذهب أصله، بقي أثره. أو كأنها رائحة طعام، وليس طعاماً.

فساد كلام الجاحظ:

قال الجاحظ: «العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث. ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء.

وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأى واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيَّب الأحوال. وما زال العراق موصوفا

أهله بقلة الطاعة، وبالشقاق على أولى الرئاسة»(1).

ونقول:

إن هذا غير دقيق، بل غير صحيح، لما يلي:

أولاً: إن السبب في خمود حماس أهل العراق، وعدم استجابتهم لمناشدات علي «عليه السلام» هو ما ذكرناه. وليس ظهور معايب أمير المؤمنين «عليه السلام»، فإنه لم يظهر لهم منه إلا العدل والصفح، والعلم والزهد، والخير والمحبة، والرحمة، والتفاني في سبيل دفع الأسواء عنهم. والعمل فيهم بما يرضي الله، وبسنة رسوله «صلى الله عليه وآله».

ثانياً: إنه لم يسمح لأهل العراق بالتعبير عن آرائهم، واختيار مواقفهم إلا في زمن علي «عليه السلام»، وفيما عدا ذلك، فإنهم كانوا يعيشون تحت ظل السياط، والسيوف المسلطة على رقابهم.. ليس لهم خيار ولا اختيار مع أي زعيم، أو رئيس قبيلة، أو قائد، أو حاكم..

بل كان حكامهم أعداءهم، وكانوا مولعين بسفك دمائهم، حريصين على إلحاق الأذى بهم، ويتفننون في قهرهم وظلمهم. ولا سيما في عهد الأمويين والعباسيين، لأنهم كانوا يتهمونهم بالولاء لعلي وأهل بيته الطاهرين «عليهم السلام». وهذا ذنب لا يغفر، وجريمة لا تستقال.

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص343.

ويلاحظ: أن المعتزلي استشهد على صحة كلام الجاحظ بخطب كثيرة للحجاج كان يتوعد فيها أهل الكوفة.. وكلنا يعلم: أن الحجاج إنما جاء لينتقم منهم، وليذلهم لأجل مذهبهم ورأيهم في البيت العلوي،كما قلنا.

وإنما يصفون أهل العراق بقلة الطاعة، وبالشقاق على أولي الرئاسة ليجعلوه ذريعة للبطش بهم، ومبرراً لقتلهم، وقهر وإذلال من يتبقى منهم..

ثالثاً: من الذي قال: إن أهل الشام ذوو بلادة وتقليد، وجمود رأي. وما الذي جعلهم كذلك، وميزهم بهذه الخصوصية عن غيرهم؟!

ومن الذي قال: إنهم لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيَّب الأحوال؟!

رابعاً: لماذا لا يكون سكوت أهل الشام أيضاً وانقيادهم وطاعتهم رهبة من بطش الحكام، وطاعة لرؤساء العشائر الذين يشتريهم الحكام بالأموال والمناصب، والإقطاعات، وسواها؟!

كما أن أهل العراق لو وجدوا عند علي «عليه السلام» ما كان عند غيره من الرشوات، والعطاءات للأموال المسروقة من أهلها.. للأعوان والمتزلفين، وللسادة والرؤساء لأطاعوا علياً «عليه السلام»، كما أطاعوا غيره.

وقد أشير على علي «عليه السلام» بأن يفعل ذلك فرفض قائلاً: «ما كنت لأطلب النصر بالجور».

وقد ذكر «عليه السلام» مشيراً إلى ذلك: أنه عالم بما يصلحهم، ولكنه لم يكن ليصلحهم بإفساد نفسه، فإن الذي يصلحهم إما الرشوات والأموال، أو السيف والظلم والقهر لهم، وذلك كله لا يستحله علي «عليه السلام».

أسباب النصر عند علي ×:

وقد ذكر «عليه السلام»: أن معاوية وأهل الشام سوف يدالون ـ أي ستكون لهم الدولة، والغلبة على أهل العراق ـ وذكر «عليه السلام» لذلك أسباباً أربعة، هي:

1 ـ إجتماعهم على باطلهم، وتفرق أهل العراق عن حقهم.

وهذا يدل على: أن الحق وحده لا يعطي نصراً.. بل النصر هو في الإجتماع عليه.. بل الإجتماع والإتفاق يعطي النصر حتى لأهل الباطل. كما دل عليه قول أمير المؤمنين «عليه السلام» هنا.

كما أن التفرق يوجب السقوط والهزيمة. حتى لو كانت الأطروحة التي يتبناها هؤلاء محقة وصائبة.

2 ـ إن الطاعة لإمام الباطل، ومعصية إمام الحق، من موجبات فوز الباطل على الحق.

3 ـ إن معاوية ولَّى أصحابه البلاد، فجبوا له الأموال بالرغم من أنه متغلب غاصب.

ولكن أصحاب علي «عليه السلام» خانوا الأمانة، فقد ولى فلاناً

وفلاناً، فغدروا واحتملوا فيء المسلمين إلى معاوية.

وهذه جريمة مضاعفة لما فيها من تقوية شوكة الباطل بالمال، وتكريس دعوى معاوية، التي يريد بها التلبيس على الناس وخداعهم.

وقد بلغ من خيانة أهل العراق لرئيسهم أنه لو ائتمنهم على قعب (وهو القدح من خشب) لذهب بعلاقته، وسرقها، وهي الحبل الذي يعلق به، ولأعاد العقب إليه خالياً منها.

4 - إن أصحاب معاوية قد عملوا في صلاح بلادهم وإعمارها، ولكن أصحاب علي «عليه السلام» سعوا فيها بالفساد في بلادهم، وخرابها.

وخلاصة الأمر:

ألف: أن أصحاب معاوية، قد ينتصرون:

1 - بتوحدهم على ما يريدون بالرغم من أنه باطل.

2 - طاعتهم لإمامهم.

3 - أدائهم الأمانة لصاحبهم. بالرغم من أنها عين الخيانة.

4 - صلاحهم في بلادهم. بالرغم من أنه صلاح في خدمة الفساد.

ب: أما أصحاب علي «عليه السلام» فكانوا:

1 - متفرقين عن قضيتهم. بالرغم من كونها حقاً.

2 - عاصين لإمامهم الذي يأمرهم بالحق.

3 - يخونون صاحبهم، وهو إمام حق، ويهربون بأموال المسلمين

إلى عدوه معاوية. فكيف إذا بلغت هذه الخيانة إلى حد الخيانة في أتفه الأشياء، وهو حبل الليف الذي يعلق به قدح الخشب؟!

4 ـ يضاف إلى ذلك: فسادهم في بلادهم، مع أنه فساد يضرُّ بهم قبل كل أحد.

فدلنا ذلك: على أن الحق وحده لا يجلب نصراً. وعلى أن الإمام الحق وحده من دون طاعة رعيته لا يحقق نصراً.

وعلى أن أمانة الإمام مع خيانة الرعية لا تأتي بالنصر.

وعلى أن صلاح الإمام مع فساد رعيته لا يأتي بالنصر أيضاً.

السأم والملالة، وما له من دلالة:

1 ـ وقد عبر «عليه السلام» عن ملالته منهم، وسأمه من أصحابه بقوله: «اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني»، وفي رواية ابن أعثم (بدل سئمتهم): «كرهتهم وكرهوني».

وحالة الملامة والسأم إنما تعرض للإنسان بسبب تكرار أمر بعينه من دون فائدة ولا عائدة، فإذا كانت الملالة من الطرفين، فذلك يعني تكرار كل منهما لحركات معينة، يقابلها الآخر بحركات أخرى من دون أن يأتي كل منهما في حركاته بجديد.

إما لعدم توفر إرادة التغيير والإستجابة، كما هو حال أصحابه «عليه السلام».. وإما لعدم قدرته، لأن التجديد يحتاج إلى توفر عناصر تحت اختياره، كما هو حال أمير المؤمنين «عليه السلام».

2 - ويزيد الأمر سوءاً ومرارة: أن الذي كان يتكرر منهم هو التخاذل، والتواكل، ومعصية أوامره «عليه السلام»، مع أنه وصي نبيهم. يضاف إلى ذلك: مظاهر تفرقهم عن حقهم، وتشتت أهوائهم.. وقعودهم عند مواجهة أعدائهم.. ولم يكن «عليه السلام» يلاحظ أي تغير نحو الأحسن فيهم.

والذي كان يتكرر منه «عليه السلام»: هو موعظتهم، وحثهم على مواجهة عدوهم، ومحاولات إيقاظهم من سباتهم، وإعادة الرشد إليهم، وتذكيرهم بما يجب عليهم، وإرشادهم إلى طريق العزة والخير، والكرامة والصلاح، وملامتهم على تواكلهم، وتخاذلهم.. والشكوى من عدم التفاتهم لنتائج أعمالهم.

3 - إنهم قد سئموه، وملوه لأنهم لم يروه قد بدل وغير عن سنة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولم يتركهم وشأنهم، كما أنهم لم يسمعوا منه لحظة واحدة ما يعبر عن رضاه بتصرفاتهم هذه، أو تغاضيه عنها.

4 - إن سأمه «عليه السلام» وملالته منهم تدل على أنه قد يئس من صلاحهم، وأصبح يرى أنه لا فائدة من التعب والنصب، فـ:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

5 - ويدل سأمهم منه على أن فكرهم قد تبلد، وعلى أنهم فقدوا الشعور بقبح أعمالهم، ورضوا، بل أنسوا بسيئات أفعالهم، وأصبح المنكر عندهم معروفاً، وأصبح الخير والصلاح، ورضا الله هو

المنكر.

وهذه كارثة عظمى، وخطب جلل، لأنه يعني أنهم أصبحوا يكرهون الحق، وينفرون منه، ويحبون الباطل، ويحنون إليه!!

ضرورة الإبدال:

ولأن هذا الأمر مما لا يمكن قبوله والإغضاء عنه، ولأنه «عليه السلام» يكره الباطل وأهله، ويحن إلى الإبتعاد عنهم، والخلاص منهم، يصبح طلبه «عليه السلام» من الله تعالى أن يبدلهم بهم خيراً منهم، ويبدلهم به شراً منه، طلباً طبيعياً جداً، إذ لا يمكن أن يكون «عليه السلام» مع من يأنس بالباطل، ولا يشعر بقبح القبيح، بل لعل من بينهم من تبدلت نظرته، ومسخ تفكيره وفهمه، حتى صار يرى المنكر معروفاً، والمعروف منكراً.. وبذلك يصير مقام علي معهم ما هو إلا زيادة في العذاب والأذى له «عليه السلام» من دون أن يكون له أية فائدة لهم سوى أن يزيد في جرأتهم على ارتكاب الشرور وممارستها بمرأى ومسمع من حماة الخير، وأنصاره..

ولعلك تقول:

هل قوله «عليه السلام»: «وأبدلهم بي شراً مني» يدل على أنه كان فيه «عليه السلام» قدر من الشر، وكان هناك من هو أشر منه؟!

ونجيب:

بأن كلمة خير وشر، وإن كانت تستعمل للتفضيل، ولكنها أيضاً قد يقصد بها مجرد ثبوت المعنى فيما تضاف إليه. ولا يراد بها الدلالة

على ثبوت الخير والشر في طرفي المقابلة، وأنه في أحدهما أكثر من الآخر.. بل تريد أن تقرر: المقابلة بين واجد أصل الخير والشر، وبين فاقده.

فإذا قلت: العدل خير من الظلم، والصحيح خير من السقيم، والخير أفضل من الشر، فذلك لا يعني: أن في الظلم، وفي السقم، وفي الشر شيء من الخير، لكنه في العدل والصحة، والخير أكثر. فهو من قبيل قوله تعالى: **(أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**(1). وقوله تعالى: **(أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ)**(2).

وقال تعالى: **(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)**(3). مع أن الجزاء ليس سيئة وإن كان على شلكها وصورتها.

اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح:

وقد دعا «عليه السلام» على أولئك الناس: بأن يميث قلوبهم ويذيبها، كما يذاب الملح في الماء.. ولعله أراد أن يدعو عليهم بزيادة همومهم، حتى تذوب بها قلوبهم من الأسى والألم. لأنها لم تعد صالحة، ولا قابلة للإصلاح، فلا بد من التخلص منها، وذوبانها ثم استبدالها، أو إعادتها بقدرة قادر إلى الحياة بالحق، وبالموعظة،

---

(1) الآية 40 من سورة فصلت.
(2) الآية 15 من سورة الفرقان.
(3) الآية 40 من سورة الشورى.

وبالتذكير، وبالمقارنات بين النعم والنقم، وبين الحسن والقبيح، والصالح والطالح، والحق والباطل..

الواحد مقابل عشرة، أو أكثر:

زاد في رواية الشريف الرضى«رحمه الله» قوله: «والله لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم»، ثم تمثل:

هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم[1]

الأرمية: جمع رمي. وهو السحابة العظيمة القطر.

والحميم: وقت الصيف، حيث الحر الشديد. والأرمية أيضاً: الماء الحار.

وبنو فراس بن غنم كانوا معروفين بالشجاعة. قيل: إن الواحد منهم بعشرة رجال.

يقول «عليه السلام»: أنه لو وجد ألفاً من بني فراس بن غنم لاستغنى بهم عن جيش العراق كله. ولحارب بهم معاوية وانتصر عليه.. مع أنه «عليه السلام» كان قد جمع عشرات الألوف لحرب معاوية في صفين. مما يعني: أن الألف من بني فراس يوازي كل تلك الألوف.

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج1 ص63 الخطبة رقم 25 وبحار الأنوار ج34 ص159 و 160 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج2 ص17 ومنهاج البراعة ج1 ص196 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج1 ص332

وليس بالضرورة أن تكون عشرات الألوف كلها تتصف بالشجاعة. ولكنها كانت تتعاون على الوصول إلى غرضها وتتآزر، فلو كانوا مئة ألف مثلاً، فإنهم حين انضمام بعضهم إلى بعض يصيرون بمثابة ألف بطل شجاع..

وقد قيل: إن الكثرة تغلب الشجاعة. وعلي يقول هنا: إن الشجاعة تغني عن الكثرة، وهذا منطلق من قوله تعالى: **(كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ)**(1).

غلط فاحش عند ابن أعثم:

وتقدم قول ابن أعثم: إن عبيد الله بن العباس خرج في طلب بسر في زهاء ألف رجل من نجبة (لعلل الصحيح: نخبة) فرسان أهل اليمن. فلحقه قبل أن يدخل الشام، فواقعه، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة. وقتله في من قتل، وأحرقه بالنار، وانهزم أصحابه هزيمة قبيحة إلخ..

فإن ذلك غير صحيح.. فقد تقدم أن عبيد الله بن عباس هو الذي هرب من بسر وقدم الكوفة إلى علي «عليه السلام»، وإن ذلك أغضب علياً..

ولا شك في أن بسراً قد بقي حياً إلى عهد عبد الملك بن مروان، وقد دعا عليه علي «عليه السلام».. فما معنى قولهم هنا: إنه قتل في

---

(1) الآية 249 من سورة البقرة.

من قتل، وأحرق بالنار.

ولو أردنا أن نحسن الظن هنا إلى الغاية، فقد نجيز لأنفسنا أن نبدي احتمالاً لا دليل عليه، ولا شاهد له، وهو: أن يكون «عليه السلام» قد أرسل عبيد الله ليعترض بسراً في عودته هارباً إلى الشام، فالتقى به في ذلك الموضع، وربما يكون قد حصل بينهم بعض القتال، ثم هرب هو وأصحابه إلى الشام، خوفاً من أن ينضم إليهم جارية بن قدامة أيضاً..

ولكن هذا يبقى مجرد احتمال، أو رجم بالغيب لا شاهد له سوى رواية ابن أعثم المشار إليها.

لو وجدت أبا سنور لقتلته:

وما أروع كلمة جارية بن قدامة حين وصل إلى المدينة فهرب منه أبو هريرة، فقال جارية بن قدامة: «لو وجدت أبا سنور لقتلته».

ولا ريب في أنه لن يجد أبا هريرة، لأن هذا الرجل في أيام الحرب يبحث عن الجبل ليكون في أعلاه لأنه أسلم، وفي أيام السلم يبحث عن طعام معاوية، لأنه أدسم.

وزعموا: أنه هو صاحب القول المشهور: الصلاة خلف علي أقوم، وطعام معاوية أدسم، والقعود على هذا التل أسلم**(1)**. أو نحو ذلك.

وقد أشرنا في الفصل السابق إلى بعض ما يرتبط بتوليه بسر له على المدينة.

وللشيخ محمود أبي رية كتاب باسم: أبو هريرة شيخ المضيره، وللسيد عبد الحسين شرف الدين كتاب باسم: أبو هريرة. فليراجعهما من أراد.

استجابة دعاء علي × في بسر:

قال المعتزلي:

ودعا علي «عليه السلام» على بسر، فقال: اللهم إن بسراً باع دينه بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده

(1) راجع: السيرة الحلبية ص397 و (ط دار المعرفة) ج3 ص367 والإيضاح لابن شاذان ص537 وربيع الأبرار للزمخشري، وروض الأخيار (المنتخب من ربيع الأبرار) ص122 ومستدرك سفينة البحار ج10 ص530 وأبو هريرة للسيد شرف الدين ص207 والكنى والألقاب ج1 ص180 وشذرات الذهب ج1 ص64 وثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ط سنة 1326 هـ) ص86 و 87 و (ط سنة 1384هـ) ص111 و 112.

مما عندك.

اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله، ولا توجب له رحمتك، ولا ساعة من نهار.

اللهم العن بسراً، وعمرواً، ومعاوية، وليحل عليهم غضبك، ولتنزل بهم نقمتك، وليصبهم بأسك ورجزك الذي لا ترده عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بسر بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله، فكان يهذي بالسيف، ويقول: أعطوني سيفاً أقتل به، لا يزال يردد ذلك حتى اتخذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات[1].

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص18 وبحار الأنوار ج34 ص11 عنه، وج41 ص204 عن المناقب، والإرشاد للمفيد ص 152 ومناقب آل أبي طالب ج1 ص 434 و (ط المكتبة الحيدرية) ج2 ص113 والغارات للثقفي ج2 ص640 - 642 والأمالي للمفيد ص180 والإمام علي بن أبي طالب للهمداني ص643 والدرجات الرفيعة ص146 ونهج السعادة ج6 ص329.

الفصل الخامس:

عهد علي ×

لجارية بن قدامة..

بداية:

قلنا فيمما تقدم: إن أمير المؤمنين «عليه السلام» حين أرسل جارية بن قدامة لمواجهة بسر بن أبي أرطأة، قد أوصاه بوصية، وعهد إليه عهداً.. وقد وعدنا القارئ بإفرادهما في فصل مستقل، وقد حان الآن موعد الوفاء بالوعد، فنقول:

إنه «عليه السلام» خرج مع جارية بن قدامة يشيعه، وقال «عليه السلام» له:

يا جارية! عليك بتقوى الله عزو جل، وإذا صرت إلى بلاد اليمن وإلى الموضع الذي أمرتك بالمسير إليه، فلا تحتقر مسلماً ولا معاهداً، ولا تغصبن لأحد مالاً ولا دابة، [وإن حفيت وترجلت]، وصلِّ الصلوات الخمس لوقتها، واذكر الله كثيراً.

عهد علي × لجارية:

وقد ذكر الثقفي واليعقوبي نصاً أوفى لهذا العهد، وهو كما يلي:

عن أبي خالد الوالبي، قال:

قرأت عهد علي لجارية بن قدامة:

أوصيك يا جارية بتقوى الله، فإنها جموع الخير، [ورأس كل أمر، وتركت أن أسمي لك الأشياء بأعيانها، وإني أفسرها حتى تعرفها] وسر على عون الله، فالق عدوك الذي وجهتك له، [ولا تحتقرن من خلق الله أحداً]، ولا تقاتل إلا من قاتلك، ولا تجهز على جريح.

ولا تسخرن دابة، [بعيراً ولا حماراًٍ، وإن ترجلت وحفيت] وإن مشيت ومشى أصحابك، ولا تستأثر على أهل المياه بمياههم، ولا تشربن إلا فضلهم عن طيب نفوسهم.

ولا تشتمن مسلماً، ولا مسلمة، فتوجب على نفسك ما لعلك تؤدب غيرك عليه، ولا تظلمن معاهداً، ولا معاهدة، واذكر الله، ولا تفتر ليلاً، ولا نهاراً.

واحملوا رجالتكم، وتواسوا في ذات أيديكم، وأجدد السير، [وأغذ السير حتى تلحق بعدوك]، وأجل العدو من حيث كان، واقتله مقبلاً، واردده بغيظه صاغراً، واسفك الدم في الحق، واحقنه في الحق، ومن تاب فاقبل توبته.

وإخبارك في كل حين بكل حال، والصدق الصدق، فلا رأي لكذوب(1). انتهى.

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص200 وراجع: نهج السعادة ج8 ص366 و 367

ونقول:

عهد علي × لابن قدامة:

وتقدم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد زود جارية بن قدامة بعهد مكتوب، أثبت له فيه ما يريده منه في عدة مجالات.. ويمكننا تقديم فهرسة إجمالية لما ورد في هذا العهد على النحو التالي:

تطرق «عليه السلام» إلى الحالات التالية:

1 ـ ما يخص جارية بن قدامة في نفسه، وبما يرتبط به هو كشخص.

2 ـ تحديد مهمته تجاه العدو، وتحديد من هو العدو، وطريقة التعامل معه.

3 ـ تحديد نهاية المهمة الموكلة إليه.

4 ـ تحديد طريقة تعامله مع الناس الذين يلتقيهم، أو يمر بهم، أو يحتاج إلى التعامل معهم من الناحية الأخلاقية، والمالية.

5 ـ طريقة تعامل جنده مع بعضهم البعض.

6 ـ تحديد علاقته به «عليه السلام»، من حيث أنه هو القائد والإمام.

ونذكر هنا ما رسمه «عليه السلام» لقائده من مقررات، وما بينه له من حدود، وما ألزمه به من أوامر ومهمات، فنقول:

ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص150.

ألف: ما خص به القائد في شخصه:

اختصر «عليه السلام» ما يريده من جارية بن قدامة بأمور هي:

1 ـ تقوى الله، وهي الشيء الأهم، لأنها جموع الخير، ورأس كل أمر.

ولسنا بحاجة إلى بيان: أنه لا توجد كلمة تجمع كل مراداته «عليه السلام» من قائده مثل هذه الكلمة. فإنه إذا راعاها، والتزم بها يكون قد حقق كل ما يريده «عليه السلام» في جميع المجالات التي ذكرها له، والتي لم يذكرها مما قد يحتاج إليه جارية..

2 ـ أن يكون اعتماده في مسيره ذاك على عون الله.. لا على عسكره، ولا على شجاعته، ولا على براعته في وضع الخطط القتالية أو غيرها..

3 ـ أمره بذكر الله تعالى كثيراً، وأن يكون هذا الذكر متواصلاً ليلاً ونهاراً. ربما لأن أمثال هذه المهمات تشعر الإنسان ـ عادة ـ باستغنائه بقوته، وتجعل قلبه قاسياً، وتكثر تفكيره بما حوله، وتقل تذكره لله تعالى.. كما أن انقطاعه عن الله قد يسوقه إلى أن يكرس لديه الشعور بأن الحسابات المادية هي الأساس في النجاح والفلاح، ولا يبقى للدافع الإيماني والروحي، التأثير والحضور المطلوب.

4 ـ أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها.. وليلاحظ: أنه لم يقل له عليك أن تحافظ على صلاتك، بل نص له على أن المطلوب هو

«الخمس» كلها. فلا يتهاون بأي واحدة منها بحجة التعب، وبحجة النوم، أو بحجة أن بالإمكان تأخير هذه الصلاة لقطع هذه المسافة، أو لغير ذلك من مثبطات.

ب: المطلوب من جارية تجاه العدو:

وقد حدد «عليه السلام» لجارية المطلوب منه تجاه عدوه، كما يلي:

1 - أمره أن يلقى عدوه، فقال له: «فالق عدوك»، ولم يقل: فالق العدو.. لأن المغيرين أعداء لجميع الناس بما فيهم جارية.. ولأن نفس إعزام جارية لمواجهة بسر ومن معه، يضاعف المشاعر العدائية لدى بسر تجاه جارية، ويجعله متحفزاً لمواجهته ومن معه بالخصوص.. أي أن عداوته قد تركزت على هذه المجموعة بخصوصها.

2 - وربما يدور بخلد جارية، أو غيره ممن معه: أن لهم الحق بالبطش بكل من له صلة ببسر ومن معه، ولو لأجل كونه من بلده، أو من عشيرته، أو لأن له تجارة معه، أو لغير ذلك.. فيسوغ لنفسه أن يتعامل معه كما يتعامل مع بسر وأصحابه. فجاء التوجيه من أمير المؤمنين «عليه السلام» على شكل ضابطة ميدانية تقول: لا تقاتل إلا من قاتلك.. أي أنه حتى لو التقى بابن بسر بن أبي أرطاة، أو بأخيه، ولم يقاتله بالفعل، فليس لجارية أن يتعرض له..

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» قال: «قاتلك»، ولم يقل: من يريد أن يقاتلك، أي أن ما يسوغ لجارية القتال هو مباشرة الطرف الآخر له،

لا مجرد أن تكون له نية فيه..

بل إن أصحاب بسر أنفسهم إذا ظهر لجارية من بعضهم أنه لا يقاتله، فعلى جارية أن يتجنب قتاله، لأن من الجائز أن يكون بعضهم قد راجع نفسه، وتراجع عن قرار القتال..

3 ـ بالرغم من أن بسراً ومن معه قد جاؤوا للإغارة على البلاد، وقتل العباد، وإلحاق الأذى بكل ما ومن تصل يدهم إليه، فإنه «عليه السلام» أمر جارية بأن لا يجهز على جريح منهم..

4 ـ بعد أن حدد العدو لجارية بصورة دقيقة أباح «عليه السلام» لجارية أن يقتل عدوه إذا كان مقبلاً ومهاجماً فقط، أما إذا أدبر وهرب، فلا..

5 ـ إن المطلوب من جارية في بادئ المر ـ وقبل أن يقتل بسر أحداً من المسلمين ـ ليس هو قتل بسر وأصحابه، بل المطلوب هو ردهم بغيظهم صاغرين.. وإنما يجوز قتلهم إذا كانوا مهاجمين، وأثناء التصدي لرد عدوانهم إذا توقف ردهم على القتل..

6 ـ والمطلوب أيضاً: جلاؤه عن كل شبر من بلاد المسلمين، لأن زحزحتهم عن موضعه إلى غيره كسر لشوكتهم. وإضعاف لعزيمتهم..

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» قال في هذا المورد: «أجل العدو من حيث كان» ليشير بذلك إلى أمرين:

أحدهما: أن جميع المواضع التي يكون فيها يكون معتدياً

وغاصباً..

الثاني: أن إجلاءه سيكون من موجبات ضعفه، وكسر هيبته وشوكته كما قلنا.

7 - إنه «عليه السلام» أباح لجارية: أن يسفك الدم في الحق. كما لو أسر من أولئك المهاجمين من قتل مسلماً محقون الدم، فإن سفك دم المعتدي القاتل للمسلم قد فرضه الحق ورضيه. أما لو قاتل وأسر، ولم يكن قد قتل أحداً، فإنه يحقن دمه في الحق..

8 - إنه «عليه السلام» أمره بأن يقبل توبة من مالأ العدو وأعانه، ويصفح عنه.

9 - وأمره أيضاً: بأن يجد السير للوصول إلى العدو بسرعة.. فإن ذلك يلقي الرعب في قلب ذلك العدو.. لأن السير البطيء قد يوهمه أنك خائف منه، وتتلافى المواجهة معه، فيتشجع للقائك.. فسرعتك تظهر له رغبتك في القتال، وتصميمك عليه..

ج - التعامل مع الناس:

أما فيما يرتبط بالناس الذين يمر بهم، فقد ذكر «عليه السلام» في هذا العهد أموراً عديدة تخصهم، منها:

1 - أن لا يسخر دابة، لا بعيراً ولا حماراً لأحد منهم. فليس له أن يستعمل في أموره وأمور الجيش الذي معه، من دون أجرة ومقابل. فضلاً عن أن يستعمله من دون إذن صاحبه ورضاه.. مهما كانت

حاجته إليه ماسة، بأن لم يعد لدى أصحابه ما يركبونه في سفرهم الطويل، وكذا لو حفيت دوابهم، ولم تعد قادرة على حملهم، فإن ذلك لا يبيح تسخير دواب الناس.. حتى لو اضطر إلى أن يمشي ويمشي أصحابه.

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» قد أكَّد المنع من تسخير الدابة بنون التأكيد الثقيلة، فقال: «لا تسخرن»، لكي لا يستسهل هذا الأمر بذريعة الإضطرار، أو التعب الشديد الذي يضجر الإنسان.

2 ـ أن لا يستأثر على أهل المياه بمياههم لنفسه ولأصحابه..

3 ـ أن لا يشربن إلا فضلهم عن طيب نفوسهم..

ويلاحظ هنا أيضاً: أنه «عليه السلام» حين نهاه عن الإستئثار بمياه الناس لم يأت بنون التأكيد لا خفيفة ولا ثقيلة، لأن نفس الإستئثار بشيء، أمر تنفر منه النفوس الإنسانية، وتمجه الطباع. حتى لو كان ذلك الشيء ملكاً للمستأثر.

فكيف إذا كان ذلك الشيء ليس مباحاً لكل الناس؟! بل هو خاص بفئة بعينها، فإن الإستئثار به يكون أقبح وأسوأ..

لأن الإستئثار نفسه عمل غير أخلاقي.. فإذا كان بما لا يملكه المستأثر كان أكثر سوءاً، فإذا كان المالك له هو من تستأثر به عليه.. كان الأمر أسوأ وأفحش.

ولكنه حين أمر قائده بأن لا يشرب إلا ما فضل عنهم، وشرط عليه أن يكون ذلك عن طيب نفوسهم، جاء بنون التوكيد الثقيلة لتفيد

الردع مضاعفاً.. لأن النفس قد تزين لصاحبها أن الماء وإن كان لأولئك الناس، ولكنهم بعد أن وردوه، وارتووا منه، وكذلك مواشيهم، فقد أصبح لنا الحق بوروده، ولو بالرغم عنهم. لأن عطشنا الذي نشعر به شديد علينا، فلماذا هذا اللؤم منهم علينا؟!

كما أنه «عليه السلام» قد حصر شرب قائده وجنده بما فضل عنهم، لكي يمنعه حتى من مشاركتهم في ذلك الماء، حتى لو كان عن طيب نفوسهم، فإن شعور أصحاب الماء بالمشاركة، وشعوره وشعور جنده بها له سلبيات على الروح والنفس أيضاً لا يريد «عليه السلام» لها أن تكون.

فهذه التزيينات الباطلة لا تلغي قول صاحب الشريعة: لا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس(1). ولا تلغي حقيقة أن الوقوف عند الشبهات

(1) غوالي اللآلي ج1 ص222 والغدير ج8 ص129 ومسند أحمد ج5 ص72 والسنن الكبرى للبيهقي ج6 ص100 وج8 ص182 ومجمع الزوائد ج3 ص265 وج4 ص172 والآحاد والمثاني ج3 ص292 و 293 والمفاريد عن رسول الله لأبي يعلى الموصلي ص80 ومسند أبي يعلى ج3 ص140 وسنن الدارقطني ج3 ص22 وشعب الإيمان للبيهقي ج4 ص387 ومعرفة السنن والآثار ج6 ص282 والإستذكار لابن عبد البر ج7 ص145 و 192 وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج1 ص92 وكشف الخفاء ج2 ص370 والتبيان ج7 ص463 ومجمع البيان للطبرسي ج7 ص273 وفقه القرآن للراوندي ج2 ص33 و 74 ومصادر كثرة أخرى.

والورع في الدين يحبب الناس بالدين وبأهله، ويجعل الناس يتلذذون بمحاسن التعاليم الدينية، وتلامس آثارها شغاف قلوبهم.. وتثير في داخلهم معان بالغة التأثير في صقل أرواحهم، وتصفية نفوسهم وتهذيبها.

4 ـ أمره أن لا يشتم مسلماً ولا مسلمة. وفي هذا المورد بخصوصه، أشار إلى العقوبة التي يعرض نفسه لها. لعله لأنها هي المورد الوحيد الذي تناله العقوبة منه بصورة جازمة.

كما أنه أشار إلى أن كونه قائداً ومجاهداً لا يعفيه من الجزاء العادل، بل يكون هو وغيره أمام القضاء في مرتبة واحدة.. ولذلك قال له: «فتوجب على نفسك ما لعلك تؤدب غيرك عليه..».

وقد تستوقف المرء كلمة «لعلك» التي لا تفيد حتميته أن يكون هو المؤدب، إذ ليس بالضرورة أن يكون هو الذي يقوم بذلك، لأن غيره قد يكون هو المؤهل للقيام بهذا الأمر دونه، ولعل التأكيد بنون التأكيد الثقيلة تشير به إلى أن جهاده لا يخفف عنه العقوبة، فضلاً عن أن يعفيه منها، فلا يتوهمن شيئاً من ذلك، فيستسهل شتم الناس.

5 ـ أن لا يظلم معاهداً ولا معاهدةً. ولعل تخصيصهما بالذكر، مع تأكيد ذلك بنون التأكيد الثقيلة، لأن الإختلاف في الدين قد يهون عليه أمرهما، ويجرؤه على ظلمهما..

كما أن كونهما معاهدين قد يوهمه: أنه لا أحد يدفع عنهما، ويطالب بحقهما، ولا حامي لهما من هذا الظلم، فإذا جاءته الوصية

بهما من الرجل الأول، وفيها هذا التأكيد، فسيحسب ألف حساب قبل أن يقدم على شيء من ذلك.

6 - أن لا يحتقر من خلق الله أحداً. وقد أكَّد «عليه السلام» هذا الطلب بنون التأكيد أيضاً.. أي أنه «عليه السلام» يحاسبه على نظرته الباطنية للناس، وعلى مشاعره تجاههم، ويريد أن يضعها على الطريق الصحيح..

وقد بيَّن «عليه السلام» سبب هذا النهي في كلام آخر له، حين اعتبر الناس صنفين:

«إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق». وفي الحديث الشريف: «كلكم لآدم وآدم من تراب..».

وإنما يتفاوت الناس بعد ذلك بأعمالهم **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)**(1).

د: تعامل الجيش مع بعضه:

وفيما يرتبط بتعامل عناصر هذا الجيش مع بعضهم بعضاً، ذكر «عليه السلام»:

1 - أن عليهم أن يحملوا رجالتهم، ولا يزعم أي منهم أنه هو صاحب هذه الدابة أو تلك، فيستفيد منها دون أخيه. لأن أخاه إن

---

(1) الآيتان 7 و 8 من سورة الزلزلة.

أضعفه المشي، أو أقعده التعب عن مواصلة المسير، فإن ذلك سيوجب ضعفاً له في ساحات القتال، ولأن شعور أخيه بالمرارة بسبب عدم مبالاة رفيقه بتعبه وما يجري له، سوف يزهده بمعونته على عدوه في ساحات القتال. وسيطلب الراحة لنفسه، والإحتفاظ بفضل قوته..

2 ـ وأمرهم أيضاً بالمواساة في ذات اليد، فمن كان عنده طعام معجب فليبذل منه لإخوانه، وليقبل منهم ما يبذلونه له، ولا يبخل أي منهم بما لديه، ويزويه عن أخيه.. فإن لذلك آثاراً غير محمودة، وينبغي أن لا تكون بين الإخوة موجودة.

هـ : الإتصال المستمر بالقيادة:

وفي ذلك العهد مطالب أخرى، ترتبط بعلاقة هذا الجيش بمرجعيته القيادية.. فقد أمره «عليه السلام»:

1 ـ بأن يوصل أخباره إليه في كل حين، فلا يجوز أن تنقطع أخباره عنه أبداً.

2 ـ أن لا يقتصر في أخباره على خصوص ما يرتبط بالشؤون القتالية، بل عليه أن يخبره بكل حال..

3 ـ وقد أكد «عليه السلام» على الصدق في الإخبار، بصورة صريحة بتكرار لفظ الصدق بالذات، لأنه يريد أن تكون هذه الأخبار مرتكزاً لتكوين الرأي الصائب في معالجة القضايا، وأي إخلال في معنى الصدق سيوجب إخلالاً في الرأي، ويتحول من رأي معالج إلى رأي قد يجلب الكوارث. ولذا قال «عليه السلام»: «فلا رأي

لكذوب».

وقد أظهرت النصوص التي وصفت حال جارية بن قدامة في مسيرة ذاك: أنه قد استفاد كثيراً من هذا العهد. فقد ورد في كلماتهم. ما يشير إلى التزامه بتطبيق ما ورد فيه، فلاحظ ـ على سبيل المثال ـ كلماتهم التالية:

لم يعاقب أحداً.

ولم يغضب أحداً.

لم يرد أحداً من أهل الطائف، ولم يظلمه.

أغذ السير، ما يلتفت إلى شيء مر به.

إذا أرمل بعض أصحابه من الزاد (أي نفذ زاده) كان يأمر أصحابه بمواساته.

إذا سقط بعير رجل أو حفيت دابته أمر أصحابه بأن يعقبوه.

لاحق جارية بسراً حتى أخرجه من أعمال علي «عليه السلام»..

ولم يقتل أحداً. إلا قوماً [من اليهود أسلموا] ثم ارتدوا باليمن، فقتلهم وحرقهم.

ولعل المقصود بالتحريق التحريق الذي اقتضته العمليات الحربية.. كتحريق النبي لنخل بني النضير ليمكن إدارة المعركة بصورة صحيحة.. كما أن بعض الناس قد يلقي النار على المقاتلين فيقابل بالمثل.

وأما أنه أحرقهم بالنار بعد القتل، فهذا ما ورد في رواية ابن أعثم التي تقدم ما فيها. علماً أنه لا فائدة من إحراقهم بالنار بعد القتل، ولم يرد هذا في جملة العقوبات للمرتدين. إلا أن يكون بعض الناس قد فعل ذلك بجثثهم من دون علم جارية، ومن دون رضا ولا علم من علي «عليه السلام»، أو من ولده الإمام الحسن «عليه السلام».

على أن رواية ابن أعثم تذكر شيئاً آخر تخالفها فيه سائر الروايات، وهو: أن جارية قد عاد إلى الكوفة وأخبر علياً «عليه السلام» بما كان. مع أن الروايات تذكر: أنه «عليه السلام» استشهد وجارية كان لا يزال في مكة، وقبل أن يصل إلى الكوفة.. وعرف هناك باستشهاده «عليه السلام»، فأخذ البيعة من أهل مكة للإمام الحسن «عليه السلام».

الباب السادس:

أحداث.. وشخصيات.. ونهايات..

الفصل الأول: لكي تكتمل الصورة..

الفصل الثاني: كان لي الأشتر كما كنت لرسول الله..

الفصل الثالث: رسائل، وعهود تعني الأشتر، وأهل مصر..

الفصل الرابع: عهد الأشتر.. متنه وسنده..

الفصل الخامس: مصر في يد الأعداء..

الفصل السادس: خواتيم.. ونهايات..

الفصل السابع: ابن عباس وأموال البصرة.. نصوص مأثورة..

الفصل الثامن: براءة ابن عباس..

الطبري يقول:

قال الطبري في حوادث سنة 37 هـ:

عن الشعبي، قال: بعث علي «عليه السلام» بعدما رجع من صفين جعدة بن هبيرة المخزومي، وأم هانئ بنت أبي طالب إلى خراسان، فانتهى إلى أبرشهر، وقد كفروا وامتنعوا. فقدم على علي، فبعث خليد بن قرة اليربوعي، فحاصر أهل نيسابور، حتى صالحوه، وصالحه أهل مرو(1).

وحج بالناس في هذه السنة ـ أعني سنة 37 ـ عبيد الله بن عباس، وكان عامل علي على اليمن، ومخاليفها.

وكان على مكة والطائف قُثَم بن العباس.

وعلى المدينة سهل بن حنيف الأنصاري, وقيل: كان عليها تمام بن العباس.

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص92 و 93 و (ط الأعلمي) ج4 ص46 و 69.

وكان على البصرة عبد الله بن العباس، وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي.

وعلى مصر محمد بن أبي بكر، وعلى خراسان خليد بن قرة اليربوعي.

ويذكر الطبري أيضاً:

أن علياً لما شخص إلى صفين استخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري؛ عقبة بن عمرو. وأما الشام، فكان بها معاوية بن أبي سفيان(1).

وقال الطبري في حوادث سنة 38 هـ:

وحج بالناس في هذه السنة قُثَم بن العباس من قبل علي.

وقال أيضاً:

وكان قُثَم يومئذ عامل علي على مكة، وكان على اليمن عبيد الله بن العباس، وعلى البصرة عبد الله بن العباس، واختلف في عامله على خراسان. فقيل: كان خليد بن قرة اليربوعي. وقيل: كان ابن أبزى.

وأما الشام ومصر، فإنه كان بهما معاوية وعماله(2).

ولا حاجة إلى التحقيق والتدقيق في هذه الأمور، لأنها مجرد

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص92 و93 و (ط الأعلمي) ج4 ص69 و 70.

(2) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص132 و (ط الأعلمي) ج4 ص102.

إجراءات اقتضتها سياسة البلاد والعباد..

الهاربون إلى معاوية:

قال الله سبحانه: **(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**[1].

وعن أمير المؤمنين «عليه السلام»: إن خير المال ما كسب ثناء وشكراً وأوجب ثواباً وأجراً[2].

وروي عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام»: «نعم العون الدنيا على الآخرة..»[3]. وعن أبي عبد الله الصادق «عليه السلام» مثله[4].

---

(1) الآية 32 من سورة الأعراف.

(2) عيون الحكم والمواعظ للواسطي ص143 و 155 ومحاسبة النفس للكفعمي ص60 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج10 ص118 وميزان الحكمة ج4 ص2994 عن غرر الحكم.

(3) كتاب الزهد للحسين بن سعيد الكوفي ص51 وبحار الأنوار ج70 ص127 عنه، ومستدرك الوسائل ج13 ص17 و 58 ومستدرك سفينة البحار ج3 ص372 وميزان الحكمة ج2 ص890 .

(4) راجع: الكافي ج5 ص72 و 73 ومن لا يحضره الفقيه ج3 ص156 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج17 ص30 و (الإسلامية) ج12 ص17 ومستدرك الوسائل ج13 ص15 والأصول الستة عشر (تحقيق المحمودي) ص263 وموسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج7 ص365

وعن الإمام الكاظم «عليه السلام»: «اجعلوا لأنفسكم حظاً من الدنيا بإعطائها ما تشتهي من الحلال، وما لا يثلم المروة، وما لا سرف فيه. واستعينوا بذلك على أمور الدين. فإنه روي: ليس منا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه»(1).

فلم يكن علي «عليه السلام» يمنع أحداً من طلب الحلال، ومن جمع المال من وجوهه المشروعة، ولكنه كان يحذر الناس من أن يصبحوا أسرى أموالهم ودنياهم، وينسوا دينهم وآخرتهم..

بل إن قوله تعالى في مهور النساء: **(وَآَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا)**(2). يدل على جواز تملك الرجال والنساء هذه المقادير من الأموال.

ويبقى السؤال عن سبب هروب بعض الشخصيات إلى معاوية يحتاج إلى جواب.

ونجيب:

بأنه لا ريب في أن بعض الناس قد هربوا إلى معاوية، أو إلى غيره..

وج11 ص384 وميزان الحكمة ج3 ص2303 وج4 ص2984.

(1) بحار الأنوار ج75 ص321 و 346 وتحف العقول ص410 ومستدرك سفينة البحار ج3 ص373 وج10 ص116 وميزان الحكمة ج2 ص914.

(2) الآية 20 من سورة النساء.

ومن هؤلاء:

1 ـ النجاشي الشاعر.

2 ـ طارق بن عبد الله.

3 ـ حنظلة الكاتب.

4 ـ عبد الله بن المعتمر العبسي.

5 ـ عبد الله بن عبد الرحمان بن مسعود.

6 ـ القعقاع بن شور.

7 ـ مصقلة بن هبيرة.

8 ـ النعمان بن العجلان.

9 ـ يزيد بن حجية.

10 ـ مولى لعلي «عليه السلام».

11- وائل بن حجر.

12 ـ جرير بن عبد الله البجلي.

13 ـ أبو عبد الرحمان السلمي.

وآخرون

أما ما يحكى عن هروب عقيل إلى معاوية في زمن علي «عليه السلام» فقد أثبتنا أنها قصة مكذوبة، فراجع كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام.

والنظر في أسباب هرب هؤلاء يعطي:

أولاً: أنهم جميعهم كانوا ميسورين من الناحية المالية.. ولم يهربوا طلباً للقمة العيش. ولا خوفاً من الفقر، ولا خوفاً من جور علي «عليه السلام»، وطلباً لعدل معاوية.

ثانياً: إن من الأسباب التي دعت هؤلاء للهرب إلى معاوية:

ألف: أن بعضهم ـ كالنجاشي الشاعر ـ تجرأ على الله، وانقاد لشهوته، وشرب الخمر في نهار شهر رمضان، فجلده «عليه السلام» الحد، فغضب وهرب(1).

ب: إن بعضهم انساق مع عصبيته الجاهلية، وغضب للنجاشي ـ ولم يغضب لله ـ فهرب مع النجاشي إلى معاوية، كما هو الحال بالنسبة لطارق بن عبد الله النهدي.

ج: إن بعضهم الآخر ـ كحنظلة بن الربيع، أو (حنظلة الكاتب) وابن المعتمر العبسي ـ أنف أن يقيم ببلدة يعاب فيها عثمان، وكان حنظلة يكاتب معاوية(2).

وهذا كان حال وائل بن حجر الذي كان عثمانياً(3).

---

(1) ذكرنا هذه القضية في بعض فصول هذا الكتاب.

(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص93 وج3 ص175 وصفين للمنقري ص96 ونهج السعادة ج2 ص99 والفتوح لابن أعثم ج2 ص541 وجمهرة خطب العرب ج1 ص317.

(3) الغارات للثقفي ج2 ص630 وأنساب الأشراف (ط الأعلمي) ج2 ص458.

د: إن بعضهم كان والياً من قبل أمير المؤمنين «عليه السلام» على بعض البلاد، فسرق الأموال، فلما أحس أن علياً «عليه السلام» عرف بالأمر هرب إلى معاوية، ومنهم القعقاع بن شور الذي كان والياً على كسكر (1).

وقد شارك في تفريق الناس عن مسلم بن عقيل(2).

وقصة مصقلة قد تقدمت، وظهر منها: أنه كان يريد أن يأكل الأموال ولا يدفعها إلى بيت المال.. فلما طولب بها هرب إلى معاوية..

كما أن النعمان بن العجلان قد ذهب بمال البحرين، ولحق بمعاوية(3).

ويزيد بن حجية أيضاً كان والياً من قبل أمير المؤمنين «عليه السلام» على الري، ودستبى, فاستحوذ على ثلاثين ألف درهم من بيت المال، فطالبه بها علي «عليه السلام»، فأنكرها، فجلده، وسجنه،

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص87 والغارات للثقفي ج2 ص532 و 533 وبحار الأنوار ج34 ص324.

(2) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص369 و 381 و (ط الأعلمي) ج4 ص276 و 286 والأخبار الطوال ص239 ومقتل الحسين لأبي مخنف ص44 و 61 وراجع: الكامل في التاريخ ج4 ص36 ونهاية الأرب في فنون الأدب ج20 ص404.

(3) راجع: تاريخ اليعقوبي ج2 ص201 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص153.

فهرب من السجن، ولحق بمعاوية[1].

وتقدم: أنه كان ممن شهد على حجر بن عدي، حتى قتله معاوية[2].

كما أنه قد هجا علياً «عليه السلام»، ودعا عليه علي «عليه السلام»[3].

هـ: هناك مورد واحد يذكر أن سبب اللحاق بمعاوية أنه طلب من علي «عليه السلام» مالاً، فعرض عليه أمير المؤمنين «عليه السلام» أن يقاسمه عطاءه، فقال: لا أكتفي. وخرج إلى معاوية، فوصله، فكتب إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» يخبره بما أصاب من المال..

(1) راجع: الغارات للثقفي ج2 ص525 - 528 والموفقيات ص575 و تاريخ مدينة دمشق ج65 ص147 وأنساب الأشراف (ط الأعلمي) ج2 ص459 وبحار الأنوار ج34 ص290 وقاموس الرجال للتستري ج11 ص97 وفتوح البلدان ج2 ص391 واللباب في تهذيب الأنساب ج2 ص308 والأعلام للزركلي ج3 ص239.

(2) الغارات للثقفي ج2 ص528 وبحار الأنوار ج34 ص291 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص85 وأنساب الأشراف ج5 ص268 وراجع: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص273 و (ط الأعلمي) ج4 ص203 والغدير ج11 ص50 وتاريخ مدينة دمشق ج8 ص23.

(3) المصادر المتقدمة في الهامشين السابقين. وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص84.

فكتب إليه «عليه السلام» كتاباً يعظه فيه[1].

وهذه الحادثة تدل على أن ما دعاه إلى ذلك هو الطمع. بدليل أنه «عليه السلام» عرض أن يقاسمه عطاءه، فلم يرض..

و: إن بعضهم كجرير بن عبد الله البجلي كان من الأساس متهماً بالممالأة لمعاوية، وقد وصفه أمير المؤمنين «عليه السلام»: بأنه يطلب رئاسة، ويروم إمارة[2].

ز: هناك من أبغض علياً «عليه السلام»؛ لأنه حين قسم «عليه السلام» المال في أهل الكوفة لم يصبه شيء[3]. فأغضبه العمل بالحق.

فاتضح أن أسباب هروب هؤلاء الناس هي أنهم يريدون الدنيا من غير حلها.. أو أن سبب الغضب لإجراء أحكام الله فيهم، أو العصبية

---

(1) الكافي ج8 ص72 ومناقب آل أبي طالب ج2 ص111 و (ط المكتبة الحيدرية) ج1 ص378 وبحار الأنوار ج33 ص285 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص164 ونهج السعادة ج4 ص146 ومرآة العقول ج25 ص168.

(2) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج20 ص287 و 277 ونثر الدر ج1 ص325.

(3) الغارات ج2 ص567 وبحار الأنوار ج34 ص296 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص100 والمنتخب من ذيل المذيل ج1 ص147 و(ط تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ص663.

العشائرية، أو الإنحراف في الفكر الديني، والهوى السياسي..

وكتاب علي «عليه السلام» إلى سهل بن حنيف الأنصاري، عامله على المدينة، في معنى قوم أهلها لحقوا بمعاوية، قد شرح لنا هذا الأمر، فقال «عليه السلام»:

أما بعد.. فقد بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم. فكفى لهم غياً ولك منهم شافياً فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم إلى العمى والجهل.

وإنما هم أهل دنيا، مقبلون عليها، ومهطعون إليها، قد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عنده في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة.

فبعداً لهم وسحقاً، إنهم ـ والله ـ لم ينفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل.

وإنا لنطمع في هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه إن شاء الله. والسلام(1).

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص131 الكتاب رقم 70 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص203 وأنساب الأشراف ج2 ص386 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج5 ص225 وبحار الأنوار ج33 ص521 ونهج السعادة ج5 ص18 ـ 20 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج18 ص52.

قيس بن سعد يوازي مئة ألف:

قال الطبري:

عن الزهري، قال: لما حدث قيس بن سعد بمجيء محمد بن أبي بكر، وأنه قادم عليه أميراً، تلقاه وخلا به وناجاه، فقال: إنك جئت من عند امرئ لا رأي له، وليس عزلكم إياي بمانعي أن أنصح لكم، وأنا من أمرِكم هذا على بصيرة، وإني في ذلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمرواً وأهل [الشام] خربتا، فكايدهم به، فإنك إن تكايدهم بغيره تهلك.

ووصف قيس بن سعد المكايدة التي كان يكايدهم بها، واغتشه محمد بن أبي بكر، وخالف كل شيء أمره به.

فلما قدم محمد بن أبي بكر، وخرج قيس قِبَل المدينة بعث محمد أهل مصر إلى خِربتا، فاقتتلوا، فهزم محمد بن أبي بكر.

فبلغ ذلك معاوية وعمرواً، فسارا بأهل الشام حتى افتتحا مصر، وقتلا محمد بن أبي بكر، ولم تزل في حيز معاوية، حتى ظهر.

وقدم قيس بن سعد المدينة، فأخافه مروان والأسود بن أبي البختري، حتى إذا خاف أن يؤخذ، أو يقتل ركب راحلته وظهر إلى علي.

فكتب معاوية إلى مروان والأسود يتغيظ عليهما، ويقول: أمددتما علياً بقيس بن سعد، ورأيه ومكايدته؟! فوالله لو أنكما أمددتماه بمائة

ألف مقاتل ما كان بأغيظ إليَّ من إخراجكما قيس بن سعد إلى علي.

فقدم قيس بن سعد على علي «عليه السلام»، فلما باثَّه الحديث، وجاءهم قتلُ محمد بن أبي بكر، عرف أن قيس بن سعد كان يوازي أموراً عظاماً من المكايدة، وأن من كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم ينصح له(1).

ونقول:

هل قال قيس هذا؟!:

زعم النص المتقدم: أن قيس بن سعد، قال لمحمد بن أبي بكر حين قدم عليه ليتسلم منه عمله، ويكون هو الوالي لمصر بعده: «إنك جئت من عند امرئ لا رأي له».

ونقول:

إن كان يقصد بكلامه هذا: أنه قد غلب على أمره، لأن معاوية كاده بالأشعث وبغيره حتى حركوا الناس ضده، وألزموه بعزل قيس. فهو صحيح.

وإن كان يقصد: أنه «عليه السلام» ضعيف الرأي، فهو غير معقول، فإن قيساً هو الذي يقول لعلي «عليه السلام»: «لأنك نجمنا الذي نهتدي به، ومفزعنا الذي نصير إليه، وإن فقدناك

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص94 و (ط الأعلمي) ج4 ص70 والمصنف للصنعاني ج5 ص460.

لتظلمن أرضنا وسماؤنا»(1).

ويقول: «بايعنا خير من نعلم بعد نبينا»(2).

ثم هو يعتبر أن جبرئيل يقاتل عن يمين لواء علي «عليه السلام»، وميكائيل عن يساره(3).

قال ابن عساكر:

«وجعله مقدمة أهل العراق على شرطة الخميس، الذين كانوا يبايعون للموت»(4).

ولم يزل قيس نصيراً صادقاً لعلي «عليه السلام» منافحاً عنه وعن ولده، مكافحاً لأعدائهم طول حياته.

---

(1) الأمالي للطوسي ص716 وبحار الأنوار ج32 ص69 والغدير ج2 ص75.

(2) الغارات للثقفي ج1 ص211 وبحار الأنوار ج2 ص354 و (ط دار صادر) ج33 ص535 والكامل في التاريخ ج3 ص269 وتاريخ الأمم والملوك ج4 ص548 و 549 و (ط الأعلمي) ج3 ص551 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص59 و 60 والعبر وديوان المبتدأ والخبر ج2 ق2 ص167 والدرجات الرفيعة ص337 .

(3) صفين للمنقري ص445 ـ 447 وبحار الأنوار ج32 ص516 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج8 ص86 والدرجات الرفيعة ص343 .

(4) تاريخ مدينة دمشق ج49 ص428.

هل اغتش محمد قيساً؟!:

تقدم أن الطبري يقول:

إن قيس بن سعد قد نصح محمد بن أبي بكر بمكايدة أعدائه، ودله على ما كان يكايدهم به هو «رحمه الله»، قال: «واغتشه محمد بن أبي بكر، وخالف كل شيء أمره به»(1). وهذه مجرد ترهات، لا قيمة لها من الناحية العلمية، إذ من أين علم الطبري بأن محمد بن أبي بكر قد اعتبر قيس بن سعد غاشاً له؟! ولم لا يكون قد اعتبره مخلصاً في نصيحته، ولكنه كان مخطئاً فيها؟!

فإن نفس مخالفة محمد لقيس في رأيه، وفي سياسته لا تعني أنه يتهمه بالغش، وعدم الإخلاص.. وليس لدينا ما يدل على أن محمد بن أبي بكر قد أسرَّ بهذا الأمر لأحد من الناس..

على أن من المحتمل أن يكون أهل خربتا هم الذين اغتنموا فرصة غياب قيس، فتحركوا، وشغبوا على محمد، فاضطروا لمواجهتهم.

هل هرب قيس من المدينة؟!:

ثم أن سياق كلام الطبري في بيان ما جرى لقيس بن سعد في المدينة يوحي: بأن مروان بن الحكم، والأسود بن أبي البختري كانا

---

(1) تاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج4 ص70.

متسلطين على المدينة، وأنه خاف منهما فهرب إلى علي «عليه السلام»..

وهذا ليس بدقيق، وسبب ترك قيس للمدينة، وقدومه على علي «عليه السلام»:

أولاً: أنه علم بأن مروان، والأسود قد تآمرا عليه، ودبرا لاغتياله، وهذا لا يعني التسلط والهيمنة على البلد، فإن الإغتيال أمر ميسور لكل أحد. ولكن قيساً لم يرد أن يكون لقمة سائغة، ويذهب دمه هدراً، ويفلت الجناة من العقاب.. إما بالهرب إلى معاوية، أو بعدم انكشاف أمرهم(1).

ثانياً: إنه رأى أن الأعداء قد شمتوا به وبعلي «عليه السلام»، حيث خسر «عليه السلام» نصيراً قوياً، ومؤثراً، ودب الخلاف بينه وبين أحد أهم أصحابه..

ولا شك في أن الإنسان المؤمن والعاقل لا يسعد بشماتة عدوه به، ولذا قال: «والله إن هذا القبيح إن أفارق علياً «عليه السلام» وإن عزلني. والله، لألحقن به، فلحق به».

ثالثاً: إنه أدرك أن عودته إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» ستكون مفيدة، وستفرح قلب إمامه، وتكبت عدوه، وقد تسهم في إصلاح بعض الأوضاع، وتسد بعض الثغرات، فإن التحديات كبيرة،

---

(1) سير أعلام النبلاء ج3 ص110 وتاريخ مدينة دمشق ج49 ص428.

والأحوال خطيرة، ولا سيما إذا كانت حرب صفين ستكون هي الخطوة التالية، وقد كان قيس فيها على رجالة أهل البصرة(1).

ثم صار قائداً على الأنصار عند احتدام الحرب(2).

ثم كان على ميمنة الجيش في النهروان(3).

وقد جعله على عشرة آلاف حين أراد العودة إلى قتال معاوية في آخر أيام حياته «عليه السلام»(4).

يضاف إلى ذلك: توليه شرطة الخميس، ثم ولاية آذربايجان.

---

(1) صفين للمنقري ص208 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص11 و (ط الأعلمي) ج4 ص7 والبداية والنهاية ج7 ص261 وأنساب الأشراف (ط الأعلمي) ج2 ص303 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج4 ص29 والفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص454 والكامل في التاريخ ج3 ص294 والمنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ج5 ص118 ونهاية الأرب في فنون الأدب ج20 ص118.

(2) صفين للمنقري ص453 وبحار الأنوار ج32 ص519 والغدير ج2 ص83.

(3) تاريخ خليفة بن خياط ص197.

(4) راجع: تهذيب الكمال ج4 ص44 والتاريخ الصغير للبخاري ج1 ص137 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص164 وسير أعلام النبلاء ج3 ص108 وراجع: تاريخ مدينة دمشق ج49 ص423 وعن أسد الغابة ج4 ص405 وعن الكامل في التاريخ ج2 ص448 وعمدة الطالب ص66 .

وقد صرح معاوية بأنهم لو أمدوا علياً «عليه السلام» بمئة ألف مقاتل لكان ذلك أهون عليه من التسبب بعودة قيس إلى أمير المؤمنين «عليه السلام»..

وهذا يدل على عظيم أثر هذا الرجل في شد أزر علي «عليه السلام».. وكيف لا يكون كذلك، وهو أحد الخمسة المشهورين بالدهاء بين العرب، بالإضافة إلى عبد الله بن بديل، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة[1].

وهو القائل: لولا أني سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: «المكر والخديعة في النار، لكنت أمكر هذ الأمة»[2].

ويقول: «لولا الإسلام لمكرت مكراً لا تطيقه العرب»[3].

---

(1) البداية والنهاية (ط دار إحياء التراث العربي) ج5 ص359 وج8 ص53 و 109 والسيرة النبوية لابن كثير ج4 ص665 وتاريخ مدينة دمشق ج49 ص424 وأسد الغابة ج4 ص215 وتهذيب الكمال ج24 ص44 وسير أعلام النبلاء ج3 ص108 وتاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج4 ص125 والكامل في التاريخ ج3 ص408 و 409 .

(2) تهذيب الكمال ج24 ص44 وشعب الإيمان ج4 ص324 وتاريخ مدينة دمشق ج49 من ص423 وأسد الغابة ج4 ص405 وسير أعلام النبلاء ج3 ص107 وتاريخ الإسلام للذهبي ج4 ص290.

(3) راجع: الإستيعاب (بهامش الإصابة) ج3 ص226 و (ط دار الجيل) ج3 ص1290 والدرجات الرفيعة ص335 وتاريخ مدينة دمشق ج49

متى عرف علي × بقيمة قيس؟!:

ويتابع الطبري بث سمومه، فيزعم: أنه لما جاء قيس بن سعد من المدينة إلى الكوفة، وحدَّث علياً «عليه السلام» بما كان من أمره: «وجاءهم قتل محمد بن أبي بكر عرف أن قيس بن سعد كان يوازي أموراً عظاماً من المكايدة، وأن من كان يشير عليه بعزل قيس بن سعد لم ينصح له».

ونقول:

لقد كفانا أبو عمر بن عبد البر القرطبي مؤونة الجواب، فقد صرح: بأن علياً «عليه السلام» قد عرف أن قيساً يكايد معاوية في أمر مصر، قبل عزل قيس.. وأشار إلى أن معاوية قد حاول أن يسدد ضربته لقيس من جهة الأشعث بن قيس، وغيره من أهل الكوفة، حيث دس إليهم بالعمل على حمل علي «عليه السلام» على عزله..

قال أبو عمر: «وكان ولاه على مصر، فضاق به معاوية، وأعجزته فيه الحيلة، وكايد فيه علياً «عليه السلام»، ففطن علي بن أبي طالب «عليه السلام» بمكيدته. فلم يزل به الأشعث وأهل الكوفة، حتى عزل قيساً، وولى محمد بن أبي بكر، ففسد ت عليه مصر»[1].

ص423 والإصابة ج5 ص361 والوافي بالوفيات ج24 ص213.

(1) الإستيعاب (بهامش الاصابة) ج3 ص226 و (ط دار الجيل) ج3 ص1290 والوافي بالوفيات ج24 ص212 وخلاصة عبقات الأنوار ج8

وقال المجلسي «رحمه الله»: «وجدت في بعض الكتب أن عزل قيس عن مصر مما غلب على أمير المؤمنين «عليه السلام» أصحابه، واضطروه إلى ذلك، ولم يكن هذا رأيه، كالتحكيم. ولعله أظهر وأصوب»(1).

وأشار إلى ذلك أيضاً العسقلاني، بقوله: «وكان قد أمَّره علي، فاحتال عليه معاوية، فلم ينخدع له، فاحتال على أصحاب علي «عليه السلام» حتى حسنوا له تولية محمد بن أبي بكر، فولاه مصر»(2).

ولكن كلام أبي عمر أدق وأصدق من كلام العسقلاني، لأنه صرح بإصرار الأشعث وأهل الكوفة على علي «عليه السلام» بعزله، فعزله مضطراً، لا أنهم حسنوا له تولية محمد، فحسنت توليته عنده، كما يقول العسقلاني.

والذي كان يحب تولية محمد بن أبي بكر هو عبد الله بن جعفر..

فما ذكره الطبري، من أن علياً «عليه السلام» قد خدع من ناصحيه، وأنه لم يكتشف ذلك إلا بعد قتل محمد بن أبي بكر غير دقيق، بل غير صحيح.

ص330 وراجع: الثقات لابن حبان ج2 ص278 .

(1) بحار الأنوار ج33 ص540.

(2) الإصابة ج3 ص249 والدرجات الرفيعة ص342.

الفصل الثاني

كان لي الأشتر
كما كنت لرسوله الله..

ما لمصر إلا الأشتر:

عن يزيد بن ظبيان الهمداني، قال: ولما قتل أهل خِربتا ابن مضاهم الكلبي، الذي وجهه إليهم محمد بن أبي بكر، خرج معاوية بن حديج الكندي، ثم السكوني، فدعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابه ناس آخرون، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر.

فبلغ علياً «عليه السلام» وثوب أهل مصر على محمد بن أبي بكر، واعتمادهم إياه، فقال «عليه السلام»:

ما لمصر إلا أحد الرجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها، يعنى قيساً، أو مالك بن الحارث، يعنى الأشتر.

قال: وكان على «عليه السلام» حين انصرف من صفين ردّ الأشتر على عمله بالجزيرة، وقد كان «عليه السلام» قال لقيس بن سعد: أقم معي على شرطتي، حتى نفرغ من أمر هذه الحكومة، ثم اخرج إلى آذربيجان. فإن قيساً مقيم مع علي «عليه السلام» على شرطته، فلما انقضى أمر الحكومة كتب على إلى مالك بن الحارث

الأشتر وهو يومئذ بنصيبين:

أما بعد..

فإنك ممن أستظهر به على إقامة الدين، وأقمع به نخوة الأثيم، وأسد به الثغر المخوف، وكنت وليت محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلام حدث ليس بذى تجربة للحرب، ولا بمجرب للأشياء، فاقدم عليَّ للنظر في ذلك فيما ينبغي، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك، والسلام.

فأقبل مالك إلى علي «عليه السلام» حتى دخل عليه، فحدثه حديث أهل مصر، وخبره خبر أهلها، وقال «عليه السلام»: ليس لها غيرك. اخرج رحمك الله، فإنى إن لم أوصك اكتفيت برأيك، واستعن بالله على ما أهمك، فاخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم بالشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة.

فخرج الأشتر وأتى رحله، وتهيأ للخروج إلى مصر، وقدم أمير المؤمنين «عليه السلام» أمامه كتاباً إلى أهل مصر(1).

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص95 و (ط الأعلمي) ج4 ص71 وراجع: الأمالي للمفيد ص56 والغارات ج1 ص256 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص74 وأنساب الأشراف ج3 ص167 و (ط الأعلمي سنة 1394هـ) ج2 ص398 والكامل لابن الأثير ج2 ص356 و (ط دار صادر) ج3 ص352 ونهج السعادة ج5 ص45 والنجوم الزاهرة ج1 ص103.

ونقول:

كتب علي × عند معاوية:

تقدم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» ولى محمد بن أبي بكر بلاد مصر في أول شهر رمضان المبارك سنة ـ سبع وثلاثين[1] وقيل: في صفر سنة ثمان وثلاثين[2] ـ ست وثلاثين[3]، وهو الصحيح. وبقي والياً عليها إلى أن استشهد.

وكتب «عليه السلام» كتاباً إلى أهل مصر[4]. وكتب أيضاً لمحمد

---

(1) الغارات للثقفي ج2 ص758 وتهذيب الكمال ج24 ص542 والإصابة ج6 ص194 وتهذيب التهذيب ج9 ص70 والتحفة اللطيفة للسخاوي ج2 ص462.

(2) تهذيب الكمال ج24 ص542 وتهذيب التهذيب ج9 ص70.

(3) الغارات للثقفي ج1 ص225 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص66 وبحار الأنوار ج33 ص541 و تاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج3 ص556 والكامل في التاريخ ج3 ص273 و جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت ج1 ص398.

(4) الغارات للثقفي ج1 ص224 و 225 وتحف العقول ص176 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص224 وبحار الأنوار ج33 ص540 ونهج السعادة ج4 ص98 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص65 وأنساب الأشراف ج2 ص393 وتاريخ الأمم والملوك ج3 ص556 .

بن أبي بكر كتباً عديدة، بعضها كان جواباً على أسئلة محمد بن أبي بكر، في الحلال والحرام، والسنن والمواعظ.. تلك الأسئلة التي نالت إعجاب أمير المؤمنين «عليه السلام»، واستوجبت ثناءه على محمد بن أبي بكر لأجلها(1).

وقد ذكر هذه الكتب كثيرون، منهم: الثقفي في كتاب الغارات، فراجع(2).

وتقدم أيضاً: أنه لما استشهد محمد بن أبي بكر أخذ عمرو بن العاص كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية، وكان معاوية يظهر إعجابه بها، فطلب منه الوليد بن عقبة أن يحرق تلك الكتب، لكي لا يعرف الناس أن كتب علي «عليه السلام» عنده.. وأنه يقضي بمضامينها، ويتعلم منها.

وما نريد لفت نظر القارئ إليه هنا: هو أن معاوية لم يكن من محبي العلم، ولا هو من أهله، ولم يكن يهمه أن يقضي بالحق. وأن يحكم بالعدل.. إلا بمقدار ما يثبت ذلك أقدامه في الحكم، ويفيد في بقاء سلطانه. ويعطي صورة عنه يخدع بها البسطاء والسذج، حين يحتاج إلى التعامل معهم برفق حيث لا يستطيع استخدام أسلوب البطش

(1) الغارات للثقفي ج1 ص227 و 228 وتحف العقول ص176 وبحار الأنوار ج33 ص585.

(2) الغارات للثقفي ج1 من ص228 - 302 وراجع: مكاتيب الأئمة.

والقهر والغلبة..

وقد أوضح صاحب الغارات ما جرى بين محمد بن أبي بكر، وأهل خِربتا، فذكر أنه أنذرهم في البداية: بأن يدخلوا في طاعة أمير المؤمنين «عليه السلام»، فامتنعوا. ثم كانت حرب صفين، وانجر الأمر إلى التحكيم، فاجترؤوا على محمد بن أبي بكر، وأظهروا المنابذة..

فأرسل إليهم ابن جمهان، فقتلوه، فبعث إليهم ابن مضاهم، فقتلوه.

ثم خرج معاوية بن حديج للطلب بدم عثمان ـ وابن حديج قد ولي مصر بعد هذا ليزيد بن معاوية. وهو من مبغضي أمير المؤمنين «عليه السلام».

ونقول:

لا بد من الإنتظار:

لقد شغب أهل خربتا على محمد بن أبي بكر قبل حرب صفين، ولكنهم سكتوا على حذر، فلما كانت صفين وتقررت الحكومة في دومة الجندل عادوا إلى إظهار ما في أنفسهم، ثم تفاقمت الأمور في مصر بخروج معاوية بن حديج للطلب بدم عثمان..

وعرف علي «عليه السلام» بما يجري. ولكنه كان محرجاً بعدة عوامل كلها كبيرة وخطيرة..

ونستطيع أن نرى الأمور كما يلي:

1 - إن معاوية كان العدو المتربص من جهة الغرب. ومعاوية لم يكن في عجلة من أمره، لأنه كان ينتظر نتيجة التحكيم.

2 - في مصر بدأت المشكلات تتفاقم..

من جهة شمال العراق هناك بلاد الترك، حيث كانت لولاية في الجزيرة أهمية خاصة في درء المشكلات التي تأتي منها. ثم في ضبط حركة معاوية..

أما سائر المناطق فهي تحت السيطرة لوجود ابن عباس في جنوب العراق. وهو ضابط لمناطق الأهواز، وما والاها.. والكوفة كانت تضبط حركة المناطق التي تليها في بلاد فارس..

وكان في سائر البلاد عمال يضبطون الأمور فيها بدرجة تكاد تكون مقبولة.. وتبقى آذربايجان بحاجة إلى والٍ قوي أيضاً..

ولم يكن «عليه السلام» لديه خيارات كثيرة فيما يرتبط بالرجال القادرين على معالجة أمر مصر.. بل كان عنده رجلان فقط يقدران على ذلك، هما: قيس بن سعد الذي كان عليها سابقاً ويعرف أمورها وأحوالها.. ولم يكن من المناسب إعادته إليها. لا سيما وأنه كان بحاجة إليه لضبط ثغر آذربايجان من جهة، ويحتاج من جهة أخرى إلى قيادة قوته لكتيبة شرطة الخميس التي سيحتاج إليها لمعالجة تداعيات التحكيم الذي كان «عليه السلام» يعرف نتائجه سلفاً وكان ينتظر ردود الفعل التي ستنشأ عنه..

فلم يبق أمامه «عليه السلام» إلا الإستعانة بالأشتر لمعالجة أمر

مصر، فاستدعاه من الجزيرة، وطلب منه أن يتولى مصر، وأوصاه بوصية واحدة، وهي: أن يعتمد سياسة التوازن والحزم الذي هو خلط الشدة باللين ما دام يمكنه ذلك على قاعدة: لا تكن رطباً فتعصر، ولا يابساً فتكسر(1). ولا يخرج عن هذه السياسة إلا في موردين هما:

1 ـ الرفق: ما كان الرفق أبلغ..

2 ـ الشدة: حيث لا ينفع سواها.. فالشدة المحضة هي الخيار الأخير الذي يأتي بعد نفاد جميع الوسائل.

وهي أبلغ وصية سمعناها. وأروع وأنفع وأنجع طريقة للحكم رأيناها.

فقد قال له: «أخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة».

الأشتر إلى مصر

قال: فخرج الأشتر من عند علي «عليه السلام»، فأتى رحله، فتهيأ للخروج إلى مصر. وأتت معاوية عيونه، فأخبروه بولاية علي «عليه السلام» الأشتر، فعظم ذلك عليه. وقد كان طمع في مصر، فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر.

فبعث معاوية إلى الجايستار رجل من أهل الخراج، فقال له: إن الأشتر قد ولي مصر، فان أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت،

---

(1) فيض القدير ج6 ص336.

فاحتل له بما قدرت عليه.

فخرج الجايستار حتى أتى القلزم، وأقام به.

الأشتر الشهيد:

وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم [حيث تركب السفن] استقبله الجايستار، فقال: هذا منزل، وهذا طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج، [فأقم واسترح].

فنزل به الأشتر، [وعند اليعقوبي: أنزل منزل رجل من أهل المدينة يقال له:..]، فأتاه الدهقان بعلف وطعام، حتى إذا طعم أتاه بشربة من عسل، قد جعل فيها سماً، فسقاه إياه، فلما شربها مات [بالقلزم، وبها قبره].

وأقبل معاوية يقول لأهل الشأم: إن علياً «عليه السلام» وجه الأشتر إلى مصر، فادعوا الله أن يكفيكموه.

قال: فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشتر.

وأقبل الذي سقاه إلى معاوية، فأخبره بمهلك الأشتر.

فقام معاوية في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أما بعد..

فإنه كانت لعلى بن أبي طالب «عليه السلام» يدان يمينان، قطعت إحداهما يوم صفين ـ يعنى عمار بن ياسر ـ وقطعت الأخرى اليوم ـ يعنى

الأشتر ـ[1].

إن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان قد أوصى الأشتر قائلاً: «لا تأخذ على السماوة، فإني أخاف عليك من معاوية وأصحابه، ولكن الطريق الأعلى في البادية حتى تخرج إلى أيلة، ثم ساحل مع البحر حتى تأتيها..»[2].

وعن الشعبي: أن الأشتر مات عند عقبة أفيق[3].

وهي العقبة التي ينزل منها إلى غور الأردن.

وفي نص آخر: أن معاوية لما علم بمسير الأشتر إلى مصر أرسل رسولاً أمره باغتياله، فصحبه، فاستسقاه يوماً، فسقاه شراباً مسموماً، وهرب، فطلبوه، ففاتهم[4].

وعند المسعودي: وأتى من كان معه على الدهقان، ومن كان معه.. وقال: إن ذلك كان بالعريش. وقيل: بالقلزم، والأول أثبت[5].

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص95 و 96 و (ط الأعلمي) ج4 ص71 و 72 وراجع: الغارات للثقفي ج1 ص259 و 260 و 263 و 264 وراجع: الأمالي للمفيد ص82 والكامل في التاريخ ج2 ص410 و (ط دار صادر) ج3 ص353 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص194 والنصائح الكافية ص87.

(2) الإختصاص ص80 وبحار الأنوار ج33 ص590.

(3) الغارات للثقفي ج1 ص262 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص75.

(4) الغارات للثقفي ج1 ص262 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص76.

(5) مروج الذهب (منشورات دار الهجرة. إيران ـ قم) ج2 ص409 وراجع:

وفي رواية أخرى: أن الذي فعل ذلك مولى لآل عمر، وأنه لما لقي الأشتر لم يزل يذكر له فضل علي «عليه السلام» وبني هاشم حتى اطمأن إليه، واستأنس به، فقدم الأشتر يوماً ثقله، أو تقدم ثقله، فاستسقى ماء، فسقاه سويقاً مسموماً فمات[1].

وعن بعض العلماء: أن الأشتر قتل بمصر بعد قتال شديد[2].

وفي نص آخر: أن قتل الأشتر كان بعد قتل محمد بن أبي بكر، وأن عبد الله بن جعفر أشار عليه بالأشتر، فدعاه، فكتب إليه عهده المتقدم على مصر، ثم أمره أن لا يأخذ على السماوة، وإنما على الطريق الأعلى في البادية حتى يخرج إلى أيلة، ثم ساحل البحر.

وذكر: أنه التقى بنافع مولى عثمان، فزعم له أنه مولى لعمر، وأنه يريد مصر، لأنه لا يشبع من الخبز في المدينة، فقال له:

الزمني، فإني سأصيبك بخبز، فلما بلغ القلزم، وهو من مصر

عيون الأخبار لابن قتيبة ج1 ص201 والغدير ج11 ص63 وراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ج6 ص213 وتاريخ مدينة دمشق ج56 ص375 .

(1) الغارات للثقفي ص262 و 263 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص76 وبحار الأنوار ج33 ص555 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 ص77 و 78 وراجع: عيون الأخبار لابن قتيبة ج1 ص299.

(2) الغارات للثقفي ج1 ص263 وبحار الأنوار ج33 ص555 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص76.

على ليلة نزل على امرأة من جهينة، فأطعمته سمكاً طرياً، وكان صائماً في يوم حار، فأكثر من شرب الماء، فسقاه نافع عسلاً مسموماً، فأخذه الموت من ساعته، وانسل نافع في ظلمة الليل، فأمر به الأشتر أن يطلب، فلم يصب.

وكان لمعاوية بمصر عين يقال له: مسعود بن جرجة، فكتب إلى معاوية بهلاك الأشتر، فقام معاوية خطيباً في أصحابه، فقال:

إن علياً كانت له يمينان، قطعت إحداهما بصفين ـ يعني عماراً ـ وأخرى اليوم؛ إن الأشتر مر بأيلة متوجهاً إلى مصر، فصحبه نافع مولى عثمان، فخدمه وألطفه حتى أعجبه، واطمأن إليه، فلما نزل القلزم أحضر له شربة من عسل بسم، فسقاه فمات، ألا وإن لله جنوداً من عسل(1).

شماتة علي × بموت الأشتر:

قال المسعودي، ونحوه ابن قتيبة: «فبلغ ذلك (يعني موت الأشتر) علياً «عليه السلام»، فقال: لليدين وللفم».

وبلغ معاوية ذلك، فقال: [يا بردها على (كبدي) الكبد].

---

(1) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج78 والإختصاص ص79 - 81 ومعجم رجال الحديث ج14 ص163 ح9796 وبحار الأنوار ج33 ص591 و 734.

إن لله جنداً من العسل[1].

وروى ابن عساكر وغيره عن الشعبي: أن عبد الله بن جعفر قال: كان علي بن أبي طالب غضب على الأشتر وقلاه، واستثقله، فكلمني أن أكلم أمير المؤمنين علياً يرضى عنه. فكلمته أن يرضى عنه. فلم يشفعني، وكنت إذا سألت فلم يفعل، سألته بحق جعفر، فشفعني ورضي عنه، ثم قلت له: لو بعثته إلى مصر، فإن ظفر فذاك، وإلا..

فكلمني ظئران لي من الأعراب أن أكلم لهما الأشتر، أن يصحبهما.

فخرجوا، فلم ألبث أن رجع ظئراني الأعرابيان.

فقلت لهما: ما الخبر؟!

قالا: ما هو إلا أن قدمنا القلزم، فَلُقِيَ الأشتر بشربة من عسل، فشربها فمات.

فدخلت على علي، فأخبرته، فقال: لليدين وللفم، لليدين وللفم[2].

---

(1) مروج الذهب ج2 ص39 و (منشورات دار الهجرة. إيران ـ قم) ج2 ص410 وعيون الأخبار لابن قتيبة ج1 ص299 وراجع: تاريخ مدينة دمشق ج56 ص389 وتهذيب الكمال ج27 ص128.

(2) راجع: توضيح المشتبه لمحمد بن عبد الله القيسي الدمشقي (ابن ناصر الدين) ج1 ص230 وتاريخ مدينة دمشق ج56 ص389 وراجع: النجوم

ونقول:

لا ريب في أن هذا من أكاذيبهم على علي «عليه السلام»، بسبب شدة حقدهم على الأشتر، ويدل على ذلك:

أولاً: حزن علي ×:

إن حزن علي «عليه السلام» على الأشتر كالنار على المنار، وكالشمس في رائعة النهار، ولهذا الأمر شواهد كثيرة، نذكر باقة منها تدل على عظمة الأشتر من جهة، وعلى شدة حزن علي «عليه السلام» على هذا الرجل العظيم من جهة أخرى..

1 ـ لما جاءه نعي الأشتر [تأوه، وحزن، وقال]:

مالك!! وما مالك! والله، لو كان جبلاً لكان فنداً(1)، ولو كان حجراً لكان صلداً(2) [وكأنه قُدَّ مني قَدّاً](3)، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي(4) عليه الطائر(5).

الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة للأتابكي ج1 ص104.

(1) الفند: هو المنفرد من الجبال راجع: النهاية ج3 ص475.

(2) حجر صلد: صلب أملس. راجع: لسان العرب ج3 ص256.

(3) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ج1 ص284.

(4) أوفى: أشرف وأتى. راجع: لسان العرب ج15 ص399.

(5) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج4 ص103 الحكمة 443 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج5 ص455 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج20 ص93 وبحار

2 ـ عن فضيل بن خديج عن أشياخ النخع:

دخلنا على علي «عليه السلام» حين بلغه موت الأشتر، فجعل يتلهف ويتأسف عليه، ويقول: لله در مالك! وما مالك! لو كان جبلاً لكان فنداً، ولو كان حجراً لكان صلداً، أما والله ليهدن موتك عالماً، وليفرحن عالماً، على مثل مالك فلتبك البواكي، وهل موجود كمالك!!(1).

3 ـ عن عوانة:

لما جاء هلاك الأشتر إلى علي بن أبي طالب «صلوات الله عليه» صعد المنبر، فخطب الناس، ثم قال:

ألا إن مالك بن الحارث قد قضى نحبه، وأوفى بعهده، ولقي ربه، فرحم الله مالكاً، لو كان جبلاً لكان فذاً، ولو كان حجراً لكان

الأنوار ج33 ص592 وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب ج7 هامش ص79 ـ 80 عن: ربيع الأبرار ج1 ص182 و (ط الأعلمي) ج1 ص216 وراجع: الكامل في التاريخ ج2 ص410 وتاريخ الإسلام للذهبي ج3 ص594 وسير أعلام النبلاء ج4 ص34 ورجال الكشي ج1 ص283 ورجال ابن داود ص157 وجامع الرواة ج2 ص37 وعيون الحكم والمواعظ ص416 .

(1) والغارات للثقفي ج1 ص265 والأمالي للمفيد ص83 والإختصاص ص83 وبحار الأنوار ج33 ص556 وج79 ص130 والغدير ج9 ص40 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص77 .

صلداً، لله مالك، وما مالك! وهل قامت النساء عن مثل مالك! وهل موجود كمالك!

قال: فلما نزل ودخل القصر أقبل عليه رجال من قريش، فقالوا: لشد ما جزعت عليه، ولقد هلك.

قال: أما ـ والله ـ هلاكه فقد أعز أهل المغرب، وأذل أهل المشرق.

قال: وبكى عليه أياماً، وحزن عليه حزناً شديداً، وقال: لا أرى مثله بعده أبداً(1).

4 ـ عن صعصعة بن صوحان:

لما بلغ علياً «عليه السلام» موت الأشتر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، اللهم إني أحتسبه عندك، فإن موته من مصائب الدهر، فرحم الله مالكاً، فقد وفى بعهده، وقضى نحبه، ولقي ربه، مع أنا قد وطَّنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإنها أعظم المصائب(2).

5 ـ لما بلغ علياً «عليه السلام» قتل محمد بن أبي بكر والأشتر،

---

(1) الإختصاص ص81 وبحار الأنوار ج33 ص591 و 735 وشجرة طوبى ج2 ص331 ونهج السعادة ج2 ص458.

(2) الغارات للثقفي ج1 ص264 والأمالي للمفيد ص83 وراجع: الغدير ج9 ص40 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص77.

جزع عليهما جزعاً شديداً، وتفجع، وقال علي «عليه السلام»:

على مثلك فلتبك البواكي يا مالك، وأنى مثل مالك![1].

6 - عن علقمة بن قيس النخعي ـ بعد شهادة مالك الأشتر ـ:

فما زال علي «عليه السلام» يتلهف ويتأسف، حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وقد عرف ذلك في وجهه أياماً[2].

7 ـ قال المعتزلي عن الأشتر:

كان فارساً شجاعاً رئيساً من أكابر الشيعة وعظمائها، شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين «عليه السلام» ونصره[3].

وقال «عليه السلام» فيه بعد موته:

رحم الله مالكاً، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله «صلى الله عليه وآله»![4].

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص194.

(2) الغارات للثقفي ج1 ص265 و 266 وبحار الأنوار ج33 ص556 و 722 ونهج السعادة ج2 ص464 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص77.

(3) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج15 ص98 والغدير ج9 ص40.

(4) وسائل الشيعة (آل البيت) ج30 ص453 و (الإسلامية) ج20 ص306 وبحار الأنوار ج42 ص176 وشجرة طوبى ج2 ص332 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص351 و 352 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص214 وج15 ص98 وخلاصة الأقوال ص277 ورجال ابن داود ص157والكنى والألقاب ج2 ص30 والأعلام للزركلي ج5 ص259

8 - لو جاز أن نجازف بالقول لقلنا: إن نفس قول معاوية ـ بعد شهادة مالك الأشتر ـ:

أما بعد، فإنه كان لعلي بن أبي طالب «عليه السلام» يدان يمينان، فقطعت إحداهما يوم صفين ـ يعني عمار بن ياسر ـ وقطعت الأخرى اليوم وهو مالك الأشتر(1). يكفي للدلالة على أن علياً «عليه السلام» سيكون حزيناً على فقد مالك كحزنه على فقد عمار بن ياسر..

ثانياً: فقد الأشتر:

ويدل على عدم صحة قولهم: إن علياً «عليه السلام» قال عن الأشتر تلك الكلمة القاسية: «لليدين وللفم» عمق تأثير فقد الأشتر عل البلاد في طاعتها وانقيادها لأمير المؤمنين «عليه السلام»، إذ يكفي أن نذكر:

1 - عن ربيعة بن ناجذ ـ بعد ذكر استنفار الإمام «عليه السلام»

وينابيع المودة ج2 ص28 والغدير ج9 ص40 ونهج الإيمان ص551 وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج3 ص318 وقاموس الرجال ج7 ص464.

(1) تاريخ الأمم والملوك ج5 ص95 و 96 و (ط الأعلمي) ج4 ص71 و 72 وراجع: الغارات للثقفي ج1 ص259 و 260 و 263 و 264 وراجع: الأمالي للمفيد ص82 والكامل في التاريخ ج2 ص410 و (ط دار صادر) ج3 ص353 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص194 والنصائح الكافية ص87.

الناس، وتقاعدهم عنه، واجتماعهم على خذلانه، وخطبته «عليه السلام» في ذلك ـ: ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا، فقام رجل، فقال بأعلى صوته: استبان فقد الأشتر على أهل العراق، لو كان حياً لقل اللغط، ولعلم كل امرئ ما يقول(1).

2 ـ ذُكر الأشتر النخعي عند معاوية، فقال رجل من النخع للذي ذكره: اسكت، فإن موته أذل أهل العراق، وإن حياته أذلت أهل الشام! فسكت معاوية، ولم يقل شيئاً(2).

3 ـ قال المعتزلي بعدما أشار إلى قتال الأشتر يوم الهرير: قلت: لله أم قامت عن الأشتر! لو أن إنساناً يقسم أن الله تعالى ما خلق في العرب، ولا في العجم أشجع منه إلا أستاذه «عليه السلام» لما خشيت عليه الإثم!

ولله در القائل، وقد سئل عن الأشتر: ما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام، وهزم موته أهل العراق!

---

(1) الأمالي للطوسي ص174 والغارات للثقفي ج2 ص481 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص90 وبحار الأنوار ج34 ص148.

(2) أنساب الأشراف ج5 ص41 و (نشر جمعية المستشرقين الألمانية ـ بيروت) ج5 ص35 والبيان والتبيين للجاحظ ص509 والتذكرة الحمدونية ج4 ص20 وعيون الأخبار لابن قتيبة ج1 ص186 و (ط دار الكتب العلمية سنة 1424هـ) ج1 ص283 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص214 كلاهما نحوه.

وبحق ما قال فيه أمير المؤمنين «عليه السلام»: كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله «صلى الله عليه وآله»[1].

ثالثاً: مكانة الأشتر عند علي ×:

ومما يدل على عدم صحة هذه الترهات: ما علم من مكانة كانت للأشتر لدى علي «عليه السلام»، وشدة طاعنه له، حتى لقد قال: كان لي الأشتر كما كنت لرسول الله.

وقال «عليه السلام» لأهل مصر: آثرتكم به على نفسي[2].

وقال «عليه السلام»: فإنه لا يورد ولا يصدر إلا عن أمري[1].

---

(1) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص213 و 214 والكنى والألقاب ج2 ص30 وينابيع المودة ج2 ص28.

(2) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص63 الكتاب رقم 38 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص135والغارات للثقفي ج1 ص261 و 267 والأمالي للمفيد ص82 والإختصاص للمفيد ص80 وشرح نهج البلاغة لابن ميثم ج5 ص83 وبحار الأنوار ج33 ص553 و 590 و 596 و 639 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص353 و موسوعة أحاديث أهل البيت للنجفي ج11 ص284 ونهج السعادة ج5 ص51 ومنهاج البراعة ج3 ص121 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج6 ص75 و 78 وج16 ص156 ورجال النجاشي ص203 وتاريخ مدينة دمشق ج56 ص390 وتاريخ اليعقوبي ج2 ص194 وتاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج4 ص72 و جواهر المطالب لابن الدمشقي ج1 ص366.

وقال «عليه السلام»: ليت فيكم مثله اثنان، بل ليت فيكم مثله واحد(2).

لعل علياً × هو المستهدف:

وبعد.. فإنه يحق لنا أن نظن ظناً قوياً: أن يكون علي «عليه السلام» هو المستهدف بهذه الفرية، التي أوردها المسعودي وابن قتيبة.. ليكون علي «عليه السلام» ـ والعياذ بالله ـ هو الرجل غير الوفي لأصحابه، أو الذي لا يحسن تقدير الأمور، ولا يعرف قيمة الأشخاص. أو الذي لا يملك نفسه، وينساق وراء مشاعره من دون وعي، أو أنه لم يكن يدرك أن هذا الكلام يبعد الناس عنه، باعتبار أنه إذا كانت هذه هي نظرته إلى من له هذه الخدمات والمواقف والتضحيات في سبيل حكمه «عليه السلام»، فكيف ستكون نظرته

(1) راجع المصادر في الهامش السابق.

(2) صفين للمنقري ص 521 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج1 ص60 و 300 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج2 ص240 والمعيار والموازنة ص184 والإرشاد للمفيد ج1 ص269 وبحار الأنوار ج32 ص547 وج33 ص310 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص354 ونهج السعادة ج2 ص281 والكنى والألقاب ج2 ص30 وتاريخ الأمم والملوك ج5 ص59 و (ط الأعلمي) ج4 ص42 والكامل في التاريخ ج3 ص163 و (ط دار صادر) ج3 ص322 وأعيان الشيعة ج1 ص514 وينابيع المودة ج2 ص21.

لغيره، ممن لم يقدم كما قدم الأشتر؟!

أو أنه الرجل لا يعرف ما يضره مما ينفعه، أو لا يميز صديقه من عدوه..

ولسوف يتساءل الناس عن الذنب الذي اقترفه الأشتر حتى استحق هذا الموقف القاسي من علي «عليه السلام»؟!

وإذا كانت نظرته إلى الأشتر سيئة إلى هذا الحد، فكيف يوليه الأعمال الجليلة، ويجعله قائداً للجيوش.. ويسلطه على الأموال، وعلى البلاد والعباد؟!

وكيف يقول «عليه السلام» عنه في رسالته لمحمد بن أبي بكر: ونحن عنه راضون.. ويقول «عليه السلام»: كان لنا نصيحاً، وعلى عدونا شديداً، ثم هو يدعو له بمضاعفة الثواب وبحسن المآب؟!

وكيف يصفه بأنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة، ولا كليل الحد.. وبأنه أبعد الناس عن دنس وعار، ثم يدعو عليه، ويظهر شماتته به حين استشهاده؟!

وقد قيل: حدث العاقل بما لا يليق له، فإن لاق له، فلا عقل له..

خطورة طريق السماوة:

لا ريب في أن الأشتر كان يعلم: أنه على لائحة الإغتيالات عند معاوية، وهو هدف رئيس له، ولجميع أعداء علي «عليه السلام» وكان يعرف أيضاً الكثير عن التركيبة السكانية على مساحة الدولة

العلوية كلها، ويعرف ميول الناس وأهواءهم، وولاءاتهم..

ثم هو يعرف أيضاً: أن الأخطبوط الأموي قد نشر عناصره وجواسيسه وعيونه في مختلف البلاد، وأن هناك أضعافهم من المتبرعين المتزلفين، وطلاب اللبانات الذين يمدون معاوية وجميع أعداء علي «عليه السلام» بما تصل يدهم إليه من معلومات عن تحركات علي «عليه السلام» وقادته وجيوشه وتدبيراته.. وغير ذلك..

كما أنه يعلم أن بإمكان معاوية أن يهيء معاوية مجموعات تنفذ له عمليات اغتيال في كثير من المناطق، ولا سيما تلك التي يسيطر عليها العثمانية، أو يكثرون فيها..

ولكن الأشتر بشر أيضاً قد يغفل عن بعض الأمور، أو قد يتسامح فيها، ولعله يشعر أن هيبته قد تمنع بعض الناس من أن يقصدوه بسوء.

فأراد أمير المؤمنين «عليه السلام» أن يلفت نظره إلى ضرورة سلوك سبيل الإحتياط والحذر من مكر معاوية وأعدائه به. فرسم له الطريق الأكثر أمناً، والأبعد عن نفوذ معاوية، فأمره أن لا يأخذ على السماوة وباديتها، بل يتباعد عنها ويسلك الطريق الأعلى في البادية أعني بادية الشام.

وليكن هذا الأمر بمثابة تحذير من مكر معاوية، ومن دسائسه، وتذكير له بما ربما يغفل عنه، ليكون طيلة مسيره في ذلك الطريق الذي حدده له متذكراً أن له عدواً يجب عليه أن يبقى باستمرار على

حذر منه.

ولكي يعرف الجميع ـ بعد أن تقع الواقعة ـ: أن الحذر لا يمنع القدر، وأن الآجال بيد الله سبحانه، وأن علياً «عليه السلام» والأشتر لم يقصرا في هذا الأمر، ولا غلطا في الإختيار، ولا.. ولا..

مولى عمر أم مولى عثمان؟!:

والرواية التي وردت في كتاب الإختصاص عن عبد الله بن جعفر بينت أن الذي سم الأشتر هو نافع مولى عثمان، ولكن لما سأله الأشتر عن نفسه ادعى أنه مولى عمر بن الخطاب.. وهذه شيطنة منه، فإنه كان يعلم أنه لو قال له: إنه من موالي عثمان لارتاب به الأشتر، وحذر منه، وأبعده عنه، لأن بني أمية يصرون على اتهام الأشتر بالمشاركة بقتل عثمان..

أما عمر، فكان مرضياً عنه، ومحبوباً بين العرب، لأجل الإمتيازات التي منحهم إياها في العطاء، وفي التمييز العرقي، وبسبب الفتوحات.. وغير ذلك.

من هو الذي سم الأشتر؟!:

ومتابعة الروايات تعطي: أن ثمة أسماء كثيرة يدعى أن أصحابها قد دسوا السم للأشتر مثل اسم الجايستار على حد تعبير الطبري ـ أو الخراخر ـ على حد تعبير الثقفي ـ أو رجل من أهل الخراج ـ أو الدهقان ـ أو مولى عمر. أو عثمان..

ولكن هذه الأسماء قد تكون كلها تعبر عن رجل واحد، فإن الدهقان، والجايستار، أو الخراخر، ورجل من أهل الخراج كلهم واحد، لعله تمالأ مع مولى عثمان الذي قدم مع الأشتر من أيلة إلى القلزم، وزعم له كاذباً: أنه مولى لعمر بن الخطاب، حتى تمكن من دسّ أحدهما السم إلى الأشتر.. وهرب..

أين مات الأشتر؟!:

وزعمت أحدى الروايات عن الشعبي: أن الأشتر مات عند عقبة أفيق.. ولا ريب في أن هذا من أغلاط الشعبي، أو الرواة عنه، لاتفاق الرواة على أنه رحمه الله مات بالقلزم بمصر، أو على بعد ليلة من مصر، أو في العريش، وعقبة أفيق في الأردن لا في مصر، ولا في أي من المواضع المذكورة.

هل حصل قتال؟!:

وذكرت بعض الكلمات المتقدمة: أن الأشتر قتل بمصر بعد قتال شديد..

ولعل المراد: أنه حين أحس «رحمه الله» بالسم قاتل هو وأصحابه الذين كانوا معه جماعة كانت في ذلك الموضع الذي نزل فيه.. فإن حدوث مثل هذا أمر طبيعي..

الشهادة أمنية الأشتر:

قال ابن أعثم:

في حرب صفين: بكى الأشتر، فقال له علي «عليه السلام»: ما يبكيك ـ لا أبكى الله عيناك ـ؟!

فقال: أبكي يا أمير المؤمنين، لأني أرى الناس يقتلون بين يديك، وأنا لا أرزق الشهادة، فأفوز بها.

فقال له علي «عليه السلام»: أبشر بالخير يا مالك(1).

وقد تحققت بشارة أمير المؤمنين «عليه السلام» للأشتر، ونال الأشتر ما تمناه، فالسلام عليك أيها العبد الصالح المطيع لله ولرسوله، ولأمير المؤمنين، وعلى روحك الطاهرة، وبدنك الطيب، يوم ولدت، ويوم استشهدت، ويوم تبعث حياً مع الشهداء والصديقين، والأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً..

(1) الفتوح لابن أعثم ج3 ص179.

الفهـــارس

1 - الفهرس الإجمالي
2 - الفهرس التفصيلي

1 - الفهرس الإجمالي

الفصل الثالث: غارتان على عين التمر.. وعلى الجزيرة............ 7

الفصل الرابع: غارة على مكة.. 44

الفصل الخامس: غارات الغامدي.. 80

الفصل السادس: الجهاد في خطبة الجهاد.............................. 107

الفصل السابع: شكوى علي × في خطبة الجهاد...................... 134

الفصل الثامن: غارة ابن قباث... 159

الباب الخامس: غارات بسر

الفصل الأول: عصيان العثمانية في صنعاء.. 177

الفصل الثاني: غارات بسر نصوص وآثار.. 200

الفصل الثالث: قادة علي × يلاحقون بسراً: نصوص وآثار...... 231

الفصل الرابع: مع كلمات علي × لأصحابه.......................... 248

الفصل الخامس: عهد علي × لجارية بن قدامة...................... 286

الباب السادس: أحداث.. وشخصيات.. ونهايات..

الفصل الأول: لكي تكتمل الصورة.. .....**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**

الفصل الثاني: كان لي الأشتر كما كنت لرسول الله.. 325

الفهارس:.. 352

1 ـ الفهرس الإجمالي.. 354

2 ـ الفهرس التفصيلي 356

2 ـ الفهرس التفصيلي

الفصل الثالث: غارتان على عين التمر.. وعلى الجزيرة.. 7

6 ـ غارة النعمان بن بشير على عين النمر: 9

ذروة التخاذل عن علي ×: 11

كيف ولماذا نشأ هذا الواقع؟!: 12

أين أهل الدين؟!: 20

فقدان الكبار: 22

معالجات أمير المؤمنين ×: 23

آخر اللمحات: 23

7 ـ غارات عبد الله بن مسعدة: 25

قتل من لا يعطي الزكاة: 28

الفزاريان في الميدان: 29

عقوبة المسيب: 30

صفات ثلاث رجحت المسيب: 32

الإفراط في الشدة، والإفراط في اللين:.................................. 33
توالي الإختبارات، وتقليد الوسام: 34
8 ـ غارة الحارث التنوخي على الجزيرة: 35
من الذي أسر هؤلاء؟!:.. 37
مبادلة الأسرى: 39
ما فعله ابن الوعل يزعج معاوية: 39
سكوت علي × على ابن الوعل: 40
علي × لم يطالب بدم ابن الخثعمي: 41

الفصل الرابع: غارة على مكة..

9 ـ غارة يزيد بن شجرة على مكة: 46
متى ورد ابن شجرة مكة؟!: 57
أهمية مكة بالنسبة لمعاوية: 58
أهمية المدينة: 59
علي × يصف أهل الشام: 60
لماذا اختار × هذه المعاني؟!: 61
عيون علي ×: 65
توصيات علي × لقثم: 68
مهمات معقل وجيشه:.. 72
سمات معقل وجيشه:... 74

علي × يذكر بأسرى بني تغلب: 76
يأسرهم ليبادل بهم:.. 77
بماذا يستنفر الناس للدفاع عن مكة؟!: 77

الفصل الخامس: غارات الغامدي..

10 ـ غارة الغامدي على هيت، والأنبار: 82
أوامر معاوية:.. 82
الغامدي ينفذ الأوامر:.. 83
الخطبة الجهادية لعلي ×:.. 85
استبان فقد الأشتر:.. 90
إيضاحات: 93
اختلال في رواية ابن أعثم:... 95
لم ير ذلك رأياً:... 96
الإجرام الأموي:... 98
هل أخطأ كميل؟!: 98
الحرب الرادعة: 100
لا تكفون أنفسكم: 101
الأمن الشامل: 103
هل هي خطبة أم كتاب؟!:... 105
اسم عامل الأنبار: 105

الفصل السادس: الجهاد في خطبة الجهاد..

وقفات مع خطبة الجهاد: 109
أبواب الجنة كثيرة:.. 109
الجهاد الأكبر والأصغر: 111
لماذا كان هذا هو الجهاد الأكبر؟!: 112
الجهاد هو باب الجنة، وليس الموت:.................................. 113
لباس التقوى: 114
الجهاد درع الله وجنته: 117
آثار ترك الجهاد: 119
ما الرابط بين هذين عند علي ×؟!: 122
قيمة المرأة.. حتى المرأة المعاهدة:................................... 124

الفصل السابع: شكوى علي × في خطبة الجهاد..

ما هذا العَجَبُ؟!:... 136
العجب المميت للقلب:... 137
مبدأ المقابلة بالمثل: 138
طلب الراحة في الذل!!:... 138
يا أشباه الرجال!: 140
قاتلكم الله: 143
ملأتم قلبي قيحاً: 143

شجاع، لكن لا علم له بالحرب: 144
لماذا لم تؤثر شكاواه في أهل العراق؟!: 146
نهض بالحرب، وما بلغ العشرين: 146
لو كانوا ألفاً: 151
مكونات جيش علي ×: 154
أصحابه × في العرب أكثر من الأنصار في القبائل: 156
استبان فقد الأشتر: 157

الفصل الثامن: غارة ابن قباث..

11 ـ غارة ابن قباث على الجزيرة: 161
مبررات غضب علي ×: 166
هل هذا تضاد واختلاف؟!: 168
الخطأ والجهل: 169
إصلاح الخطأ بخطأ آخر: 171
فئة قليلة غلبت فئة كثيرة: 173

الباب الخامس: غارات بسر

الفصل الأول: عصيان العثمانية في صنعاء..

تحرك العثمانية في صنعاء: 179
ثمرات الغارات: 184
موقف علي × من العصاة والولاة: 185

شهادة الأعوان لا تكفي: 189
مواصفات الذين سألهم: 190
ما الذي سأل عنه علي ×؟!: 191
إعطاء الفرصة، ومنح العفو: 193
كتاب علي × إلى عامليه على صنعاء والجند: 195
لماذا الشدة على عاملَيه؟!: 196
مواصفات في القادة، وضوابط في السياسة: 198

الفصل الثاني: غارات بسر نصوص وآثار..

بداية: 202
12 ـ غارات بسر وأوامر معاوية: 202
بسر في المدينة: 204
بسر في مكة: 207
بسر يقتل ابني عبيد الله بن عباس: 207
خطبة بسر في مكة: 209
بسر في الطائف: 211
بسر في نجران: 211
بسر في همذان وجيشان: 212
بسر في صنعاء: 212
قتل ابن ثوابة: 213

التبريرات لا تجدي:... 214
ثلاثة، أو أربعة آلاف: 215
بسر يقر بالإجماع على قتل عثمان:................................. 215
إحراق وهدم دور الأنصار: 216
بسر يولي على المدينة أبا هريرة:.................................... 217
ذبح الغلامين: 218
القسوة الشيطانية:.. 220
أبو موسى محترم عند بسر: 220
إبادة شيعة علي ×:... 221
قتل رُبع أهل حضرموت:.. 222
غارة بسر في سنة أربعين: 224
نجاة أهل تبالة:.. 226
عبيد الله لم يقاتل!! لماذا؟!: 227

الفصل الثالث: قادة علي × يلاحقون بسراً: نصوص وآثار..

علي × يدعو لملاحقة بسر: 233
خطبة ثانية لعلي ×:.. 237
تجهيز جارية بن قدامة: 238
ابن قدامة يلاحق ابن أرطأة:... 240
جيش بسر ست مئة!!:... 246

الفصل الرابع: مع كلمات علي × لأصحابه..

قيمة أولي الرأي والنهى:... 250
البديل عن الإمام ×: 252
إن سرت سرنا معك:... 255
صاحب الرأي أسوأ من الرأي: 256
وظائف الرئيس: 258
رجاء الشهادة كيف؟! ولماذا؟!:....................................... 264
تهويل أمر بسر غير معقول: 265
لو ائتمنه على تعب لذهب بعلاقته: 267
ألف: لم يبق إلا الكوفة كيف؟!: 268
ب: تأثير العاصمة في الأطراف:... 270
ج: من بقي لعلي ×:... 271
فساد كلام الجاحظ: 271
أسباب النصر عند علي ×: 274
السأم والملالة، وما له من دلالة:.. 276
ضرورة الإبدال:.. 278
اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح:...................................... 279
الواحد مقابل عشرة، أو أكثر: 280
غلط فاحش عند ابن أعثم:.. 281

لو وجدت أبا سنور لقتلته:.. 282
استجابة دعاء علي × في بسر: 283

الفصل الخامس: عهد علي × لجارية بن قدامة..

بداية: 288
عهد علي × لجارية:.. 288
عهد علي × لابن قدامة:.. 290
ألف: ما خص به القائد في شخصه:.. 291
ب: المطلوب من جارية تجاه العدو: 292
ج ـ التعامل مع الناس:.. 294
د: تعامل الجيش مع بعضه: 298
هـ : الإتصال المستمر بالقيادة:.. 299

الباب السادس: أحداث.. وشخصيات.. ونهايات..

الفصل الأول: لكي تكتمل الصورة..

الطبري يقول:.. 293
الهاربون إلى معاوية:.. 294
قيس بن سعد يوازي مئة ألف: 302
هل قال قيس هذا؟!:... 304
هل اغتش محمد قيساً؟!: 305
هل هرب قيس من المدينة؟!:.. 306

متى عرف علي × بقيمة قيس؟!: 309

الفصل الثاني: كان لي الأشتر كما كنت لرسول الله..

ما لمصر إلا الأشتر:.. 315
كتب علي × عند معاوية:... 317
لا بد من الإنتظار:... 319
الأشتر إلى مصر 321
الأشتر الشهيد: 321
شماتة علي × بموت الأشتر:.. 325
أولاً: حزن علي ×: 326
ثانياً: فقد الأشتر:.. 331
ثالثاً: مكانة الأشتر عند علي ×: 332
لعل علياً × هو المستهدف:... 333
خطورة طريق السماوة:.. 335
مولى عمر أم مولى عثمان؟!:.. 336
من هو الذي سم الأشتر؟!:... 336
أين مات الأشتر؟!:... 337
هل حصل قتال؟!:.. 337
الشهادة أمنية الأشتر: 337
الفهارس.. 341

1 ـ الفهرس الإجمالي.. 341
2 ـ الفهرس التفصيلي 343